تجديد الإسلام

وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية

- المجددون من أبى بكر حتى الآن.
- لماذا تعثرت جهود التجديد قديماً وحديثاً..
- الطبيعة الإمبراطورية للدولة الإسلامية تفرض مقتضياتها على منظومة المعرفة الإسلامية...
- أصول التأسيس الجديد...

فهرست

الحمد الله الذى
لا نعبد أحداً سواه

الأهمية القصوى لتجديد الإسلام

فى مقدمة الجزء الأول من كتابنا "نحو فقه جديد" قلنا...

"نعم.. نعم..

أجل.. أجل..

فقه جديد.. ولا أقل..

فلم يعد كافيا "تجديد الفقه" أو تطوير الفقه أو حتى الاجتهاد".

وها نحن ذا نعود بعد عشر سنوات لنطرق الباب، لنبدأ تجديداً، ولكن لكل منظومة المعرفة الإسلامية..

لقد آمنا أن هذا التجديد هو أولى أوليات الإصلاح ولقد ثار التساؤل فى أكثر من مناسبة عن أولوية الإصلاح وهل تمنح للإصلاح السياسى أو الإصلاح الاقتصادى أو الإصلاح الدينى وكان اتجاه أغلبية المجتمعين هو أن الإصلاح السياسى هو ما يجب أن يبدأ أولاً لأنه مفتاح كل صور الإصلاح الأخرى، فما لم تتخلص البلاد من النظم الاستبدادية التى تستأثر بالحكم وتحكم شعوبها بأحكام عسكرية وعرفية، فلن يكون هناك مجال لأى إصلاح آخر.

وانفرد كاتب هذه السطور في أن الإصلاح الإسلامى – أو بمعنى أصح تجديد الإسلام لأن كلمة الإصلاح لا تعبر عن "التغيير" المطلوب ومداه – هو الأولى بالأهمية والأحق بالبداية، فمع أن الإصلاح السياسى، والإصلاح الاقتصادى والإصلاح الدينى كلها وجوه لقضية واحدة هى "الإصلاح" وأن كل واحد فيها له أهميته وأنه يتأثر بالوجوه الأخرى ويؤثر عليها. إلا أن هناك عوامل تعطى التجديد الإسلامى الأولوية.

لماذا؟..

لأننا نعنى بالإصلاح الإسلامى جانبين اتصلاً بالدين يمثلان الأهمية العظمى فى المجتمع – فرداً أو جماعة – هاذان هما العقل الذى يميز الفرد به ما بين الخطأ والصواب.. الهدى والضلال فهو "بوصله" حياته، وإذا خربت أو انعدمت أصبح تائها يتخبط يؤمن بالخرافة ويظن أنها بالحقيقة، ويتمسك بالضلال ويحسبه الهدى فيجنى على نفسه وعلى أسرته، وبالطبع على المجتمع.

ومنذ ألف سنة أغلق الفقهاء باب الاجتهاد ومعنى هذا أنه أصبح على المسلم أن يتعبد وأن يمارس شعائر عبادته وأن يطبق أحكام فقهه (وهى تغطى مجالات الحياة كافة) دون سوآل ودون فهم العلة، وقلنا في مناسبة سابقة إن هذا يعنى أن أمة محمد أعطت عقلها أجازه ألف عام، فلنحمد الله أننا لا نزال نسير على قدمين وكان يمكن أن ندب على أربع، لأن الله تعالى يقول ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ {179 الأعراف}.. فإذا كنا لا ندب على أربع فأشهد – صادقاً غير حانث – أنى وجدت عشرات، أو مئات من الأفراد لها عقول لا تفضل عقول الأنعام، ولا تريد أبداً أن تفكر، وتسأل فى كل صغيرة وتافهة، وتستفتى المفتى أو تلوذ باستخارة

وتتحير أمـام ما تعـده مشـاكل، وهو ما لا يقف الطفل الأوروبى الصـغير أمامـه، وكنت كلما أحثهم على التفكـير، وأقـول لهم إن لـدينا من عـدة البحث ما لم يكن يحلم به الأوائل فإنهم يرفضون ويصرون على ما قاله الأسلاف، وأنه لا أحد يمكن أن يرقى إلى منزلتهم..

هـذا الصـدأ – إن لم يكن الشـلل – العقلى هو فى أصل تأخرنـا، فلا يمكن لأمة أن تتقـدم بعد أن عطلت عقلهـا، خاصة فى هـذا العصر الـذى يقـوم فيه كل شـىء على العقل..

ولا تقف الجريمة النكـراء لهـذا الفهم المشـوه للـدين عند هـذا. إنها امتـدت إلى الضمير، وهو الذخر الثانى للإنسان الذى يمـيزه عن الحيـوان، وكـانت الأديـان هى أول من قدمه للبشرية، وبفضله ميزت بين الخير والشـر.. ما يجب، وما لا يجب، والأسـاس الذى يقوم عليه التعامل بين الناس من صدق أو إخلاص أو وفاء الخ...

هذا الضمير الذى هو مفخرة الأديان حـدث له تحـول خطـير، إذ تحـول من مجال العلاقات الإنسانية إلى مجال الشعائر العباديـة. وتصـور المسـلم النمطى أن ضميره لا يمكن أن يسـتريح إلا إذا صـلى الصـلوات الخمس فى ميعادهـا.. وإذا صام رمضان، وإذا اجتنب المحرمات كأكل الخنزير وشرب الخمـر. فـإذا فعل هـذا فقد أدى ما يمليه عليه الضـمير المسـلم، ولا حـرج عليه بعد هـذا إذا كـذب أو نـافق أو أتصف بخلق دنئ أو انتهز الفرص لتحقيق مكاسب فردية، أو خدع الخ... وبهذا انهـارت الأسس التى تقـوم عليها العلاقـات كما فقد الإنسـان الكرامة فأصـبح يتقبل الاسـتغلال والاستعباد، والاستخذاء، ولا يتحرك ضميره تجاه أى ظلم، لأن أداء الشعائر قد اسـتنفد ضميره..

بهذا انهـارت الركيزتـان الـتى يمكن أن يقـوم عليها مجتمـع، ومـاذا عسى أن يفعل الإصـلاح السياسـى؟ إن القضـية قضـية عقـول ونفـوس وهـذا مما لا يـزع فيها وازع السـلطان ولا تسـتطيع الدولة فيها إلا أقل من القليـل. كما أن الـثراء المـادي يزيد فى أثـرة هـذا الفـرد وأنانيته ويدفعه للمزيد بعد أن فقد الضـمير الاجتمـاعى وأحل محله الضمير العبادى..

وعنـدما ظفـرت الـدول الإسـلامية باسـتقلالها السياسي ورحل عنها كـابوس الاستعمار، وأخذ بعضها بنظم ليبرالية أو ديمقراطية، فإنها لم تهنأ باستقلالها، ولم تنجح تجربتها الليبرالية/ الديمقراطية. لأن القاعدة الشعبية لم تكن لديها قوة المبادأة وملكة الإبداع وروح الجماعة والضمير الحى بحيث تستطيع أن تميز بين الخطأ والصـواب وأن تعمل ضـميرها لتحـول بينها وبين الانتهازية أو الاسـتخذاء فـانتهت التجربة الديمقراطية فى هذه الدول إلى الترهل والفساد الذى أدى إلى ظهور النظم العسكرية الـتى تتسم بالحسم والضبط والربـط. ولكنها لما كـانت تعـارض التفكـير الحر أو الضـمير الخـالص فـإن حكمها زاد الحالة سـوءً وأدخلت المنطقة فى سلسـلة من المغـامرات أفقـدتها البقية الباقية فيها.

وإذا رجعنا إلى التاريخ، لوجـدنا أن الحركة الإصـلاحية الأولى الـتى مكنت المجتمع الأوروبى من بـدء مسـيرة التقـدم كـانت حركة الإصـلاح الـدينى الـتى فتحت العقـول وحـررت الضمائر، وبهـذا تهيأ المجتمع لتقبل أى إصـلاح سياسـى، أو قل للمبـادأة فى أى إصـلاح سياسى..

إن الإصلاح الديني أيها السادة والمفكرون أعظم مما تظنون، إنه ليس إصلاح الشعائر، أو تجديد أصول الفقه الخ... إنه إصلاح النفس البشرية التى ُشل عقلها وشُوه ضميرها، ولابد قبل أى إصلاح أن نعنى بهذا.

* * *

وهناك بعد عوامل أخرى ترجح أولوية الإصلاح الإسلامى على الإصلاح الاقتصادى والإصلاح السياسى.

أولها: أن أى توجيه يأتى من الدين يكتسب تقديراً واحتراماً يمكن أن يصل إلى حد القداسة ويوجب الالتزام. إن قيم الخير والشر والحسن والقبيح الخ... كلها كانت معروفة حتى قبل أن تظهر الأديان.. وعندما ظهرت لم تكن هى الوحيدة التى تناولتها فقد تناولها الفلاسفة العظام فى الشرق والغرب ونوه بها الكتاب والأدباء، ولكن عندما يأتى التوجيه من الله والرسول عن هذه القيم، فإنها تنال منزلة، وتحظى بتقدير يفوق أضعاف ما يمكن أن تحظى به عندما يقدمها كانت أو هيجل أو ديكارت الخ... من الفلاسفة، أو من كان قبلهم سقراط وأفلاطون.. ورغم أن المحصلة الأخيرة لما قدمه الفلاسفة لا يبعد عما قدم الأنبياء، فإن ما قدمته الأديان يظفر بتقدير، أو بتقديس، ويكون أدعى للاحترام ويكون الالتزام به أقوى بكثير مما قدمه الفلاسفة. وقد يسخط هذا البعض، ولكنه الحقيقة فالأنبياء هم فلاسفة الجماهير العريضة، وقد بسطوا لها الفكرة التى أرادتها الفلسفة، لأن الأديان للعامة أكثر مما هى للقلة أو النخبة. مما يملى عليها أن يكون ما تقدمه واضحاً، صريحاً، بسيطاً لا لبس فيه أو شك. أما الفلاسفة فمن هم الذين يمكن أن يفهموا مناقشاتهم وافتراضاتهم وتعمقاتهم؟ حتى ليبدو أنهم مغرمون بالتعقيد. فلا يلومن إلا أنفسهم إذا لم تلق الجماهير لهم بالاً، وانساقت وراء الأنبياء والأديان.. ومن هنا فالإصلاح الدينى يجد آذانا سامعة وأذهانا فاهمة ويكون هذا وذاك أدعى للالتزام بما توجبه الأديان..

وهذا لا يمنع من أن نتعرف على آراء الفلاسفة، وأن نقدمها فيما نقدم، ولكن ذلك لن يصل إلى ما هو أكثر من تعزيز التوجيه الدينى والتدليل على صحته، وأنه يمكن أن يستكمل بعض الجوانب.

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نحارب الديكتاتورية والاستبداد فإن استخدام القاموس الإسلامى وتعبيراته عن الطغيان والطاغية والفرعون. يجد آذانا أكثر إصغاءً مما لو تحدثنا عن الثورة الفرنسية أو دعوة فولتير للحرية الخ. مما لا يوجد أى نوع من الاتصال والفهم والمعرفة بين المواطن العربى وبين هذه القطع والأمثلة من التاريخ الأوروبى..

ومن هنا فلا يُفَضِل كلام الفلاسفة، أو السياسيين الغربيين عن الديمقراطية على أسلوب القرآن فى التنديد بالطغيان والظلم والاستبداد إلا الذى يفضل الصعب على السهل، الغريب على القريب الغير مفهوم.. على المفهوم..

وهذه ناحية تدق على كثير من الباحثين الذين يضيقون باستخدام كلمة الشورى ويؤثرون استخدام الديمقراطية ويرفضون "البيعة" ويؤثرون الانتخاب، فى حين أن للشورى والبيعة قبولاً لدى المواطن أكثر من الديمقراطية والانتخاب وإن كان من الضرورى عرض الشورى والبيعة فى ثوب جديد يتفق مع الأوضاع، ويقترب من الصور الديمقراطية دون أن نفقد الرصيد الضخم والأثر العميق لكلمات الشورى والبيعة فى نفس المواطن..

وفى حكم المقطوع به أن الدين أعظم مؤثر على وجدان الشعب المصرى وأن هذا ينطبق على الفلاحين فى حقولهم والعمال فى مصانعهم كما يسرى على الطبقة

الوسطى والمهنيين من محامين وأطباء ومهندسين بل إنه يـؤثر على وجـدان الفنـانين من مغنيين ومغنيات وممثلين وممثلات بل وراقصين وراقصات والكثير من أفـراد هـذه الشرائح الاجتماعية يلتزم بـإداء الصلاة وصـيام رمضـان وتقـديم الزكـاة. ومن لم يقم منهم بها فليس من باب الجحود، ولكن العجز ومثله مثل شوقى.

وإن تقدم ذو تقوى بصالحه   قدمت بين يديه عَبرة الندم

وغَيرة الندم قد تكون أفضل عند الله من زهو بعض الشيوخ..

ولا يثير الدهشة أن يكون للإسلام هـذا الأثر على الممثلات والمغنيـات والراقصـات لأن العلاقة وثيقة بين الفن، والدين والمرأة أيضاً، التى كانت من أكبر نصير للأديان.

وثانى هذه العوامل: أن المطالبة بالإصلاح الدينى لا تصطدم بـالنظم الحاكمـة، ولا بامتيـازات السـلطة بشـكل مباشـر، لأنه وإن كـانت محصـلة الإصـلاح الـدينى هى محصـلة الإصـلاح السياسى والاقتصـادى فـإن هـذا يتم بطريقة غـير مباشـرة، أو دون مهاجمة شخصية لأصحاب المصالح المكتسبة مباشـرة، كما أن الإصـلاح الـدينى – لأنه موضوعى – فلا يسـتبعد أن يـؤمن به بعض أفـراد النظم الحاكمة أو النخب الغنيـة، لأن تنديده لا يوجه بالذات ضد الأفراد، ولكن ضد النظم، ولا يتضـمن عـداوة خاصة للأفـراد فى حد ذاتهم أو بحكم وضعهم الطبقى ولا هو يسـتبعد أن يكسـبهم لصـفه، وقد اسـلم فى وقت واحد تقريباً، وبصورة تلقائية، أكبر خصمين للإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. **الأول** كان هو الذى قاد جيش المشركين فى أحُد وأوقع بالمسلمين الهزيمـة، **والثـانى** هو الـذى لاحق المسـلمين فى هجــرتهم إلى الحبشة وأخذ يــؤلب عليهم النجاشـى. وعنـدما فتحت مكة أعلن الرسـول العفو عن كل أعدائه السـابقين الـذين اضطهدوه وقاوموا الإسلام فأسلموا جميعاً وصاروا جنـداً للإسـلام وهـذا شئ لا تعرفه الثورات الأوروبية ولا حركات الإصلاح الدسـتورى الـتى لا تجـاوز النظم ولا تأبه لفكـرة الهداية والـتى اتسـمت بـالعنف والإرهـاب واستئصـال الطبقة المعاديـة، سـواء كـانت الطبقة المالكة – الرأسمالية أو الطبقة الحاكمة.

والعامل الثالث: أن الإصلاح الدينى يستهدف الفرد، كما يستهدف المجتمع، وقد يستهدف الفرد أولاً.. وهذا منهج سليم فى تطبيق الإصلاح، فمع الاعـتراف بما للعوامل الاقتصادية والسياسية من تـأثير خطـير فلا تـزال شخصـية الفـرد هى اللبنة الأولى فى البنية الاجتماعية، وبقدر إصلاح هذه الشخصية بقـدر إصـلاح البنية الاجتماعيـة، وإصـلاح الفرد رغم صـعوبته فى ظل ظـروف اقتصـادية أو سياسـية سـيئة، فإنه يمكن أن ينجح لأنه يستعين بكل ما هو مـدخر فى ترسـانة الأديـان من قـوى مـؤثرة، بل إن الظـروف السياسية والاقتصادية السـيئة يمكن أن تكـون دافعـاً للحث على الإصـلاح ولتقبل هـذا الإصلاح والإسلام وإن كان يُعنى بالفرد أساسا، فإنه لا يهمل المجتمع بل يضع الخطوط العريضة لإصلاحه وعندما تتزامن دعوة الإصلاح الدينى مع الـدعوة للإصـلاح الاجتمـاعى وهما متفقـان فـإن ذلك يأخذ الشـكل الأمثل الـذى يكمل بعضه بعضـا، ولكن حـتى لو افترضنا أن دعوة الإسلام الـدينى اقتصـرت على الجـانب الفـردى، فإنها سـتقدم عملاً طيباً سيفيد – ولو بطريقة غير مباشرة فى عملية الإصلاح الشامل..

ويجب أن لا ننسى أن الأديان حققت أعظم الثورات الشـعبية فى تـاريخ الإنسـانية وأنها كانت قاعدة للحضـارات العظيمة قبل أن يتسـلل إليها الفسـاد، وأنها ظلت حـتى بعد الفسـاد محل ثقة الجمـاهير، وأنها رغم كل ما يؤخذ عليها فإنها ظلت ممثلة للقيم العظمى، وذات الطبيعة الجماهيرية، والصفة العالمية الـتى تخـاطب "بـنى آدم" وهـذه كلها مما لا نجـدها فى النظم والفلسـفات وحـتى صـور الإبـداع الإنسـانى، وحـتى فى الدعوة إلى العولمة..

والإسلام بعد قضية كبرى، فهو آخر الأديان السماوية الثلاث نزولاً، وبالتالى أكثرها شبابا وهو فى حقيقته إجمال للرسالات السابقة. أنه يمثل 1400 عام من تاريخ البشرية أظهرت عديداً من الفلاسفة والأطباء وعلماء الطبيعة والفلك والشعراء والأدباء، كما أظهرت مشرعين وفقهاء ووضعت قوانين فى السياسة والاجتماع والاقتصاد كما شملت من ناحية المساحة معظم العالم المعروف وقتئذ – باستثناء أوروبا التى كانت غارقة فى الظلمات وهو اليوم الدين الذى يؤمن به من البشر ما يعادل ربع سكان العالم وهم يؤمنون به إيمان يقين واعتزاز رغم كل ما لحقه من تشويه. ورغم كل ما اعتوره من عوامل الضعف خلال القرون الأخيرة فإنه فى قرونه الأولى قدم للبشرية حضارة فريدة اتسمت بالسماح. وبعد مرحلة "صدام الحضارات" التى لا مناص عنها عند ظهور حضارة جديدة، فإن الإسلام بسرعة تسالم مع بقية الحضارات، بل وتلاقح معها وقد كان هو الذى حفظ الفكر اليونانى من الاندثار وحفظه وجدده وعّرف أوروبا بالطريقة التجريبية فى العلوم التى كانت مفتاح التقدم الأوروبى كما أن أفكاره عن إنكار الكنيسة والأحبار وعصمة البابا والتماثيل والأيقونات كانت فى أصل حركة الإصلاح الدينى المسيحية، وعندما كانت أوروبا تمر بقرونها الوسطى المظلمة كانت الأنوار تتلألأ فى بغداد، والقاهرة وقرطبة وفى الهند، وكان الإسلام من الاتساع بحيث إذا تدهورت إحدى عواصمه، ظهرت عاصمة أخرى فعندما سقطت بغداد ظهرت القاهرة وتصدت للصليبيين والتتار وعندما سقطت الأندلس قامت الخلافة العثمانية التى فتحت القسطنطينية ودقت أبواب فينا، وعلى حوافى هذا ظهرت حضارات إسلامية زاهرة فى الهند وفى الأندلس وفى أفريقيا وإنما حدث هذا لأن للإسلام قوة لا تنفد تأتيه من القرآن الذى لا يزال يتألق ويبهر النفوس بما فيه من إعجاز وما يملكه من تأثير يكسب اعتزازاً وإيمانا، ويلهم المسلمين صبراً وثباتا، كما أن سيرة الرسول وصحابته تظل دائماً حية فى نفوس المسلمين جميعاً. وهذه "الأصول" هى ما لا يتيسر لأى نظرية أو عقيدة، ثم أن الإسلام ينتشر ويكسب مؤمنين به فى أعماق أوروبا وأمريكا وعندما تنجح جهود التجديد فى إظهاره على حقيقته فإن عدد المقبلين عليه والمؤمنين به سيتضاعف وسيكون للمجموعات الإسلامية فى آسيا، فى الهند والصين دور جديد. وقد كشف الكاتب الأمريكى مكسيم رودنسون فى كتابه "الماركسية والعالم الإسلامى". أن الإسلام كان فى القرن التاسع عشر يعيد تأويل الكونفوشية ضمن منظورة كانت تؤكد أن مذهب المحمدية الصرف جلبه أول عاهل أسطورى فى الصين – فوجئ – فى الألف الرابع قبل الميلاد. وقد حمل إلى الألفين من الجزيرة العربية، ثم تبدل مذهب فوجى مع الوقت، ولكن الكونفوشية تشتق منه وإن فقد بعض مفاهيمه. **إن المثقفين الكونفوشيين هم جزئيا مسلمون دون علمهم. وبالتالى فالإسلام هو التقليد الحقيقى فى الصين. والتقليد الكونفوشى قد أعيد تأويله بالنسبة للإسلام[1].**

وأخيراً فإن الإسلام فى الحقبة الراهنة لم يعد مقصوراً على المسلمين، لقد أصبح قضية العالم بأسره وتحكمت فى هذا عوامل بعيده عن الإسلام نفسـه، ولكن الإسـلام فى النهاية كان ضحيتها فلم تكد الولايات المتحدة تتخلص من عدوتها اللدود الشـيوعية وتقضى عليها حـــتى حكمت عليها الطبيعة الصـــراعية للمجتمع الأوروبى نتيجة لقيامه على أساس "القوة " بالبحث عن عدو آخر يمكن أن توجه إليه وتفرغ فيه هذه الطبيعة وما فرضه على المجتمع الأمريكى من أن تكون صناعة السلاح أولى الصناعات. وكـان الاختبـار التـاريخى لها منذ أن بـدأت المبـارزة ما بين الغـرب والشـرق ما بين فـارس واليونـان قرطاجنة وروما والحـروب الصـليبية الخ... هو الإسـلام فأخـذت تعد عـدتها للانقضـاض عليـه، ولكن كـانت هنـاك مجموعة تنسـمت ذلك فسـبقت بالانقضـاض فى

[1] **(1) الماركسية والعالم الإسلامى. د. مكسيم رودنسون ص98 (دار الحقيقة – بيروت).**

حوادث 11 سبتمبر 2001 المشهورة وكان هذا مسلكا أخرق، ولكنه فى الحقيقة كـان جزءً من اللعبة المأساوية. ولم تكن هستيريا الإرهـاب الـتى تملكت الولايـات المتحـدة نتيجة لهـذه الحـوادث، وإنما كـانت التعلة المناسـبة للانفجـار المكبـوت وهكـذا أصـبح الإسلام هو محور السياسة الدولية.

وقد يوضح اهتمام أمريكا بالإسلام قبل حوادث 11 سبتمبر أن جورج بوش "الجـد" أصدر كتابا عن محمد، ولا أعلم رئيسا لدولة عربية كلف خاطره مثل ذلك، والأكـثر فى الدلالة أن كتاب بوش يكرر كل الشـبهات والأكـاذيب الـتى ذاعت فى الغـرب من أيـام الحروب الصليبية.

اعتقد – ويعتقد كل المنصفين أن هذه كلها حيثيات تعطى الأولوية للإسلام.

* * *

والكتاب الذى بين يدى القارئ ينقسم إلى قسمين رئيسـيين القسم الأول تـاريخى يتابع حركات التجديد ودعائه من الأيام الأولى للإسلام حـتى الحقبة المعاصـرة ويتقصى أسـباب تعـثر هـذه الحركـات. أما القسم الثـانى وهو الإنشـائى والإبـداعى فى الكتـاب ويمثل الأمل الطمـوح الـذى تملكه فهو عن ضـرورة إعـادة تأسـيس منظومة المعرفة الإسـلامية الـتى وضـعها الأبـاء المؤسسـون فى القـرون الثلاثة الأولى من الهجـرة، والقسم يكشف عن الأسباب التى تستوجب ذلـك. ولعل هـذا أن يكـون تاريخيـاً أيضـاً، ولكنه يتسم بعمق ويكشف عما فـات الدارسـين والمـؤرخين. أما القسم الـذى يمثل إضافة الأصالة فهو الأصول التى يقوم عليها التأسـيس الجديـد، والـتى لابد وأن تختلف عن الأصول التى قامت عليها المنظومة المعرفية السلفية.

* * *

بـالطبع هـذا أمل طمـوح وهو يمثل بداية لانطلاق طويل صـعب حافل بالمقاومـات من ناحية وبالتضحيات من ناحية أخرى. إنه الخطوة الأولى على مسيرة ألف ميل التى قد تستمر خمسين عاماً قبل أن تبدو أولى ثمارها.. وحـتى تسـلم قلعة الفقه السـلفى أبوابها لمن هم أحق وأولى بالإسـلام وحسـبها أنها صـمدت ألف عـام فهل تظن أنها ستبقى أبد الدهر؟ أو أنها أخذت من الله موثقـاً أن تكـون هى وحـدها الممثلة للإسـلام والمتحدثة باسمه وأن ليس لأحد غيرها أن يتحـدث عنـه؟ إن الحصر والاحتكـار بعيـدان عن الإسلام فى الاقتصاد فما بالك بمجال الإيمان والفكر والاعتقاد..

لقد وقف بنا الزمـــــــان فى منعطف من التـــاريخ كما وقف بالأسـلاف الـــذين وضـــعوا منظومة المعرفة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وكما قـاموا بـدورهم فعلينا أن نقوم بدورنا، وهذا الكتاب هو أول خطــوة على المسيرة.

وعلى الله قصد السبيل،،،

جمال البنا

ذو الحجة 1425هـ/ينـايـر 2005م

الباب الأول
حركات التجديد فى الإسلام

الفصل الأول
حركة التجديد فى العصور الأولى

تصـور بعض النـاس أن الـدعوة إلى التجديد الإسـلامى دعـوة حديثة دفعت بها إلى الإمام دوافع خارجية، ولكن الحقيقة أن التجديد قديم قدم الإسـلام نفسه ونجد التعبـير فى توجيه الرسول لأصحابه إذ كان يقول لهم "جددوا إيمانكم" كما كان – كما قال أحد الصحابة – يتخولهم – أى يتعهدهم – بالموعظة مخافة السأم. وتحـدث القـرآن الكـريم عن آثار مر الغداة وكر العشى وتقادم العهد "فقست قلوبهم" وفقدت نضارة الإيمـان، وتحدث عن أجيال تأتى فتخالف أصول الديـن. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾. {59 مريم} وتنـاول الفقهـاء موضـوع الإيمـان وانتهـوا إلى أنه يزيد وينقص يزيد بالحسنات وينقص بالسيئات..

وعندما أرسل الرسول معاذ بن جبل إلى اليمن قاضيا وسأله بم تقض قـال بكتـاب الله قال الرسول فإن لم تجد فى كتاب الله قال فبسنة رسـوله قـال فـإن لم تجد فى سُنة رسوله قال اجتهد رأيى ولا ألو.. وأرتضى الرسـول هـذا الكلام وحمد الله لتوفيقه فيه.

وهذا النص يفسح مجـالاً كبـيراً للاجتهـاد الحر الـذى هو نـوع من التجديـد، أو حـتى الإضافة، لأنه يفترض صراحة وجود مجالات لا وجود لها فى الكتاب والسُنة وإذا لاحظنا حديث الرسـول "الحلال ما احله الله فى كتابه والحـرام ما حـرم الله فى كتابه وبينهما عفو، فاقبلوا من الله عافيتـه". نجد أن منطقة العفو تتسـع، وأهم من هـذا أن المعـول فى هذه الدائرة الواسعة هو الـرأى. وهو ما يتفق مع ما اتسـمت به هـذه المرحلة من حرية، ومن إعمال للعقل وائتمان القلب واعتراف صريح بدورهما فى تقدير الأحكام..

وهناك من الأحاديث ما يـدل على أن الرسـول تنبأ بما سـيحدث من خلاف أو سـوء فهم أو ما سـيتعرض له الإسـلام من هجـوم، مما قد يجعله يعـود غريبـاً، كما بـدأ مما يتطلب متابعة يقظة للحفاظ على قيمه وجوهره، من هذه الأحاديث الحديث المشـهور "لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم وخالفهم حتى يـأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس".

وقد يكون أبرز ما جاء فى مجال التجديد، وتحديد كلمة "تجديد" هو حديث الرسول عن أن الله تعالى يبعث لهـذه الأمة على رأس كل مائة سـنة من يجـدد لها أمر دينهـا" فهـذا نص صـريح على التجديد وأنه يأخذ شـكلاً دائمـاً، على الأقل على رأس كل مائة سنة.

وقد حظى هذا الحديث بالقبول من الفقهاء رغم أنه لم يـرد فى الصـحيحين، وكـان مثار اهتمامهم وتكهناتهم فيمن هم المجددون، وعنى الحافظ السـيوطى بهـذا الحـديث ووضع فيه أرجوزة سماها "تحفة المهتدين بأخبار المجددين" جاء فيها:

الحـمد الله العظيــم الِمْنـةْ المانح الفضل لأهل السُّنةْ
ثم الصلاة والسـلام نلتـمسْ على نبّى دينه لا ينـدرسْ

لقد أتـى فى خبــر مشتـهر رواه كلُّ حـافظ معتبـر
بـأن فـى رأس كـل مائـة يبعث رُّبنا لهدى الأمـة
مَنـًّا عليـها عالمـا يحــدِّدُ ديـن الهدى لأنـه مجـدّدُ
فكـان عنـد المائة الأولى عمرْ خليفة العـدل بإجـماع وقَر
والشافعى كان عنـد الثــانيةْ لما له من العلوم الساريـةْ
وابـن سرَيـج ثـالث الأئـمة والأشعرى عـدَّه مـن أمّةْ
والباقلاَنـى رابـُع أو سهل أوْ الاسفراييني خلف قد حـكوْا
والخامس الحـبر هو الغـزالى وعدُّه ما فيـه من جــدال
والسادس الفخر الإمام الـرَّازِى والـرافعى مثله يــوازى
والسابـع الراقـى إلى المراقى ابـن دقيـق العيـد باتفاق
والثـامن الحـبر هــو البلقينى أو حافظ الأنام زين الديـن
وهـذه تاسعة المئيـن قــد **أتت ولا يخلف ما الهادى وَعَدْ**
وقـد رجـوتُ أننى المجـــدَّدُ فيها ففضل الله ليس يجحـدُ

ويلحظ فى هــذه الاختيــارات أنها قد لا تكــون الأحق ولكنها تمثل ما تمتع به بعض الفقهاء من شـهرة بصـرف النظر عن الـدور الحقيقى الـذى قـاموا به فى التجديد فقد أجمعوا على اختيار الشافعى مجدداً فى القرن الثانى وتجاهلوا أبا حنيفة، لأن الشافعى نصر الحديث ووسع دائرة استخدامه بما فى ذلك حديث الآحـاد، وإن كـان يـذكر له أنه نهج أصول الفقه، وإن كانت هذه الأصول معلومة من قبل. أما من ناحية التجديد، فـإن أبا حنيفة أولى من الشافعى لأنه وضع معايير دقيقة للأخذ بالحديث، ولأنه كان أكـثرهم أخـذاً بالاستحسـان ليخلص.. من تقييد الاجتهـاد بوجـود العلـة، إلى مجـال يـراه أفضل لاعتبارات أخرى خلاف ما تتبع فى القياس.

وذكر السيد رشـيد رضا أسـماء بعض المجـددين فى تصـدير كتابه – تـاريخ الأسـتاذ الإمـام الشـيخ محمد عبـده – فقـال: إنما كـان المجـددون يبعثـون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين، وهـدموا من بنيـان العـدل بين النـاس، فكـان الإمام عمر بن عبد العزيز مجـدداً فى القـرن الثـانى لما أبلى قومه بنو أمية واخلقـوا، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجـدداً فى القـرن الثـالث لما أخلق بعض بنى العبـاس من لبـاس السُـنة. ورشـاد سـلف الأمـة. باتبـاع ما تشـابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـه. وتحكيم الآراء النظرية فى صـفات الله وما ورد فى عـالم الغيب. بالقيـاس على ما يتعـارض فى عـالم الشـهادة. وكـان الشـيخ أبو الحسن الأشعرى مجدداً فى القرن الرابع بهذا المعنى. وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى مجدداً فى أواخر القـرن الخـامس وأول السـادس لما شـبرقت زندقة الباطنيـة، والإمـام أبو محمد على بن حزم الظاهرى فى القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية، وشيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه أبن القيم مجـددين فى آخر القـرن السـابع

وأول الثامن لجمع ما مزقت البدع الفلسـفية والكلامية والتصـوفية والإلحادية من حلل الكتاب والسُنة السـنية، فى جميع العلـوم الدينيـة، وحسـبنا هـؤلاء الأمثـال فى التجديد الدينى العام.

ثم قال: وظهر مجددون آخرون فى كل قرن، كان تجديدهم خاصاً أنحصر فى قطر أو شعب أو موضع كبير أو صغير، كأبى إسحاق الشاطبى صاحب الموافقات والاعتصام فى الأندلس، وولى الله الدهلوى والسيد محمد صديق خان فى الهنـد، والمـولى محمد بن بـير على الـبركوى فى الـترك، والشـيخ محمد بن عبد الوهـاب فى نجـد، والمقبلى والشوكانى وابن الوزير فى اليمن. ثم قـال: وهنـاك مجـددون آخـرون للجهـاد الحـربى بالدفاع عن الإسـلام، أو تجديد ملكه وفتح البلاد لـه، وإقامة أركـان العمـران فيـه، وهم كثيرون فى الشرق والغرب والوسط، ورجال معروفون.

ذكر من بينهم الأمـير عبد القـادر الجزائـرى، وخـير الـدين فى تـونس والسـيد السنوسى فى ليبيا الخ...[2]

وواضح أن اختيارات السـيد رشـيد رضا أفضل من اختيـارات السـيوطى. وقد قـام ابن تيميه بـدور مجيد فى تنقية العقيـدة مما شـابها من أوشـاب التصـوف أو الباطنية أو الفلسفة، كما قام بتفنيد أفكار التوسل أو الشفاعة والكرامات الخ...

وألف الفقيه الشـيخ عبد المتعـال الصـعيدى كتابـاً ضـخما فى 635 صـفحة بعنـوان "المجددون فى الإسلام من القرن الأول حتى القرن الرابع عشر تـرجم فيه لأكـثر من خمسين عالماً.

* * *

يتضح من هذا أن التجديد بـدأ من عهد الرسـول وعلى يديـه، كما أنه تنبأ بتجديـده على رأس كل مائة عام، ولكن البعض يستنكف أن يقوم الرسـول بتجديد ويـرى أن التجديد إنما بدأ بعد وفاة الرسول.

ذلك أن الرسول ما أن مرض مرضه الأخير، وترامى ذلك إلى أسـماع بعض القبائل حـتى بـدأت تنتقض، وعمل بعضـها على أن يخلص من الدولة المركزية فى المدينة ويعود إلى حكم القبيلة، بينما فكر آخرون أن يبدعوا نبوة، فيكون منهم أنبيـاء كما ظهر فى قريش نبى. وهكذا لم يكد الرسول يئوب إلى ربه حتى ثارت العـرب ولم يبق على الإسلام إلا المدينة ومكة.. فتطلبت هذه الظروف تجديداً حاسـماً يتناسب مع الأوضـاع الاستثنائية، ثم لما استقر الأمر وآبت القبائل العربية إلى الإسلام بفضل عبقرية وحـزم أبى بكر اتسعت حدود الدولة الإسلامية فى عهد عمـر، وجـدت أوضـاع لم يكن للعـرب بها عهد فتطلب الأمر تجديـداً قـام به عمر بن الخطـاب ثم تـوالت الأحـداث كل منها يتطلب تجديـداً يتناسب معهـا... وفى كل مناسـبة كـان يظهر "المجـدد" الـذى تنبأ به الرسول.

وهكذا نرى أن جيل التجديد لم ينقطع، وأن سلسلته ظلت ممتدة من أيـام أبى بكر حتى الفترة المعاصرة مع تفـاوت فى قـوة وفعالية هـذا التجديد أدى إليه ما انتـاب أمة الإسلام من خطوب، وما نزلت بها من نوازل مثل غزو التتار بغداد ونهبها وتـدمير كتبها

[2] **(2) انظر كتاب المجددون فى الإسلام من القرن الأول حـتى القـرن الرابع عشر للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص13-14 (مكتبة الآداب).**

وآثارها. ومثل غزوات الفرنجة.. حـتى يصل بنا التطـور إلى الفـترة المعاصـرة – فـترة الاستعمار الأوروبى لبلاد المسلمين بلد بلداً حتى لم ينج منه إلا شبه الجزيرة العربية..

وسنعرض فيما سيلى للمجددين فى إشارات سريعة، تتركز حول التجديد الذى جاء به:

أبو بكـر

ما أن انتقل الرســول إلى الرفيق الأعلى، وتــرك المســلمين حــتى حــدثت أمــور خطيرة هددت مسيرة الإسلام فانتقضت قبائل عربية عديدة وتنكرت للإسلام بــدرجات متفاوتة منها الكفر وإدعاء النبـوة، ومنها رفض تقـديم الزكـاة والتنكر للدولة الإسـلامية المركزية فى المدينـة، وداخل المدينة نفسـها اجتمع الأنصـار فى سـقيفة بـنى سـاعدة ليولون عليهم سعد بن عبادة.

ماذا يكون حال الإسلام لو لم يظهر أبو بكر. ويتصدى لكل هذه التطـورات فيعالجها بكياسة ولطف حينا، وحزم وعزم حينا آخر.

كان أول ما أهم أبا بكر اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فالأنصـار هم الـذين أووا ونصروا وآثروا على أنفسهم. وكانوا يـرون فى الرسـول حاميـاً لهم عارفـاً بحقهم وقد التفوا حول المسجد يجهشـون بالبكـاء عند مرضـه. فلما تـوفى تصـرفوا التصـرف الطـبيعى أن يولـوا عليهم زعيمهم وكبـيرهم سـعد بن عبـادة.. الـذى كـان على إيمانه وسابقته ضيق العطن..

دخل أبو بكـر، فتغـير الموقف تمامـاً اسـتطاع بكياسـته أن يسـئل ما فى نفـوس الأنصار من نوازع، ولا يخرج إلا وقد بايعوه أى أن الأنصار بايعوا أبا بكر قبل المهـاجرين أنفسهم وهو انتصار يشهد له.. قدر ما يشهد للأنصار أنفسهم.

دخل أبو بكر السقيفة خائفاً يـترقب، وخـرج واثقـاً منتصـراً ليحقق أعظم تجديد ألا وهو أن يضع فى كلمـــات معـــدودة دســـتور الحكم الإســـلامى. **(1) أن أصـــبت فــأعينونى. (2) وأن أخطــأت فســددونى. (3) أطيعــونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لى..**

فى هـذه الكلمـات المعـدودة وضع أبو بكر أعظم تجديد فى الإسـلام، تجديـداً كـان يمكن أن تعقد له المجالس مجلساً بعد مجلسـاً وتتعـالى فيه الأصـوات وتشـتجر الآراء ثم لا تصل إلى ما وصل إليه..

بعد هذا مباشرة، وسياق الأحداث يسـير حثيثا ويتلاحـق، وجه أبو بكر ضـربته للـذين ارتدوا. وبقدر ما أظهر مع الأنصار من وداعة وكياسـة، بقـدر ما كـان حازمـاً إلى درجة القسوة مع المرتدين الذين أرادوا اقتلاع الإسلام واستئصاله من مهاده..

وختم أبو بكر حياته بالتجديد – ذلك أنه استشـار الصـحابة فيمن يخلفـه، وكـان يريد أن يخلص بالمسـلمين من مثل مـأزق السـقيفة وجـاء رأيهم متفقـاً مع رأيـه: عمر بن الخطاب..

قد يرفض بعض الكتاب هـذه الطريقـة، وقد لا تكـون الأمثل فى الظـروف العاديـة، ولكنها بالنسبة للملابسات التى اكتنفت الأمة كـانت فى طريقتهـا، وفى نتيجتها – الحل

الأمثل.. ولعلها تظل بدرجات متفاوتة أفضل من الغوغائية الديمقراطية وما يدخلها من زيف ومؤثرات..

عمر بن الخطاب

كان أبو بكر يطلق عليه نفسه أنه متبع لا مبتدع وإن كانت الظـروف جعلته مبتـدعاً ومجدداً ثم جاء عمر بن الخطاب الذى لم يكن يأنف من تعبير "البدعة" بحيث كـان هو المبتدع الأكبر.. وتجديداته فى الأخذ بالديوان، والتأريخ، والبريد الخ... معروفة ولكن ما يهمنا هنا هو أن عمر بن الخطاب كان صاحب نظرة فقهية ثاقبة. وكان لديه من الذكاء والشجاعة ما يكشف أن الأحكام لا توضع عبثـاً أو تحكمـاً وإنما لحكمـة، وأنه إذا انتفت الحكمة سقط الحكم، حتى لو كان قد نص عليه فى القرآن الكريم لأن القرآن الكـريم إنما نص عليها لأن هذه الحكمة كانت قائمة، ولكن التطـورات ذهبت بهـا، فلم يعملها لا من باب تعطيلها، ولكن من باب أن الحكمة التى من أجلها صدر النص انتفت، فسـقط تلقائيا، ولو عادت لعاد..

وهكــذا لم يطبق عمر مصــرف المؤلفة قلــوبهم فى الزكـــاة، ولم يقسم الأرض المفتوحة وأوقف حد السـرقة عـام الرمـادة، ورغم أن هـذه كلها منصـوص عليها فى القـرآن وكـان موفقـاً غاية التوفيق فى هـذه كلها ولم يعطل النص ولكن أعمل روحه **ولو بدأ الفقهاء حيث انتهى لـوفروا على الفقه الإسـلامى ألف عـام من المماحكات وعقابيل المذهبيات..**

ولا يعنى هذا أنه كان معصوماً من الخطأ، فقد جعل الطلاق مرة واحدة لأن النـاس تسرعوا فى أمر كـان لهم فيه أنـاة.. فـإذا كـان ذلك مـبرراً لعقـابهم، فما ذنب المـرأة المسكينة التى طلقت لطيش زوجها.. وعجلته؟.

وهــذا ما يوضح لنا أن الله تعــالى هو الــذى اســتأثر بالكمــال وأن كل بــنى آدم خطائون..

عثمان بن عفان

لم يكن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رجل دولة، وإداره وقد تخبط وأساء بحسن نية ومن العسير أن يـذكر له إضـافة إيجابية فى هـذا المجـال وقد انتكس بـالحكم عما كان عليه وقت الشيخين، ولكن الله تعالى أدخر له مآثره عظمى حتى لا تضيع سـابقته مع الرسول وتضحيته بالمال فكان هو الـذى جمع القـرآن بعد أن كـان مكتوبا على كل ما يمكن أن يكتب عليه من عظم، أو خشب أو رقــــــاع، أو كاغد أو جلد كما أخذ من ذاكرة الرجال وصنفه طبقاً للمراجعة الأخيرة التى راجعها الرسول على جبريل وهكـذا أنقذ المسلمين من فتنة كان يمكن أن تصيب صلب عقيدتهم..

وباطل كل ما قد نجــده من مرويــات دست وأريد بها تشــويه هــذا العمل العظيم، فيــأبى الله والمســلمون.. وقد كــانت "المجموعة الــتى انتفاها للجمع والمراجعة من خيرة العرب تقوى، وورعاً، وحفظا وذكاء، وكان المسلمون أقرب ما يكونون إلى القوة

واتحاد الكلمة بحيث لا يسـمح بمثل هـذه المفتريـات الـتى نجـدها للأسف الشـديد فى كتب التراث، مما دس عليها ودق ذلك على كاتبيها.

على بن أبى طالب

لو اتسع الوقت وصفا الجو مع على بن أبى طالب لكان حقيقاً بـأن يأتينا بكل جديد ومبـدع. فلم يكن الـذكاء ولا الشـجاعة لتنقصـه، ولكن الفتن المتلاحقة الـتى سـبقت خلافته وجعلت عـدداً من الأعـراب الجفـاة الطائشـين يتورطـون فى قتل شـيخهم وأمـيرهم عثمـان بن عفـان وهو ممسك بمصـحفه.. هـذه الفتن انسـحبت على خلافته بأسرها وكانت السبب فى استشهاده.

ويمكن أن نسـتخلص من مواقفه فى هـذه الفتنة المدلهمة موقفـاً فريـداً وضع به مبدأ ثمينا فيما يتبع مع المعارضين، ذلك هو موقفه من الخـوارج. فهـؤلاء قـوم توقفـوا ومعركة صفين فى ذروتها، وكاد النصر أن يتحقق له، وانطلت عليهم خدعة المصـاحف المرفوعة على الرماح "تعالوا إلى كتاب الله".. "بيننا وبينكم كتاب الله". لقد حاول أن يوضح لهم أن كتاب الله برئ منهم!. وأنها إنما تعله لتفـويت النصر فـأبوا أن يسـتمعوا، وهكـذا فوتـوا عليه نصر صـفين ثم أصـروا على التحكيم، وعلى أن يكـون أبو موسى الأشـعرى هو ممثلـه، وكـان عليا كارهـاً لهـذا كلـه، ولكن الموقف أنفلت وعلت صـيحة الخوارج، فلما اخذ بما قالوا انقلبوا عليه وتبينوا خطـأهم، ولكنهم أشـركوه فيه وطلبـوا منه أن يتوب بعد كفر! ورفض الإمام على هذا المطلب المستهجن، فما كـان يقر على نفسه بالكفر وهو أول من آمن بالرسول من الصبيان.. ووضح لهم أنه كان رافضـاً ولم يقبل إلا عندما طالبوه ورماحهم مشتجرة وسـيوفهم مصـلته.. ورحى المعركة دائـرة..، فتركوه وسيوفهم على عواتقهم وانتحوا بناحية "حروراء" وانتخبوا منهم أميراً..

هذا تمرد عسكرى وشق عصا الطاعة، ومع هـذا سـكت عليهم ولم يبـادلهم بقتـال، بل قال إن لهم أن لا نمنعهم المساجد، وهى وقتئذ ساحة لقاء الجماهير بعضهم ببعض. وأن لا نمنعهم الفىء إذا عادوا إليه. أن لا نبدأهم بقتال حتى يكونوا هم البادئين..

هذا موقف ينـدر أن نجد سياسـياً ورجل دولـة، وقفه وهو يمثل لنا أقصى درجة من الحرية تجاه المخالفين، الذين لا تقتصر مخـالفتهم على معارضة سياسـية، ولكنها تأخذ شكل مناوءة الدولة وتكوين قوة عسكرية خاصة بهم..

* * *

باغتيـال علىّ طـويت صـفحة الخلافة الراشـدة. كـانت قد طعنت عنـدما طعن عمر بن الخطاب، ولكنها ظلت تناوش الأحداث وتناوشها الأحداث حتى دفنت عندما دفن على.. وظهر على أنقاضها الملك العضوض..

ولم يكن الانتقال من نظام الخلافة الراشدة إلى نظام الملك العضوض انتقـالاً من نظام سياسى حسن إلى نظام سياسى سيئ. كان الأمر أفدح من ذلك كان انتقالاً كليا من وضع تنصـرف فيه الدولة إلى خدمة الجمـاهير.. ويسـودها منـاخ العمل فى كافة مظاهره إلى دولة تستغل الجماهير لخدمة الحاكم، وتزدهر فيها الأقاويل والجدل.

كـانت الخلافة دولة عطـاء لم تفـرض ضـرائب، كـانت الضـريبة الوحيـدة فيها هى الزكاة التى تؤخذ من الأغنياء لتعطى للفقراء. وهـؤلاء الأغنيـاء كـانت الدولة تفسح لهم المجـال لـيزدادوا غـنى عن طـرق التجـارة أو الصـناعة أو الأراضى كما كـانت الدولة تعطيهم أيضاً من مواردها وكان أبرزها الغنائم، والجزية، كان الفقـراء أغنيـاء والأغنيـاء أثرياء، وكان الجميع يعمل، الدولة تعمل، والفقراء يعملون والأغنياء يعملون ولم تعرف الجدل.. كان قوام عملهم ما وهبوا من مقدرات وذكاء وفطرة..

فلم يقل عمر بن الخطاب لأبى بكر عندما أستحثه على جمع القرآن وتـردد أبو بكر إلا "هو والله خير" ولم يقل على عندما ارتأى تضمين الصناع – وهو يخالف أحد الآثار – إلا "لا يصلحهم إلا هذا" ولم يكن العمدة إلا وجـدان الاطمئنـان والثلج من غـير التفـات إلى طرق الاستدلال، كما ترى الأعـراب يفهمـون مقصـود الكلام فيما بينهم" كما قـال الإمام ولى الله الدهلوى فى كتابه الأنصاف فى بيان أسباب الاختلاف..

أنتهى هذا كله عندما ظهر الملك العضوض، ونفضت الدولة يـديها من العمل لخدمة الجمـاهير، بل جعلت عملها إخضـاعهم بـالقوة وفـرض الضـرائب الباهظة عليهم الخ... واشـتركت بعض المجموعـات من العلمـاء مع المجموعـات الـتى ثـارت على الملك الأموى العضوض، ولكنها هزمت. كـان لـدى الدولة الجيش المحـترف، ولم يكن لـديهم سـوى مجموعـات من المتطـوعين وعنـدما هزمـوا انسـحبوا من سـاحة العمل العـام وتفرغوا للدراسات. دراسة القرآن ودراسة السُنة، ورحب الحكام بـذلك لأنهم يعلمـون أن الإسلام، وإن كان دين حيـاة، إلا أن الطبيعة الدينية للـدين تثقل دائما كفة العبـادات والحياة الآخرة. وكان لدى الفقهـاء من الحصـافة ما يعلمـون معه أنهم إذا ركـزوا على عناصر المقاومـة، فسيتعرضـون لبطش السـلطان والحقيقة أن الأئمة الأربعة تعرضـوا فعلاً لبطش السـلطان فضـرب الإمـام أحمد بن حنبل بالسـياط حـتى كـاد أن يمـوت ووقف الشافعى أمام النطع قاب قوسـين من أن يقطع الجلاد رأسه لـولا تـدخل محمد بن الحسن. وعذب مالك عندما قدم فتـوى "ليس على مكـره يمين" فأبـاح التحلل من البيعة التى يكره عليها الناس وتعرض أبو حنيفة بالاضطهاد عندما رفض القضاء...

ولكن الذين جاءوا بعـدهم لم يكونـوا بمثل صـلابتهم وشـيئاً فشـيئاً انفسح المجـال ليظهر فقهاء السلطان...

من هنا، فـإن التجديد الإسـلامى انتقل من مجـال العمـل، والجمـاهير إلى مجال الجدل والتنظير..

وسـنرى فى قائمة المجـددين ما يطـابق ذلك وقد وجـدوا هـذه الدراسـات بحـاراً طامية، فأدلوا بدلائهم لا دلاءهم تمتلئ ولا البحر ينقص، وضـاعت فى هـذه المحـاولات أعمار وأجيال ذهبت ما بين قيل وقال..

أبو حنيفة

ماذا يـذكر لأبى حنيفة فى مجـال التجديد يـذكر له أولاً أنه هو الـذى وقف فى وجه المحـدثين الـذين تترسـوا وراء شـعار "إذا صح الحـديث فهو مـذهبى" فوضح أن صـحة الحديث ليست بالصـورة الـتى ذهب إليها معظم المحـدثين ووضع ثمانية شـروط يجب

أن تتوفر فى حديث ما ليعد صحيحاً.. ونتيجة لهذا فإنه استبعد الألوف من الأحاديث الواهية وأفسح هذا مجال الرأى الذى أصبح علماً عليه والذى تجلى فى "الاستحسان" فكانوا يقيسون حتى إذا قَبُح القياس "أستحسن".

إن أبا حنيفة أراد أن يجعل من الاستحسان آلية التوصل إلى القرار تبعاً لحكم العقل دون أن يقيد الاجتهاد بوحدة العلة على ما ذهب إليه علماء الأصول فجعلوا من الاجتهاد "قميص كتاف" فجاء أبو حنيفة ليحرره، ولكن "جمح الزمان" على ما قال المتنبئ. وحسبه على كل حال أنه الذى قال "هم رجال ونحن رجال".

الشافعى

لا يعتبر الشافعى مجدداً، ولكنه بكل تأكيد كان "منهجا" وقد استطاع أن يضع أصول الفقه بشكل منهجى بعد أن كانت مبعثرة.. ولا جدال أن التنهيج خاصة عند المسلمين – يعد عملاً عظيماً. ولكن من المؤسف أن الشافعى لم يكن فى اتجاهه العام "تقدمياً" وقد اعتمد بالدرجة الأولى على الحديث واعتبر أن أحاديث الآحاد إذا كانت عن عدل، فعدل، حتى الرسول فإنها تعد صحيحه واسهم فى وضع الفنون الإسلامية عن القرآن الكريم كالنسخ. وإن كان قد رفض أن تنسخ السُنة القرآن الكريم. رغم أنه رجل السُنة والحديث واستحق بهذا نقمة أنصار النسخ الذين لا يرون مانعا من نسخ السُنة للقرآن لأن كليهما – كما يدعون – وحى.

أبو العلاء المعرى

أضاف إلى الشعر العربى الذى كان – ولا زال – ورغم صدارة القرآن الكريم هو ديوان العرب شيئاً جديدا غير المدح والهجاء والغزل وهى الموضوعات المقررة من أيام الجاهلية حتى الحقبة الحديثة، أضاف إليه نقد الحكام وذم الظلم والضيق بالمناخ الاجتماعى، والثقافى الذى يحكم العلاقات وقد قبل أن لا تقتصر بلواه على العمى، فأضاف إليه العزلة واستحق أن يكون رهين المحبسين، وأبتعد عن غمرات الدنيا، وأوطارها ومطامعها وما تثيره من زهو وغرور وعكف على نقد المجتمع غير آبه لشىء، ما دام قد أطرح المطامع والمصالح وأسمع العصر أقسى وأصدق ما يسمعه من نقد..

مُل المقام فكم أعاشر أمه أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها، وهم أجراؤها

* * *

لا يفخرن الهاشمى على امرئ من آل بربر فالحق يحلف ما علِّىُ عنده إلا كقنبر[3]

وكان يرى أن المال يجب أن يكون مشتركا..

لو كان لى أو لغيرى قدر أنمله من البسيطة خلت الأمر مشتركا

---

[3] **(3) هو على بن أبى طالب وقنبر هو مولاه..**

وعندما حرم على نفسه أكل اللحوم ومنتجاتها فإنه كان يقاوم نزعة تملكت العـرب وجعلتهم يرون أن أكل اللحوم هو اللذة التى لا تفوقها لذة أخـرى ودخل للمـرة الأولى فى عالم النباتيين.

وانتقد ظواهر التقوى، وما يصدع به الوعاظ المحـترفون من وعظ يسـلكون نقيضه فى حياتهم وما فى ذلك من مفارقات..

أما إبداعه فى "رسـالة الغفـران" الـتى سـبق بها دانـتى وألهمه فكرتهـا، وجعله موضوعهاً منطلقـاً يعـرض أراءه فى العقائـد، وأصـحابها وفى طبيعة الثـواب والعقـاب الإلهين، ومغفرته التى يضيق بها ويدهش لها المتعصبون..

كـان أبو العلاء فى شـعره، وفى نقـده للمجتمع وفى ضـيقه بالمـذهبيات المقـررة، وفى فتحه لآفاق غير معروفة.. مجدداً..

ابن حـــزم

من الصـعب أن يزايد أحد على ابن حـزم فى المعرفة بـدقائق العلـوم والفنـون، وإلمامه بها جميعـا. وإحكامه للكثـير منهـا. فقد تهيأ له ما لم يتهيأ عـاده لغـيره. من ظروف لم تجعله فى حاجة للاكتساب وما يعنيه هذا من تخصيص الوقت للقمة العيش، وما يحـوط ذلك من ضـرورات المداهنة والموافقة والنفـاق. فقد ولد فى مهـاد النعمة وورث الرآسة. ونشأ شافعيا ولكنه مع تبحـره آثر مـذهب الظاهرية فنهض به أكـثر مما نهض به مؤسسه داود. وهو المذهب الذى يأخذ المعانى من ظـاهر الكلمـات، وما تـدل عليه للوهلة الأولى. وهذا فيما نرى هو الواجب الذى يغلق البـاب أمـام التحـايلات على النص والتلاعب فى تحديد معانيه. صحيح أن التأويل يجوز – بل هو واجب – بالنسبة لما يـأتى عن ذات الله تعـالى. وعن الغيب لأن معـانى لغتنا الـتى نشـأت كثمـرة لمجتمع الحياة الدنيا لا يمكن أن تحيط بعالم الآخرة، ومن باب أولى بـذات اللـه، فهـذه لابد لها من لغة لا نحيط بها، ولما كانت الأديان لابد وأن تقرب ذات الله تعـالى، وتعطى فكـرة عن عـالم الغيب باللغة الشـائعة والـتى تقصر عن ذلـك، فكـان التأويل والأخذ بأسـباب الاستعارة والمجاز أمراً لا مناص عنه. أما فى غيرها فلا داعى لتحكمات الفقهاء الـذين يتحكمون فى صيغة "الأمر" فيحولونها من أمر إلى ندب أو العكس الخ...

وحملته على القياس يمكن أن تكـون مقبولة على أسـاس أن الحـرام والحلال هما ما يصرح بهما القرآن بدون تأويل أما ما عدا ذلك فيدخل فى إطـار العفو أو "التعزيـر" الذى يترك للأمة. ولا يقال فيه حرام أو حلال ومع أن هذا هو الموقف الأصولى الأمثـل، فـــإن وجهة النظر التقليدية قد يكـــون لها ما يبررها من ناحية أن العامة لا ترتـــدع إلا بكلمة "حرام" وتحضرنى فتوى التنباك التى أصدرها آية الله شيرازى وأوقف بها امتياز شركة التبغ الذى كان حلقة فى سلسلة التـدخل الأجنـبى فى إيـران. وأنه ما أن أطلق هذه الفتوى حتى وقف استخدام التنباك بحيث لما طلب الشاه "نارجلتـه" قـالوا له إن الإمام حرم التنباك..

أما الحدة فى الحديث، ورمى خصـومه بالاتهامـات القارصة فإنه فيما يبـدو ليس إلا رد فعل أولاً لإيمانه بصواب ما ذهب إليه وثانياً رداً على صلف واستعلاء هؤلاء الخصوم واعتقادهم أنهم هم الذين يملكون الحقيقة فى حين أن معرفته جاوزت معارفهم..

وقد قال الرسول إن لصاحب الحق مقالاً، وجادلته إمـرأة تـدافع عن حقها واسـتمع الله لها من فوق سبع سماوات وقال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِـهَا ﴾. والرجل داعية، وله حمية فلا عجب إذا دافع عن وجهه نظرة بقوة وحرارة.

وبحكم أوضـــاعه وثقافته فإنه أظهر أراء تجعله من المجـــددين، وحســـبه أنه انتقد انتقـاداً عنيفا فكـرة "سد الذريعـة" الـتى أقامها الفقهـاء لتحـريم الحلال ولسد البـاب بالظنة والشبهة فحجروا وضيقوا سعة الإسلام وعسـروا يسـره كما أنه قـاوم أفكـارهم الطبقية كأن تكون عـورة الأمة غـير عـورة الحـرة، وأن التكـافؤ فى الـزواج يعـود إلى النسب كما أوجب على الأغنياء كفالة الفقراء وأجاز للدولة اقتضاء ضرائب من الأغنياء إذا كانت الزكاة لا تكفى.

وقدم جديداً فى كتابه "طوق الحمامة" وعالج قضية المـرأة وعـرض لما يختلج فى أطوائها من عواطف ومشـاعر لأنه تـربى فى أحضـان الشـقراوات من النسـاء وأخذ معارفه الأولى عنهن وربطته بهن تلك الرابطة التى تجمع ما بين كرم النفوس.. وعالم المرأة...

إخوان الصفا

من المحـاولات الجـديرة بالعناية فى مجـال التجديد محاولة "إخـوان الصـفا وخلان الوفـا" وهم مجموعة من المفكـرين ظهـروا فى القـرن الرابع آل إليهم كل ثقافـات عصرهم، من سياسات سنية تتبع الخلافة العباسـية إلى تيـارات شـيعية تـأتى من مصر والمغـرب اللـذين خضـعا لحكم الفـاطميين.. وأهم من هـذين الـتراث الفلسـفى الـذى ازدهر منذ أن قام المأمون بحركة الترجمة الكبرى..

وأخذت مساجلات هذه المجموعة شكلاً سرياً جعل المـؤرخين يختلفـون فى تحديد الأشخاص الذين نهضوا بها ونصيب كل واحد فى الإسهام فيها فقد ظهـرت فى العـراق الذى كـان تحت حكم العباسـيين وهم يقـاومون الفلسـفة (بعد انتهـاء فـترة المـأمون) ويقاومون الشـيعة.. فكـان لابد لهم من التكتم ومعظم المـؤرخين يـرون "أن من أبـرز هذه المجموعة زيد بن رفاعة وكان له ذكاء غالب وذهن وقـاد، ومتسع فى قـول النظم والنثر، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع المقـالات، وتبصر فى الآراء والديانات، وتصرف فى كل فن، فصادف بالبصرة جماعة على شـكله ألف منهم تلك الجماعة منهم أبو سليمان محمد بن نصر البستى المعروف بالمقدسى، وأبو الحسن على بن هـــارون الزنجـــانى، وأبو أحمد النهرجـــورى، وغـــيرهم. وكـــان لجماعتهم فروع ببغداد وغيرها من المدن[4]".. انتهى.

رأت هـــذه المجموعة أن "الشـــريعة قد دنست بالجهـــالات واختلطت بالضلالات. وأنه لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسـفة لأنها حاوية

[4] **(4) المجددون فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص165.**

للحكمة الاعتقادية والمصـــلحة الاجتهاديـــة، ومـــتى انتظمت الفلســـفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال.

وأرادت المجموعة أن تقرب الفلسفة لا نقـول لجمهـرة المثقفين ولكن للفئة الـتى يتوفر فيها الذكاء والاستعداد لتلقى هذه الأفكار الجديدة، فسلكت فى عرضها للفلسفة مسـلكاً أدبيا سـهلاً بعيـداً عن التعقيـدات، وإن لم يخلص بحكم موضـوعه وطبيعته من طابع غُربة يختلف عن مألوف الكتابات الإسلامية..

ولا يعد من الاستطراد تقديم ملخص لمضامين رسـائل "إخـوان الصـفا" وهى مجلد كبير لأنها تعطينا فكرة عن "الثقافة البديلة" التى رأت هـذه الجماعة أنها طريقة تجديد الإسلام وتخليصه من "الغشاوات"..

وسنستشهد هنا بتلخيص الشيخ عبد المتعال الصعيدى لها فى كتابه "المجددون فى الإسلام"..

وهذه الرسائل تنقسم إلى أربع أقسام :

أولها: يشـتمل على أربع عشـرة رسـالة فى الرياضـيات على اختلافها فى العـدد والهندسة والفلك، ثم فى الفنون العملية، ثم فى المنطق. وهـذا القسم يتـأثر فى أوله بفلسفة فيثاغورس وأفلاطون، وفى آخـره بفلسـفة أرسـطو، لكن منطقه لا يختلف عن منطقها..

وثانيها: يشتمل على سبع عشرة رسالة، وهو فى الطبيعيات كلها، يبـدأ بـالهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة، ثم ينتقل إلى الآثار العلوية، ثم يتـدرج حـتى يصل إلى المعـــادن، ثم إلى النباتـــات، ثم إلى الحيـــوان، ثم إلى الإنســـان، ثم ينتهى بعلم النفس.. وهذا القسم يتأثر من أوله إلى آخره بفلسفة أرسطو.

وثالثها: يشتمل على الرسائل النفسانية العقلية، وهى عشـرة رسـائل، تبحث فى المبـادئ العقلية على رأى فيثا غـورث ثم المبـادئ العقلية على رأى "إخـوان الصـفا وخلان الوفـا" ثم معـنى قـول الحكمـاء – إن العـالم إنسـان كبـير – ثم فى العقل والمعقـول، ثم فى الأكـوار والأدوار واختلاف القـرون والأعصـار والزمـان والـدهور، ثم ماهية العشـق، ثم فى ماهية البعث وما إليه من أحـوال القيامـة، ثم فى كمية أجنـاس الحركـات وكيفية اختلافها ومبادئها وغايتهـا، ثم فى العلل والمعلـولات، ثم فى الحـدود والرسوم، وهذا القسم يتأثر بفلسفة فيثاغورس وأرسطو والأفلاطونية الحديثة.

ورابعها: يشتمل على الرسائل الناموسية الإلهية والشـرعية الدينيـة، وهى إحـدى عشـرة رسـالة، تبحث فى الآراء والمــذاهب فى الــديانات الشـرعية الناموســية والفلسفية، ثم فى ماهية الطريق إلى الله تعالى، ثم فى بيـان اعتقـاد "إخـوان الصـفا وخلان الوفـا" ومـذاهب الربـانيين الإلهـيين، ثم فى كيفية عشـرة إخـوان الصـفا وخلان الوفا، ثم فى ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين، ثم فى ماهية الناموس الإلهى والوضع الشـرعى، ثم فى كيفية الـدعوة إلى الله تعـالى فى كيفية أفعـال الروحـانيين والجن والملائكة والمردة والشياطين، ثم فى كيفية أنواع السياسـات وكيفيتهـا، ثم فى

كيفية نضد العالم بأسره، ثم فى ماهية السحر والعزائم ونحوهمـا. وهـذا القسم تجتمع فيه كل العناصر المؤثرة فى الفلسفة الإسـلامية، من الهنـدى والفارسى واليونـانى"[(5)] أنتهى..

يتضح من هـذا أن الفلسـفة الـتى قـدمتها رسـائل "إخـوان الصـفا" بفكـرة تطهـير الشـريعة لا تمثل إلا ترجمـات مشوشة مختلطة للفلسـفة اليونانيـة.. ولا يقتصر الخطأ فيها على تحريف الترجمة وخلط المفاهيم الخ... ولكن أن المـدخل نفسه خـاطئ، فلو كانت لديهم ترجمة دقيقة لكل كتب أفلاطـون وأرسـطو وغيرهما من فلاسـفة اليونـان المشهورين لما كان فى هـذا إصـلاح للشـريعة، ولكن تقـديم بـديل أوروبى غـريب كل الغرابة عن روح الإسلام وما يقدمه من المضامين ولا يكون إصلاحاً أو تجديداً الإسـلام ولكن، ثقافة بديلة لا تصـلح مطلقـا، ولا تمثل إلا أفكـاراً نخبوية لا تسـتقيم عليها أمـور الجماهير العريضة ولا قضايا المجتمع المعقدة..

والمحاولة تمثل لنا أولى محاولات "التغريب" وتعطينا فكرة عن مدى تـأثر المجتمع الإسلامى بفكرة استلهام الفكر الأوربى، وقد حدث هذا لا لنقص فى الإسلام ولكن لأن الإسلام فى هـذه الفـترة أصـبح موضـوعاً للمبـاحث الفقهية المذهبية الجافة المجـردة التى لا ترتبط بحياة الجماهير ولا بمصلحة المجتمع وإنما بما خلفه الأسـلاف من أقاويل أو ما شغلوا به أنفسهم من افتراضات ومسائل مجردة. مما جعل الجمهور ييأس منهم ومن عالمهم النظرى. المجرد ويهرب إلى عالم آخر عالم الصوفية الخيـالى، الـوهمى، العـاطفى، وما يقدمه من إبـدال وأوتـاد وأوليـاء يسـيرون على المـاء أو يطـيرون فى الهواء أو يصلون الفجر فى مكة والظهر فى بغـداد الخ... مع هـذا تجمعهم وتنظمهم ما بين مريدين وشيوخ وأئمة الخ... وتضمهم رجالاً ونسـاءً فى مناسـبات يحملـون الأعلام ويصرخون بالأناشيد الخ...

لا الفقهـاء بشنشـناتهم وشقشـقاتهم وقيلهم وقـالهم ولا العـالم الصـوفى الخيـالى بأوليائه وكراماته، ولا الفلسفة الغربية، الـتى لا يمكن أن تسـيغها الجمـاهير كـان يمكن أن يجـدد الإسـلام. إنما كـان يمكن أن يجـدده أن يعـود إلى أصـوله وأن يخلص من غشاواته دون محاولة إضافة غشـاوات أخـرى، إن مجـرد تجريـده من الغشـاوات كـان سيظهر معدنه الكريم، وروحه الحق، وجوهره الفريد...

ولكنها إحدى منحنيات الطرق، عنـدما تتشـعب السـبل وتضل السـالكين عن سـواء السبيل..

ابن رشـــد "الحفيد"

ابن رشد، كابن حزم ثمرة يانعة من ثمار غصن الأندلس الـرطيب، وهو أيضـاً كـابن حزم من أبناء قرطبة. ولد فى أسرة من القضاة فكان أبوه قاضـيا وكـذلك جـده وهـذا الجد هو صاحب كتاب "المقدمات فى الفقه" وقد تمـيز بن رشد الحفيد عن غـيره من الفقهاء بدراسة الفلسـفة اليونانيـة، وإيمانه بأسـتاذية أرسـطو وكـان أكـثر توفيقـاً فى

---

[5] **(5) المجددون فى الإسلام ص166- 167**

شرح كتبه من غيره حتى أطلق عليه عند فلاسـفة أوروبا لقب "الشـارح" وهو فى هـذا بفضل الشيخ الرئيس بن سينا.

وتولى قضاء قرطبة. ولنا أن نتصوره قاضيا من طراز فريد. طراز قاضى فيلسـوف يجمع ما بين مؤلف "بداية المجتهد ونهاية المقتصـد" الـذى يمكن أن يعد أفضل كتـاب فى الفقه المقارن وما بين فلسفة أرسطو التى نـذر حياته للتبشـير بهـا. والتقـريب ما بينها وبين الإسـلام ورسـالته الرائعـة، "فصل المقـال فيما بين الحكمة والشـريعة من اتصال" دليل على فطنته وذكائه وحسن مقاربته لهـذا الموضـوع الشـائك الـذى كـانت تحيط به الظنون وتلاحقه الشبهات..

إن كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" ورسالة "فصل المقال" يضعان لابن رشد مكاناً بين المجددين وقد استفادت أوروبا القرون الوسطى منـه، واعتمـدت عليه حقبة من الدهر، ونال فيها ما لم ينله فى بلده من الحفاوة والتقدير..

ويبدو لى أن أبن رشد لم يستطع أن يعـرض كل ما انتهى إليه فكـره من تجديد فى عالم الفقـه، لأن ما قوبل به من حـرب ومعارضة أدت إلى نفيه وحـرق كتبه حـال دون ذلك. ولو لم يحدث هـذا لكـان من المحتمل أن يضع لنا فقها جديـداً.. فقها لا يقنع بـأن سبيل الفلسفة وسبيل الدين واحد، بل أنه يجعل من "الحكمـة" أحد مصـادر التشـريع، وقد كان هو الوحيد الذى استطاع أن يبارز الغزالى. وأن يـرد على "تهـافت الفلاسـفة" تهافت التهافت..

ابن تيمية "تقـى الدين"

ولد بن تيمية فى أسرة من العلماء وقدم به أبوه وهو صغير إلى دمشق فسـمع بها وكان ذكيا، له ذاكرة لاقطة فلا يكاد يسمع شيئاً حتى يحفظه، وله شكيمة قوية وقـدرة على المحاورة فى المناظرة والمناقشة، ولم يزل يشـتغل بالتحصـيل حـتى صـار إماما فى التفسير وحتى أحكم الفقه حتى قيل إنه أعرف بفقه المذاهب من أهلها.. وكان له همة عالية وإخلاص جعله يطبق فهمه على مسـلكه وعمله فيجاهد مع المجاهـدين، بل وقام بسفارات واتصالات مع الحكام ليشجعهم على الجهاد ومقاومة التتار..

إن جهاده ضد التتار كان جزءاً صغيراً من جهاده ضد الخرافـات والخـزعبلات الـتى كانت تسمم المجتمع الإسلامى وتنتشر فيه كما تنتشر الميكروبـات والأوبئـة، وقد وجد نفسه فى صراع عنيف مع تيـارات قد تبـدو متعارضـة. كـان هنـاك التصـوف الـذى أخذ يزحف على المجتمع الإسلامى منذ أن وضع الغزالى كتابه إحياء علوم الدين. حتى كـاد أن يصبح هو الإسلام الشـعبى والجمـاهيرى وقد عاصر ابن عـربى الـذى دفع التصـوف دفعة قوية إلى عالم الحلول كما وجد نفسه يـدخل معركة مع رجـال الفقه التقليـديين. وفى هـذه المعـارك كلها كـان ابن تيمية صـريحاً قويـاً لا تأخـذه فى الحق لومه لائم، وأفسح ذلك المجـال لخصـومه لكى يَّدعوا عليه الكثـير من الادعـاءات، كما عـارض الجمود الفقهى وما وقف عنده الفقهاء ولم تمنعه صـراحته، وقـوة إيمانه من نقد بعض الصحابة، بل وبعض الخلفاء الراشـدين وأفـتى بـأن الطلاق الثلاث من غـير تخلل رجعه يعد طلقة واحدة، وشدد فى إنكار الشفاعة والتوسل.

وكائنة ما كانت اجتهادات ابن تيمية، فـإن حملته على التصـوف كـان لها ما يبررهـا، كما أن نقـده للتوسل والشـفاعة كـذلك كـان أمـراً مقـرراً فى الإسـلام، فلا يغـنى عن الإنســان إلا عملــه، ولا يمكنه التخلص من ســوءاته بشــفاعة ولى أو نــبى. وكــان من الطبيعى أن يصطحب هذا باجتهادات ليس لها هذا الحظ من التوفيق، ولكنه عملياً كان مطلوبا، وقد أثار هزة ما كان يمكن لأحد غيره أن يوجدها وزلــزل بعض العقائد الباطلة وبعض التصورات الصوفية التى آمن بها الناس دون أى أساس. كما أمتد أثره حـتى بلغ محمد بن عبد الوهاب الذى أقام دعوته "الوهابيـة" على أسس فكر ابن تيمية وتلميـذه الأثير بن القيم.

وكان أثر ابن تيمية فى التجديد أكبر من أثر أى فقيه آخر، والمأساة أنه وقد حــارب التعصب، أصبح هو ومذهبه، موضوعاً لأعظم تعصب.

ابن القيم الجـوزية

عاش ابن القيم الجـزء الأعظم من عمـره تلميـذاً لابن تيمية وقد سـجن معه حـتى مات ابن تيمية فى السجن فعفى عنه. قـال عنه أبن كثـير كـان ملازما للاشـتغال بنشر العلم كثير الصلاة والتلاوة..

ما الذى فعله ابن القيم حتى استحق أن يكون من المجددين..

أنه أكد على الأقل فى مناسبتين من كتابه القيم إعلام الموقعين أن العدل هو طلبة الشريعة فحيث كان كانت. وفى المناسبة الأولى قال "إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقـوم النـاس بالقسط وهو العـدل الـذى قـامت به السـموات والأرض، فـإذا ظهـرت أمارات الحق وقامت أدلة العقل وأسفر صبحه بأى طريق كانت فُثم شرع الدين ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وإماراته فى نـوع واحد وأبطل غيره من الطرق التى هى أقـوى منـه. وأدل وأظهر بل بين بما شـرعه من الطـرق أن مقصـوده إقامة الحق والعـدل وقيـام النـاس بالقسط فـأى طريق اسـتخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها وبمقتضاها.

والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذاتها وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد، ولكن نبه بما شــرعه من الطــرق على أســبابها وأمثالها ولن تجد طريقا من الطــرق المثبتة للحق إلا وهى شرعة وسبيل للدلالة عليها[6].

وفى المناسـبة الثانية قــال تحت عنــوان "بنــاء الشــريعة على مصــالح العبــاد فى المعــاش والمعــاد".. فــإن الشــريعة بناها وأساســها على الحكم ومصــالح العبــاد فى المعاش والمعـاد، وهى عـدل كلها ورحمة كلها ومصـالح كلها وحكمة كلها فكل مسـألة خـرجت عن العـدل إلى الجـور وعن الرحمة إلى ضـدها وعن المصـلحة إلى المفسـدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل"[7].

إن ابن القيم بعد أن يقيم الشـــريعة على العـــدل فإنه يخـــرج منها ما دخل فيها بطريقة التأويل إذا كان مخالفاً للعدل، كما يدخل فيها ما لم تذكره الشـريعة على وجه

---

[6] **(6) إعلام الموقعين لابن القيم طبعة الكليات الأزهرية بالقاهرة ج4 ص373.**
[7] **(7) المرجع السابق ج3 ص3.**

التحديد إذا كان يؤدى إلى العدل لأن "الطرق" لا تراد لـذاتها وإنما المـراد غاياتها الـتى هى المقاصد. ومقصد المقاصد هو العدل.

هذا مبدأ أصيل وقد وصل مع ابن القيم إلى أعمق أعماق الشريعة حيث جوهرهــا.. فأظهره ونبه عليه..

ومما يستحق التنويه أن هذه النبذة السـابقة جـاءت تحت عنـوان "فصل فى تغيـير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيـات والعوائـد، وهـذا مبـدأ يمثل المرونة والتكيف مع الأوضاع مما يدخل فى صميم التجديد.

ولكن المنــاخ لم يكن يســمح بــالكثير من ذلــك، ولم يســتطع ابن القيم نفسه أن يمضى فى الطريق لأكـثر من ذلك على أن كتـاب "إعلام المـوقعين" من أفضل الكتب تمحيصا لأصول الشريعة ونقداً للمذاهب واستثارة للأفكار الجديدة.

أبو إسحاق الشاطبى "إبراهيم بن موسى"

هذا الفقيه الغرناطى يستحق مقعداً بين المجددين، لأنه أبرز فكرة المقاصــد. وفى الوقت الـذى أجملها بن القيم فى العـدل، ولم يشر إليها إلا إشـارتين، فـإن الشـاطبى وضع كتابـاً من جـزئين لتفسـير ما يقصـده بالمقاصد وشـرحها، هو كتـاب الموافقـات فأعطى المقاصد مساحة كبيرة ومعـترف بها فى الفقه الإسـلامى، حـتى وإن اتسـمت معالجته بقــدر من الســذاجة، عند تحديد المقاصد الخمسة ولكنه أحســن، وإن لم يكن صاحبها، عندما أشار إلى الدرجات الثلاث من ضروريات وحاجيات وتحسينات، فإذا كان ابن القيم قد أجمل وابتعد بــذلك عن مزالق التفصـيلات فـإن الشـاطبى قد دفع ثمنها عندما عـالج هـذه التفصـيلات بقـدر من الإسـهاب جعله فى بعض الحـالات يأخذ بيد ما يعطيه باليد الأخـرى على ما ذهب إلى أن الشـريعة مبنية على مراعـاة المصـالح. وأن اختلاف الأحكام عن اختلاف العوائد ليس اختلافاً فى الخطاب الشرعى نفســه، بل عند اختلاف العوائد ترجع كل عادة إلى أصل شرعى يحكم به عليها..

إن تجديد الشـاطبى كـان محكومـاً بـالأطر السـلفية شـأنه فى هـذا شـأن معظم الآخـرين باسـتثناء الطـوفى، ولكنه عنـدما ألقى بفكـرة "المقاصـد" فى بحـيرة الفقه الراكدة، فإنه أحدث تموجات حركت شيئاً ما وضعها الآسن.

نـجـم الدين الطوفى

جاء الطوفى، وهو فقيه حنبلى بمبدأ صارم قضى على الأسلوب المراوغ الذى عالج به الفقه السلفى المصلحة وكان يفتـات عليها ويضـيق بها كـأن يقـول إن الشـرع يأخذ بالمصلحة ثم يعود ليقول إن المصلحة الحقيقية هى فى الشرع!.

فتح الطوفى هذا الباب الموارب على مصراعيه وأعلنها مدوية صريحة "أن المصــلحة هى المقصد الأســمى للشــارع ويجب الأخذ بها إذا حــدث تعـارض ما بين المصـلحة والنص. لا من بـاب الافتيـات على النص، ولكن

من باب تأويله ولا يقال إن الشرع أعلم بمصالحهم فلتؤخذ من أدلته لأننا قررنا أن رعاية المصـــلحة من خصـــائص الشـــرع وهى أقواها وأخصـــها فنقدمها فى تحصيل المصالح"..

فى الطـــوفى نجد المعالجة الصـــريحة الجذرية لقضـــية المصـــلحة ونجد الإقامة الأصولية لها على أسس شـرعية لأنه انتهى إلى مبدئه عن طريق تفسـيره لحـديث "لا ضرر ولا ضرار" ولكن هذا أثار ثائرة الفقهاء منذ أن قالها حتى ألف عام بعدها تقريباً..

عندما أبـدع الفقيه البريطـانى "بنثـام" فكـرة المنفعة **utility** وجعل الهـدف "أكـبر منفعة لأكثر عدد" وجد أنصاراً يدعمون مذهبه أما الطوفى فعندما نادى بالمصلحة فإن المهـاجمين له لم يكونـوا من أبنـاء عصـره فحسـب، ولكن كل الفقهـاء فى العصر الحديث بلا استثناء.

العز بن عبد السلام

يعد الفقيه العز بن عبد السلام من الفقهاء الذين نادوا بالمصلحة. وتضـافر الفقهـاء الـــذين عـــالجوا الفقه من منطلق المصـــلحة كما عند الطـــوفى. أو المقاصد كما عند الشـاطبى أو العـدل كما عند بن القيم. يوضح أن الفقه الإسـلامى كـان يمر بصـحوة قصيرة خلال سباته الطويل. وأن هذه الصحوة جعلته يبصر الحكمة وراء النص..

وكتاب العز بن عبد السلام الذى شهر به "الفوائد فى اختصار المقاصـد" المسـمى "بالقواعد الصغرى". يقرر "ما أمر الله تعـالى بشـىء إلا وفيه مصـلحة، عاجلة أو أجله أو كلاهما، وما نهى عن شىء إلا وفيه مفسدة عاجلة أو أجله أو كلاهما.

كما يلاحظ "ولا تعرف مصالح الآخرة ومفاسدها إلا بالشـرع وتعـرف مصـالح الـدنيا ومفاسدها بالتجارب والعادات.

إن إلحاح العز بن عبد السلام على جلب المصالح ودرأ المفاسد – دفع بالقضية إلى الإمام وكان يمكن لو توبعت أن تتقدم ولكن مناخ العصر لم يكن منـاخ تقـدم، بل كـان مناخ تقهقر..

ابـن خلدون

فى ابن خلدون نجد الرجل الوحيد تقريباً الذى تحرر من روح عصره بحيث استطاع أن يحكم العقل والمنطق فى كل ما تركه الأسلاف من تراث، فى الفقه وفى الحديث. وفى التفسـير فاكتشف بعينه الثاقبة وعقله النافذ ادعـاءات المفسـرين، وفند أحـاديث المهدى التى قيل عنها إنها متواترة، وعرض لمآخذ الفقهاء فى أكثر من مناسـبة وكـان هاديه فى هذا كله هو العقل وإعمال الفكـر، وقد تحـرر قبله الطـوفى من روح عصـره عندما جعل المصلحة هى المقصد الأسـمى للشـارع، كما تحـرر أبو مسـلم الأصـفهانى من روح عصـره عنـدما أنكر النسخ الـذى أجمعـوا عليـه، ولكن تحـرر هـذين من روح عصرهما كان مقصـوراً على هـذه النـواحى – أما ابن خلـدون فـإن عقلانيته غلبت روح

عصره بحيث كان تحرره شاملاً واستطاع بهذه الصفة أن يرسى نظريته فى الحضارة والعمران.. وأن يقرر أن الحكم يقوم على "العصبية" أو "الغلبة" أو "القـوة" وأن حكم الرسول والخلفاء الراشدين كان استثناءً ولا يمكن إدراجه فى صنوف الحكم ثم تعرض لأكبر سببين يؤديـان إلى تـدهور الحضـارات وهما ظلم الحكـام وتـرف المـترفين، وأن هـذين إنما هما حصـيلة لمبـدأ قيـام الحكم على العصـبية أو الغلبـة، فكأنهما لصـيقان بالحكم.

هـذا كله بالإضـافة إلى ما تضـمنته المقدمة من تعقيبـات وملاحقـات لكل ثقافـات عصره سواء كانت فى الفنون أو الآداب أو قواعد الاجتماع الخ...

وقد كسب الغرب من ابن خلدون واستعاد آراءه كما استفاد من ابن رشد من قبل. وكـانت بلاده وأهله هم آخر المسـتفيدين منـه. بل إن فكرته عن الدولة كـان يمكن أن تنقذنا من غوائل "الحاكمية" الساذجة..

ابن الوزيـر

محمد بن إبراهيم بن على المعـروف بن الـوزير من أئمة الزيديـة، ومن المجموعة المعتدلة التى تسـلم بخلافة أبى بكر وعمر ولا ينـالون من الصـحابة كما ينـال الشـيعة. ظهر نبوغه الــذى مكنه من التحــرر من التقليد وقد رفض أن ينتسب إلى أحد الأئمــة، وكان ينظر فى الأصول والفروع نظر مجتهد غير مقلد، وثــار عليه الزيدية فلم يأبه وله كتاب "ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان" وكتاب "العواصم من القواصم فى الذب عن سُنة أبى القاسم" وكتاب "إيثار الحق فى رد الخلافات إلى المذهب الحق".

كـان ابن الـوزير عفيفـاً عظيم المـرؤه، رفض السـلطة آثر أن يتفـرغ للعلم، ولكنه اعتزل الناس فى آخر أمره ،أقبل على العبادة وهجر الاشتغال بالكتابة حتى مات سـنة 840هـ 1436م.

ولى الله الدهلـوى
أحمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه ولى الله الدهلوى

تلقى العلم على إيدى شيوخ عهده، وقد كانت الهند معروفة بخدمة الحديث النبوى، وطبع كتبه ومراجعـه، وكـانت إمـارة حيـدر أبـاد وأميرها نظـام الملك إمـارة إسـلامية، سلفية، تأخذ أول وأكثر ما تأخذ بالسُنة.

ولكن ولى الله شاه الدهلوى سلك سبيلاً فيه الكثير من التجديـد، وخاصة فى كتابه "حجة الله البالغــة" الــذى أبــرز فيه أن الأحكــام إنما ســنت لحكمــه، وأن هنــاك من **"الارتفاقات"** ما تؤثر عليها وفكرته عن هذه الارتفاقات هى من عناصر تجديده ومن يقــرأ كتــاب "الحجة البالغــة" يلمس فيه نزعة "خلدونيــة" لا تخطئها العين ويجد شــبها كبيراً فى تعبيراته وتعبـيرات ابن خلـدون خاصة فى القواعد الكلية الـتى تسـتنبط منها المصالح المرعية فى الأحكام الشـرعية، فهو يربط الشـريعة بما هو أعـرق من أصـول الفقه المعروفـة، إذ يعـود بها إلى أسـرار التشـريع والحكمة فيها ليمكن إقامة الأصـول

على أســاس ســليم ووضح أنه ليس فى دين الله جــزاف، فلا يتعلق الرضا والســخط بأفعال إلا بسبب ومن أجل هذا جاءت مباحث العلة.

وأوضح الـدهلوى أنه "يجب عند سياسة الأمة أن يُجعل لكل شـىء من الطاعات حدان أعلى وأدنى، فالأعلى هو ما يكون مفضـيا إلى المقصـود منه على الوجه الأتم والأدنى هو ما يكـــــون مفضـــــيا إلى جملة من المقصود، وليس بعدها شىء يقتضيه".

وقــام بترجمة القــرآن الكــريم إلى الفارســية ليمكن لعامة الهنــود التعــرف عليه مباشرة وليس عن طريق المشايخ الذين كـانوا يقـدمون فهما مشـوهاً لـه، وأثـار هـذا غضب هؤلاء المشايخ وحرضوا الدولة عليه فاضطهدونه اضطهاداً أنتهى إلى قطع كفيه أواخر حياته.

وكان ولى الله الدهلوى صاحب همة عالية واشترك اشتراكا فعليا فى ثورة مسلحة لوضع حد للفســاد وســيطرت الثــورة على منــاطق شاســعة فى شــمال الهند وأعلنت حكومة مؤقتة برئاسة سيد أحمد سنة 1731 حـتى 1763 ولكنها هـزمت أمـام السـيخ فى موقعه بالاكوت الشهيرة.

وقــال الشـيخ سـيد سـابق فى تقديمه لكتـاب حجة الله البالغـة.. وكتـاب حجة الله البالغة لمؤلفه شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى كتاب نادر فى بابه، مبتكر فى موضوعه، رائع فى أسلوبه يتسم بنصـاعة العربية وقـوة العبـارة وسـلامة المنطق ونصـوع الحجة ويشهد لمؤلفه بأنه أحد عمالقة الفكر فى الإسلام.

وبالإضافة إلى ما تضمنه كتاب حجة الله البالغة من تجديدات وما ألقاه من إضاءات على بعض القضايا فإننا نلمس فيه وعياً "شعبياً" إنسانيا خالصـاً تصـوره تلك الكلمـات التى ندد فيها بـالملوك ونعى فيها حظ الجمـاهير الكادحة العـاجزة المحرومة وكيف أن الملوك والحكام استهدفوا الاستمتاع الطليق الذى لا يعرف حدا "حـتى قيل إنهم كـانوا يعـيرون من كـان يلبس من صـناديدهم منطقة أو تاجا قيمتها دون مائة ألف درهم أولا يكون له قصر شامخ وأبزن وحمام وبساتين ولا يكـون له دواب فارهة وغلمـان حسـان ولا يكـون له توسع فى المطـاعم وتجمل فى الملابس وذكر ذلك يطـول وما تـراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم وصار لا يخـرج من قلــوبهم إلا أن تمــزع. وتولد من ذلك داء عضــال دخل فى جميع أعضــاء المدينة وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أســواقهم ورسـتاقهم وغـنيهم وفقـيرهم إلا قد اسـتولت عليه وأخـذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه وأهـاجت عليهم غمومـاً وهمومـاً لا رجـاء لها وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضـعيف الضـرائب على الفلاحين والتجـار وأشـباهم والتضـييق عليهم فـإن امتنعـوا قـاتلوهم.. وإن أطـاعوا جعلـوهم بمنزلة الحمـير والبقر يسـتعمل فى النضح والـدياس والحصـاد ولا تقتـنى إلا ليسـتعان بها فى الحاجـات ثم لا تـترك سـاعة من العنـاء حـتى

صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلا ولا يسـتطيعون ذلك وربما كـان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمه دينه.

وأراد الله تعالى أن ينقذ البشرية من حكم ملوك العجم والروم الـذين سـاروا هـذه السيرة فبعث محمدا من قوم لم يخضعوا لربقة عبودية الحكـام وجعل رسـالته "ميزانا يعـرف به الهـدى الصـالح المرضى عند الله من غـير المرضى وأنطقه بـذم عـادات الأعـاجم وقبح الاسـتغراق فى الحيـاة الـدنيا والاطمئنـان بها ونفث فى قلبه أن يحـرم عليهم رؤوس ما اعتـــاده الأعـــاجم وتبـــاهوا بها كلبس الحرير والقسى والأرجـــوان واستعمال أوانى الذهب غـير المقطع والثيـاب المصـنوعة فيها الصـور وتزويق الـبيوت وغـير ذلك وقضى بـزوال دولتهم بدولته ورياسـتهم برئاسـته وبأنه إذا هلك كسـرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده".

محمد بن عبد الوهاب

ولد فى بلدة العيينة بنجد وهى منطقة معروفة بالتمسك بالسُنة والنفـور من البـدع فتأثر بها من نشأته الأولى ثم رحل إلى المدينة، والبصـرة وبغـداد وأقـام فى كل مدينة بضع سنوات ثم رحل إلى كردستان فأقام بها سـنة وإلى همـذان فأقـام بها سـنتين ثم زار إصفهان ودرس فيها فلسفة الإشراق والتصوف..

من هذا نعلم أنه لم يكن منغلقاً لم يغادر نجد كما يتصور البعض، ولكن رحلاته فيما يبـدو زادته إيمانا بفكرته الـتى كـانت تـدور حـول مقاومة البـدع الـتى سـادت الفكر الإسلامى وقتئذ، وكان أبرزها الشـفاعة، والأوليـاء، والتوسـل، وإقامة القبـاب والتمسح بـالقبور الخ... ولما قـام بدعوته فى بلـده اضـطهدوه فتركها إلى الدرعية وكـان أميرها محمد بن سعود. فعرض عليه دعوته فقبلها وبهذا تم الاتفاق بين الدعوة والسلطة..

وهـــذه النقطة هى ما يمـــيز عمل محمد بن عبد الوهـــاب فإنه ســـعى إلى إقنـــاع السلطة بدعوته وكسبها إلى صفه، بحيث كانت السلطة فى خدمة الـدعوة. وهو أمر لا يستقيم حـتى لو كـانت الـدعوة سـليمة، فما بالك ودعـوة محمد بن عبد الوهـاب، وإن كانت سـليمة إلا أنها محـدودة جـداً وضـيقة ولا تعـنى إلا بقضـايا جدليـة، ولكن التجربة نجحت فى نشر الــدعوة بحد الســيف. وبعد وفــاة الشــيخ أســتمر الحلف ما بين "آل الشيخ" و"آل سعود" وهو الحلف الذى يحكم السعودية حالياً..

إنها قصة الـدعوة الـتى تلجأ إلى السـلطة فتنصـرها. فمن آمن بها نجا ومن خـالف "حل دمه وماله".

من هنا فــإن الحركة الوهابية أبعد ما تكــون عن التجديــد، وحــتى دعوتها لمقاومة البـدع فليست من إبـداعها قـدر ما هى من إبـداع ابن تيميـة، وبن القيم، وإنما ذكـرت ضمن التجديد من ناحية الأثر الجديد الذى أوجدته، ولا تزال توجده على السـاحة، حـتى وإن لم يكن أثراً حميداً من ناحية التجديد.. هـذا الأثر هو إقامة الدولة السـعودية الـتى يتحالف فيها الفقيه والحاكم.

الشوكاني

نشأ فى صــنعاء (اليمن) وتلقى العلم وحفظ القــرآن من طفولته وعُــنى بالفقه الزيدى ولكنه كان معجبا بابن تيمية وابن حزم وقال "أنا لا أعلم بعد ابن حزم مثله وما أظن أنه سمح الزمن ما بين عصـرى الـرجلين بمن يشـابهها أو يقاربهـا" وكـان إعجابه بهما يعود إلى تحررهما، وثورتهما على المذهبيات لأنه هو نفسه أدعى الاجتهـاد وتحـرر من ربقة التقليد وألف كتــاب "الســيل الجــرار على حــدائق الأزهــار". وما يجعله من المجددين هو ثورته على التقليد وتقلده زمام الاجتهاد الذى أدى به إلى أحكــام متفاوتة شرق فيها وأغرب كإبطال الجمع بين الصلاتين فى الحضر رغم أخذ الزيدية به وإبطـال دعـوى الإجمـاع على تحـريم السـماع و"حل الإشـكال فى إجبـار اليهـود على ألتقـاط الأزبال!" واشهر كتبه هو نيل الأوطـار شـرح منتقى الأخيـار من أحـاديث سـيد الأخيـار، وذهب فى بعض أقواله إلى أن أقوال الصحابة لا تعد ملزمة فى التشريع..

ولكنه على تبحره، فإنه خضع لروح عصره ولم يتحرر من تأثير ابن تيمية وقد توفى الشوكانى سنة 1250 أو 1250 هجرية.

أحمد خـان

تأثر بأوضاع المسلمين فى الهند، ولكنه لم يسـلك فى النهضة بهم مسـلك العلمـاء التقليديين الذين نفـروا من كل ما يتصل بالثقافة الحديثة باعتبارها ثقافة المحتـل، فقد رأى أن الإلمام بثقافة المحتل هى الوسيلة للتعامل معهم، وعندما قامت الثورة الهندية سنة 1851 لم يشترك فيها لأنه رأى أنها ستفشـل، وقيل إنه حما عـدداً من السـيدات الإنجليزيـات من هجمـات الثـوار وحفظ له الإنجلـيز هـذا الجميل فأفسـحوا له مجـال الـترقى فى الوظـائف، وفى سـنة 1861 كـان يشـغل منصب القاضى بمدينة عليكـره فأسس بها جمعية لنشر المعــارف وتــرجمت عــدداً كبــيراً من الكتب الإنجليزية إلى الأورديه، وأثـار عليه ذلك ثـائرة الجامـدين، ولكنه لم يهتم بل مضى قـدماً فأسس كلية سماها كلية فيكتوريا على اسم ملكة بريطانيا وقتئذ وسافر إلى إنجلترا لمدة عام قابل فيها كثيراً من البارزين منهم الكاتب المشـهور كارليل الـذى حدثه عن الرسـول حـديثاً لعله كــان ذا أثر فى كتابة كارليل لكتابه الأبطــال ودرس التربية ثم عــاد منها مبشــراً بالثقافة الحديثة وتمكن من إنشاء كليه عليكـره (فيما بعد جامعة عليكـره) الـتى كـانت تدرس للطلبة الهنود الدراسات العصرية والثقافة الإسلامية بصورة بعيـدة عن الجمـود الفقهى، كما أخذ فى تفسير للقرآن تفسيراً يقوم على المقاصد لا الألفاظ، وجـاوز فى اجتهاده الحقيقة عندما رأى أن القرآن نزل بـالمعنى لا باللفظ مسـتنداً إلى الآية ﴿نَـزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**(193)** عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنـذِرِينَ﴾. {194 الشـعراء}.. وكـان هـذا سبباً فى ثورة الفقهاء عليه واتهامه بشتى التهم كما تعرض لمحاولات اغتيال نجا منها، ونقده أحد الفقهاء ويدعى على بخشى ثم ذهب إلى مكة حاجاً وعاد بفتـوى من علمـاء مكة بتكفـيره فكتب السـيد أحمد فى مجلته "تهـذيب الأخلاق" ما أعجب إلحــادى، قد جعل منى كافراً وجعل منه حاجا مؤمنا- إنى لفى شوق شـديد لأن أرى فتـواه، إنه كما

قــال الأول: إذا خــرب بيــتى بيت الأوثــان، قــام على أنقاضه بيت الإيمــان. إن إلحــادى كالأمطار، تخرج أحسن الورود فى البستان، ونفس الكلأ فى الوديان.

ولما صــدر الأمر بــإغلاق جريــدة "تهــذيب الأخلاق" كتب فى آخر عــدد منهــا: طالما طرقت بــاب النيــام ليســتيقظوا، فــإن فعلــوا فــذلك ما أبغى، وإن تخبطــوا عند انتبــاهم وترنحوا يمنه ويســرة فمرحلة لا تســتوجب الرضــا، ولكنها مع ذلك تســتوجب الأمل فى يقظة المستقبل، ليتها تكون.

وعندما ترى الأم طفلها مريضاً تلح عليه أن يشرب الدواء المــر، وهو يلح دعيــنى يا أماه قليلا فسأشربه بنفسى.

وأنا كذلك سوف أطرق بــاب النيــام دائما ليســتيقظوا وسأصــيح بالأطفــال المرضى أشربوا أشربوا حتى يتجرعوا"..

ورغم كل ما يؤخذ على أحمد خان فإنه كان طليعة الإصلاح المطلــوب الــذى يتــوفر فيه كشرط أولى العلم بحضارة العصر أما القطيعة معه أو مقاومته فهــذا كله لا يفيــد، بل هو يـــؤخر، فلا يمكن مجابهة العصر الحـــديث مجابهة ناجحة إلا بعد إحكـــام علومه وفنونه كما أن هــذا التجاهل يعطى للآخــرين ولمــدارس المبشــرين الفرصة للتقــدم، ولتعليم طلبتها بحيث يشـــــغلون الوظـــــائف فى الدولة الحديثة ويظل المســــــلمون محرومين منها، منعزلين عنها.

ونقطة التجديد التى جاء بها هى أنه سواء كان العصر الحديث حسناً أو سـيئاً فنحن نعيش فيـــه، ولابد من إحكـــام وســـائله ونظمه ثم لنا بعد ذلك أن نحـــدد الموقف من منطلق قوة ومعرفــة، وكــان أحمد خــان فى هــذا أكــثر توفيقا من كل الــذين عارضــوه وعكفوا على تدعيم مدارس ديوبند التى تقوم بالدرجة الأولى على الحديث والسُنة.

وفى هذا السبيل قــام بحركة ترجمة كتب عديــدة من الإنجليزية إلى الأوردية وأبــرز أن قضـــية التقـــدم هى أولاً التربية والتعليم والآداب والفنـــون وتمـــنى أن يكتب ذلك بأحرف كبيرة على جبال هملايا ليعلم الناس جميعاً هذا المبدأ.

ورغم ما قوبل به من احتجـــاج، ومعارضة واضـــطهاد وصل إلى حد التكفـــير، فـــإن صموده، وإيمانه، ومواصلته العمل جعلت الشــعب يــؤمن بــه، ويعــرف فضــله، ولما زار البنجــاب فى أخريــات حياته اســتقبل اســتقبال الملــوك وعنــدما مــات فى الواحــدة والثمانين بكاه الأوربيــون، والهنــدوس والمســلمون على اختلافهم لأنه كــان رجل العلم ورجل المعرفة.

الفصل الثانى
لماذا تعثرت محاولات التجديد فى العصور الأولى

لماذا تعثرت محاولات المجـددين من القـرن الأول الهجـرى، ولمـاذا أخـذت صـورة المعرفة الإسلامية بأقسامها الثلاثـة: الحـديث والتفسـير والفقه الصـورة الـتى أخـذتها، والتى رغم كل جـدتها وما بذله فيها من جهد لم تكن المثلى – ولم تبـدأ فى الفقه مثلاً حيث انتهى عمر بن الخطـــاب أو تســـلك مســـلكه – ولو فعلت لـــوفرت على الفقه الإسلامى ألف سـنة من المماحكـات الـتى سـدت الطريق أمـام الحلـول المباشـرة... وانحرفت به إلى الأزقة المسدودة.

على أن الأجيال التى جاءت بعد عهد الرسول والخلافة الراشـدة كـانت أكـثر تعلقـاً بالتخصصات والتجريدات وأعظم تـأثراً بـالمنطق عنـدما وضـعت أصـولها أو مـذهبياتها بحيث أننا إذا كنا قد نقدنا الجيل الأول. فإن الأجيال التالية تستحق نقداً أكـبر وهو حكم يستمر مع كل جيل، وعندما أغلق باب الاجتهاد فإن الفقهـاء الـذين ظهـروا من القـرن الخـامس فصـاعداً لم يسـتطيعوا التحـرر من الأطر حـتى وإن توصـلوا إلى تجديـدات فرعية داخل هذه الأطر نفسها رغم نبوغ الكثيرين منهم كـابن حـزم، وابن تيميـة، وابن رشد الخ...

إن هذا يعود فيما نرى إلى ثلاثة عوامل رئيسية مسـئولة عن هـذا التعـثر هى.. أولاً: فساد نظام الحكم. والثانى: أن هذا الفساد فى الوقت الـذى جـنى على الفقهـاء، فإنه أدى لانتشـار الملل والنحل وما اقحمته فى الإسـلام من انحرافـات، أريد بها إصـلاحها بالفلسفة حينا وبالتصوف حينا آخر فزادت الطين بلة بحيث أفسد الـدين إفسـاداً تامـاً. والعامل الثـالث: هو روح العصر الـذى كـان فى الشـرق والغـرب "عهد الإيمـان" وقد تخلصت منه أوروبا بالثورة الفرنسية وبالإصـلاح الـدينى (ظهـور البروتسـتنتانية)، ولكن الشرق لم يتخلص منه وظل عائشاً فى ظل روحه...

أولاً: الآثار الوبيلة لفساد نظام الحكم ..

كان تحويل معاوية بن أبى سفيان للخلافة إلى ملك عضوض سـنة 40 هجرية نقطة فاصـلة فى التـاريخ الإسـلامى دهمته فى سـنواته الأولى فـانحرفت به عن الطريق المستقيم ودخلت به فى غابة "الملك" و"السلطة" اللذين كانا نقيض الخلافة، وبعد أن كان انتخاب الخليفة يتم بشورى أصبح يتم بالتوارث، ومن سوء الحظ أن الوارث الأول لهذا الملك العريض كان شخصا لا يتمتع بموهبة ولم يتدرب على الحكم وهو أول حاكم فى الإسـلام تغلب الشـهوات فيه على الـدين، وكـان الأول فى سلسـلة من الخلفـاء يستسلمون للترف والملاذ والسفة والتبذير الخ...

على أن هــذه النقلة ما كــان يمكن أن تمر بســهولة. إن معاوية تمكن بمــزيج من الإرهاب والدهاء والإغراء أن يفرض هذا النظام على الأمصار (الشام – ومصر والبصرة

الخ...) ولكنه لم يستطع أن يفرضه على الكوفة التى كانت عاصمة على بن أبى طالب ولا على مكة والمدينة فهنا كان بقية الصحابة وأبناءهم الذين كانوا فى سن يزيد بن معاوية وولى عهده وأفضل منه خلقاً وكفاية وسابقة، ولم يكد يبدأ فى أخذ البيعة ليزيد حتى اصطدم بمعارضة هؤلاء وكان على رأسهم الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب – اللذان كانا محل محبة وتقدير المسلمين لشمائلهما الكريمة. ولما أحاط بابيهما من ظروف كالحة وحظ عاثر انتهى باستشهاده، ولأنهما كانا – كما ذاع – سيدى شباب أهل الجنة. وكان هناك عبد الله بن الزبير وهو أكثر المجموعة طموحاً، ومقدرة كما كان هناك عبد الله بن عمر وغيرهم..

لم تكف دبلوماسية معاوية، كان لابد أن يستعين بالسلاح الأعظم للدولة – الإرهاب – فاطلق عامله زياد بن أبيه ليحكم له العراقين وبدأ زياد عهده بخطبته البتراء التى لم يسم فيها بسم الله.. وأين الله منه وهو يحكم باسم السلطان..

جاء فى خطبة زياد...

- "حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً".
- ".. وأنى أقسم بالله لأخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى منكم الرجل أخاه فيقول "أنج سعد فقد هلك سعيد" ..
- "... إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه" ..
- وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرَّق قوما غرقناه. ومن أحرق قوما حرقناه. ومن ثقب بيتا ثقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه. فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ولا تظهر من أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ..
- أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زاده نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة.
- وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى".

هذه خطبة يمكن أن تكون "مانيفستو" إرهاب لأى حكم ديكتاتورى ليس فحسب لأنها عددت عقوبات رادعة، ولكن لروحها العامة التى تستهدف إشاعة الإرهاب والقهر وإيقاع الخوف فى القلوب وإيثار السلبية والتسليم "أنج سعد فقد هلك سعيد" وإلزام الناس بيوتهم بالليل الذى عادة ما يكون وقت النشاط العام.. ثم تحذير كل واحد من أن يكون من ضحايا هذا الحكم.

وهلك معاوية، وهلك زياد وتركا لأبنيهما تركة ثقيلة كان على الأبناء فيها أن يدفعوا ثمن أخطاء ومطامع الأباء..

جــاء يزيد وولى عبيد الله بن زيــاد محل أبيه ليكــون أســوأ من أبيــه، وأقــترف تلك الجريمة النكراء فقتل الحسين فى مأساة مروعة تقشـعر لها الجلـود، وثـنى ذلك بفتح المدينة وإباحتها ثلاثة أيام وقتل الأنصار وانتهاك الحرمات ثم أخذ البيعة قهراً ممن بقى على أن يكونوا "خول يزيد"..

وهلك يزيد، وأدركت عبيد الله بن زياد اللعنة لقتله الحسين فقتل شر قتله..

كان لابد أن يأتى جبار جديد ليقيم دعائم الدولة التى بدأت تتصدع فجــاء عبد الملك بن مروان جبار بنى أمية والذى روى عنه "من قال لى أتقى الله قطعت عنقه".

جاء عبد الملك بن مروان وجاء معه بالحجاج كما جاء معاوية بزياد..

وكان الحجاج كزياد وله خطبة أخرى مشـهورة كبـتراء زيـاد وحمله إيمانه بـالبطش والقوة أن يعلن على المنـبر جهـاراً نهـاراً مخالفته لرسـول اللـه، فيقـول لأهل الكوفة "إنى أريد أن أحج وقد استخلفت عليكم ابنى هذا وأوصـيته بخلاف ما أوصى به رسـول الله فى الأنصار إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم، وأن يتجاوز عن مســيئهم وإنى أمرته أن لا يقبل من محســنكم ولا يتجــاوز عن مســيئكم" وأن يهــدد الجمــاهير "والله لأضربنكم ضرب غرائب الأبل"، وأن يخطب على المنبر.

"إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وأنى لصــاحبها" ولم يـتردد فى أن يطبق هذا الوعيد للتو واللحظة لأنه كان قد فرق جنده بين المصـلين يحملـون سـيوفهم تحت أرديتهم وجعل لهم إشارة أن يضع عمامته (أى يخلعها) وعندما بـدأ المصـلون يحتجـون على هذا المطلع ويحصبونه وضع عمامته. فأعمل الجنود سيوفهم فى النـاس وقطفـوا تلك الرؤوس اليانعة.

وانتهى مُلك بنى أمية – وبدأ مُلك بنى العباس:

هل كـان مُلك بـنى العبـاس أفضـل؟ بحسـبك أن تعلم وصـية إبـراهيم الإمـام لأبى مسلم الخراسانى ".. إنك رجل منا أهل البيت أحفظ وصيتى أنظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وأسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعه فى أمرهم وأما مضر فأنهم العدو القريب الـدار فاقتل من شـككت فيه وأن اسـتطعت أن لا تـدع بخراسان من يتكلم بالعربية فأفعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فأقتله ".

وطبق أبو مسلم وصية إمامه حـتى قيل إنه قتل سـتمائة ألـف... وحمل أول خليفة من بنى العباس لقب السفاح، فأعجب لخليفة للمسلمين بحمل هذا اللقب ومـاذا أبقى للقتلة واللصوص!.

وكان أبو جعفر المنصور هو جبار بنى العباس وبـنى ملكه على أجسـاد الطـالبيين – بقية آل الحسن والحسين – الذين ثاروا عليـه.. فأعمل السـيوف، وسـجن البـاقين فى سجون يموتون فيها..

فى العهد الثـانى للخلافة العباسـية – خلافة المعتصم – اسـتولى الـترك على أزمة الأمور، وتلاهم الديلم والأكراد، وبقية الأجناس التى لا تلـتزم بالشـريعة، ولكن بقوانينها الموروثة..

حتى غزا هولاكو بغداد سنة 656 ودمرها تدميراً بحيث أصـبحت مدينة مغمـورة بعد أن كانت عاصمة الدنيا..

وتـوالت فـترات الانحطـاط حـتى الخليفة عبد الحميد الثـانى الـذى خلعه مصـطفى كمال رغم الانتصارات العسـكرية الـتى حققها المماليك على الصـليبيين وعلى التتـار.. وإنما تحقق هذا لأنهم كانوا أصـلاً رجـال قتـال، ولكنهم لم يكونـوا أبـداً رجـال إدارة أو حضارة.

صـحيح أن بعض الحكـام كالمـأمون أهتم بترجمة الـتراث اليونـانى، وبوجه خـاص كتابات أرسطو، وأن الوزير نظام الملك أسس مدرسته التى أصـبحت مثـالاً لعـدد من المدارس. ولكن الفكر اليونانى الذى تـرجم أسـاء إلى الفكر الإسـلامى لأن الترجمـات مشــوهة ولأنها لو كــانت ســليمة، فإنها تختلف فى منطلقاتها ونهاياتها عن منطلقــات ونهايـــات الإســلام. وقد أســـاءت إلى الفقه وأبـــدعت علم الكلام المعقد كما أعطى المنطق الأرسـطى الفقه الإسـلامى طـابع التجريد والجمـود البعيد عن النـاس وحركة المجتمع. كما أن مدارس نظام المُلك كان أشهر أساتذتها هو الغـزالى الـذى أعلى فى النهاية التصوف وليس المطلوب من الحاكم أن يكون فيلسوفا – كما تصـور أفلاطـون، فقد كان المأمون هو هذا الفيلسـوف، وكـان الإمـبراطور الرومـانى مـاركس أوليـوس فيلسوفا. ومع هذا فقد ذاق الحنابلة الويل على يـدى المـأمون وذاق المسـيحيون على يدى ماركس أوليوس العذاب. إن المطلوب من الحـاكم أولاً هو العـدل، وأن لا يقـرب الظلم بحيث يجعل الشـعب قطيعـاً من الجيـاع الخائفـة، كما كـانت الشـعوب فى عهد الخلفاء حيث الضرائب التى لا توفر للشعب الكفاف وحيث الحكم المطلق بلا ضمانات ويمكن الحاكم أن يقتل أو يسـجن من يشـاء بكلمة واحـدة، أو يرسل زائر الفجر الـذى ينتزع ضحيته من فراشها إلى ما وراء الشـمس، الحـاكم المثـالى ليس هو الفيلسـوف ولكن من يحقق الكفاية الماديـــــة، والأمن للجسم والحرية للنفس ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

والذى حال دون أن يطبق الظلام – ظلام الجهل – على المجتمع الإسـلامى إطباقـاً كاملاً إنما كان العمل الشـعبى التطـوعى الـذى تمثل فى "الأوقـاف" الـتى أوقفها فى كثير من الحالات سيدات من الأسر الحاكمة، أو من زوجـات التجـار والأعيـان، أو بعض هؤلاء الحكام كنوع من التكفير عن سوءاتهم ومظالمهم، وكانت هـذه الأوقـاف للتعليم فكفلت بقاء المساجد والمـدارس من أدنى المسـتويات مثل كتـاب القرية حـتى أعلاها الجامعات – كالأزهر والزيتونة الخ... كما حققت الزكاة التى كان يدفعها المسلمون كل بطريقته الخاصة نوعاً من التكافل الاقتصادى.

* * *

ماذا كانت أثار هذا المُلك العضوض، الإرهابى، المستغل على الدين..

عندما بدأت بوادره حاول العلماء الثورة والاشتراك فى القومات عليه من أيام معاوية حتى أيام جعفر المنصور، ولكنهم هزموا..

ومن الطبيعى أن الاضطهاد الذى كان يقع على من يلى هؤلاء كان أكبر وأفدح..

وفى النهاية كان أمام الفقهاء أمران:

الأول أن يركزوا كل أعمالهم فى المجال العبادى الذى لم يكن الحاكم ليضيق به، بل كان يشجعه وكان هذا بداية لتضخم الفقه العبادى ولبدأ مسيرة المعرفة النقلية، النظرية، المجردة، البعيدة عن الحياة، معرفة قال وقيل وانعزال الإسلام عن الحياة..

الأمر الثانى الذى كان أمام الفقهاء هو التعاون مع الحاكم إما ضعفاً واستسلاماً وركونا إلى الدنيا. وإما بفكرة الحد من طغيانه وكبح جماحه..

وقد تمكن عدد من أبرز هؤلاء الفقهاء من ذلك، ولكن بنجاح ضئيل أما الأغلبية فكان لابد أن تنساق فى التيار...

من هنا أخذت المعرفة الإسلامية طابعها العبادى النقلى المجرد، وما كان هذا المناخ يسمح بان يظهر مثل عمر بن الخطاب أو ينهج منهجه الفقهى..

وعندما دخل التتار بغداد، نهبوها، وألقوا بكتبها إلى نهر دجلة حتى قيل إن مياه النهر أسودت من أحبارها ودفعت هذه النكبة القاصمة عدداً من الفقهاء لأن يضعوا "المتون" التى يلخصون فيها ما تضمنته المجلدات الغريقة من علم حتى لا يذهب هذا العلم بدوره ونجحت الفكرة فى استنقاذ أساسيات التراث، كما أنها أوجدت مهمة جديدة للفقهاء هى إعادة تفصيل هذه المتون فيما سمى "الحواشى".

وكان ابن الحاجب وأقرانه من الفقهاء أول من سن هذه البدعة وناصرها معظم العلماء واشتغل عليها معظم من جاءوا من الفقهاء بحيث أصبح وضع حاشية، أو تفسير، لمرجع من المراجع هو أقصى الآمال، وزاد هذا فى جمود وانغلاق الفكر الذى بدأ مع سد باب الاجتهاد وأصبح الفكر الإسلامى نوعاً من الاجترار..

وفى أوائل القرن السادس عشر خضعت مصر والشام والحجاز للحكم التركى العثمانى والأتراك رجال قتال وجنود معارك ولم يكن لهم حضارة أو مساهمة فى فنون وآداب ولم يعرف عنهم وضع نظم إدارية سليمة.. كان الحكم التركى حكماً عقيماً بكل معانى الكلمة يقوم على أساس الوساطة والرشوة ويعتمد على ما يمكن للولاة أن يقدموه من مال للباب العالى وبهذا يكون هم الولاة اعتصار الضرائب من الشعب دون أى عناية بإنهاض موارد الثروات من صناعة أو زراعة. ولم يكن لدى سلاطين الترك إيمان حقيقى بالإسلام وفى حديث عنهم مع صديق هو الأستاذ عصام نعمان الوكيل الأسبق للمؤتمر القومى الإسلامى فى بيروت – قال إن واحداً منهم من السلطان عثمان حتى عبد الحميد لم يقم بالحج! وهو أحد فرائض الإسلام فضلاً عما كان يفترض أن يوجد فى نفس خليفة المسلمين من مشاعر أو حتى واجبات.

وكـانت النتيجة أن سـاد الفقـر، وانعـدم الأمن وشـاعت الجهالة والخرافة وانحطت مستويات الثروة، وفقدت المنطقة العربية المبادأت التى كانت لها عنـدما كـانت تتمتع باستقلالها.

ثانيا: تأثير النحل الشاذة، والتصوف والفلسفة:

أدت السياســات الــتى نهجها الحكم فى اقتصــاره على الاســتبداد السياسى والاستغلال الاقتصادى دون بذل أى جهد لتعليم الناس وتوجيههم أو خـدمتهم أو النهضة بالزراعة أو التجـارة الخ... إلى غلبة الجهل وانحطـاط المسـتويات الاقتصـادية الفكرية لدى العامة. وكان من الممكن أن يقوم الفقهاء، وهم الـذين يمثلـون الثقافة والمعرفة بـدور، ولكن تقـوقعهم فى العبـادة، وانحيـاز معظمهم للسـلطان حـال دون ذلـك. واستعصى على الدولة أن تطبق الإصلاح لاتساع أطرافها وعـدم وجـود نظم لا مركزية المتابعة مع وجود التنافر ما بين المجموعات التى تضمنتها الدولة ما بين فـرس وتـرك وروم وديلم التى كانت لها أصولها الحضـارية الـتى لم يقتلعها الإسـلام. نقـول إن هـذه العوامل أدت إلى ظهـور تيـارات فكرية متعـددة عـوقت مضى الإصـلاح وتمثلت هـذه التيـارات فى ظهـور ملل ونحل عديـدة شـاذة غاية الشـذوذ، متطرفة لأبعد درجة من التطـرف تصل بها أفكارها إلى الكفر الصـريح وإلى التنـاقض مع القـرآن والسُـنة. ثم تأثير الفلسفة والمنطق الأرسـطى المخـالف لطبيعة الإسـلام وأخـيراً شـيوع التصـوف وانتشاره كرد فعل على جفاف الفقه التقليدى وغُربة المنطق الفلسفى أمام الجماهير الحائرة، وظهوره وتلبسه بالإسلام الذى يرضى الجماهير، وإن كان يخالف فى الحقيقة صحيح الإسلام وسلام العقيدة.

فلنلقى نظرة سريعة على هذه العوامل:

إن كل من يقـرأ كتـاب ابن جـزم الفصل فى الملل والنحل يتملكه الـذهول أمـام "الشناعات" بتعبيره التى وصلت إليها معظم المذهبيات وهى الشـناعات الـتى وضـعها تحت عنــوان ذكر العظــائم المخرجة إلى الكفر "وتضــمنت" شــناعات" الشــيعة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة. وهى كلها "شناعات" عاصرها ابن حـزم وتحـدث عنها حديث من شـاهدها ونـاقش بعض أصـحابها. فعن "شـناعات" الشـيعة قـال إن بعضـها يـرقى إلى تأليه على بن أبى طـالب، وحيـاة الأئمة بعد مئـات السـنين وعـودة الإمـام الغائب وأن هذا الإمـام كـان يتكلم من بطن أمه ويقـرأ القـرآن وإنكـار أن فى القـرآن ﴿ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَـارِ﴾. وأن روح أبى بكر وعمر تقمصت فى حمــار أو بغل فيأخذ أحــدهم البغل أو الحمــار فيعذبه ويضــربه ويخيفه الخ... كما أن روح عائشة تقمصت فى عنز وأن محمـداً كـان أشـبه بعلى من الغـراب بـالغراب وأن جبريل غلط فـأنزل الـوحى على محمد ومنهم من كـان لا يسـتحلون السـلاح حـتى يخـرج الـذى ينتظرونه فهم يقتلون الناس بالخنق والحجارة والخشب.

أما شناعات الخوارج فضمت أصـحاب أبى إسـماعيل البطيحى الـذين يـرون أن لا صلاة واجبة إلا ركعة واحدة بالغداة وركعة واحـدة بالعشى ويـرون الحج فى كل شـهور

السـنة على أن الخـوارج قد انقرضـوا على أيـام ابن حـزم فلم يبق منهم إلا الأباضـية والعجاردة.

أما "شـناعات" المعتزلة فمنهم من قـال إن الله لا يقـدر على المجـال ولا على أن يجعل الجسم سـاكنا متحركـاً معـاً فى حـال واحـدة ولا أن تجعل إنسـانا واحـداً فى مكانتين.

وكان منهم من يرى أن الله لا يخلق شيئا من الألوان ولا طـولاً ولا عرضا ولا طعما ولا رائحة ولا خشونة ولا أملاسا ولا حسنا ولا قبيحا ولا قوة ولا ضـعفا ولا موتا ولا حيـاة ولا نشوزاً ولا مرضا ولا صحة الخ... وأن ذلك كله فعل الأجسام التى وجدت منها هــذه الأعـراض ومنهم من كـان يـرى أن الله لا يقـدر على إفنـاء الأجسـام، وكـان منهم من يقول إن القرآن ليس فى المصحف، إنما فى المصحف شـىء آخر وهو حكاية القـرآن ومنهم من كـان يقـول لو طـال عمر المسـلم المحسن لجـاز أن يعمل من الحسـنات والخير أكثر مما عمل الرسول. وعن شناعات "المرجئة" قال ابن حـزم أنهم طـائفتين الأولى القائلة بأن الإيمان قول باللسان وأن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله وله الجنة والثانية القائلة إن الإيمــان عقد بــالقلب وأن أعلن الكفر بلســانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية فى بلاد الإسلام ومات على ذلك فهو مـؤمن كامل الإيمان عند الله ومن أهل الجنة.

وعن فضائح الجهمية قولهم بأن الله محـدث مخلـوق وأنه لم يكن يعلم شـيئاً حـتى أحدث لنفسه علما علم به وقالت طائفة منهم من الكرامية من آمن بالله وكفر بـالنبى فهو مـؤمن كـافر معـاً وقـال مقاتل بن سـليمان وكـان من كبـار المرجئة لا يضر مع الإيمـان سـيئة جلت أو قلت ولا ينفع مع الشـرك حسـنة أصـلاً وكـان مقاتل هـذا فى خراسان مع جهم وكان يخالفه فى التجسيم. كان جهنم يقول ليس الله تعالى شيئاً ولا هو أيضاً لا شىء.. أما مقاتل فكـان يقـول أن الله تعـالى جسم ولحم ودم على صـورة الإنسان وقـالت الكرامية الأنبيـاء يجـوز عليهم كبـائر المعاصى كلهـا، حاشا الكـذب فى البلاغ وقالوا إن القرآن لم ينزل به جبريل على قلب محمد وإنما نزل عليه بشـىء آخر هو العبارة عن كلام الله وأن القرآن ليس عندنا البتة إلا على المجـاز، وأن الـذى نـراه فى المصاحف ليس هو القرآن البتة ولا شىء من كلام الله البتـة، بل شـىء آخـر، وأن كلام الله لا يفارق ذات الله. وقالت الأشعرية كلها أن الله لم يـزل قـائلاً لكل من خلق أو يخلق فى المستأنف كن، إلا أن الأشياء لم تكن إلا حين كونها.

وقـالوا إن الله تعـالى لا يقـدر على المحـال، ولا على إحالة الأمـور عن حقائقها ولا على قلب الأجناس عن ماضياتها وأنه تعالى لا يقدر البتة على أن يقسم الجزء الـذى لا يتجزأ وكذبوا من قال محمد رسول الله وأن الواجب أن يقـول محمد كـان رسـول الله إلا أنهم يرون أن الأرواح أعراض تفنى ولا تبقى وأن النفس إنما هو هذا الهواء الخــارج بالتنفس حار بعد دخوله بعد وأن الإنسان إذا مات فنى روحه.

وقالوا ليس لشىء من الأشياء نصف ولا ثلث ولا ربع ولا سدس الخ... وأنه لا يجـوز أن يقال الفرد عشر العشر ولا أنه بعض الخمسة وحجتهم فى ذلك أنه لو جاز أن يقال ذلك لكان عشراً لنفسه وبعض نفسه.

وقال الباقلانى فى "الانتصار" فى القرآن، نحن ننكر فعل النار للتسـخين والأحـراق وننكر فعل الثلج للتبريد وفعل الطعام والشراب للشبع والرى والخمر للإسكار كل هذا عندنا باطل ننكره أشد الإنكار وكذلك فعل الحجر لجذب شـىء آخر أو رده أو حبسه أو إطلاقه من جديد أو غيره كما قال إن تقسيم آيات القرآن وترتيب مواضع السـور فعله الناس وليس هو من عند الله أو أمر به الرسـول وقـال لا يلـزم من سـمع القـرآن عن النبى أن يقطع بأنه آية حتى يسأل أفضل النواحى والأطـراف ونقلة الأخبـار، فـإذا علم بعد التثبت والنظر أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد لزمه عندئذ اعتقاد نبوته وقـال يجـوز أن يكفر التى بعد أدائه الرسالة"[8].

هذا غيض من فيض وفقرات عابرة أخذت من قرابة مائة صـفحة من القطع الكبـير من كتـاب الفصل ولو أردنا الاستشـهاد بكتـاب الملل والنحل للشهرسـتانى أو كتـاب الفرق بين الفرق للأشعرانى لكان علينا أن نصدر كتاباً آخر.

فإذا كانت هـذه الاتجاهـات الشـاذة والمسـرفة الـتى هى أقـرب إلى الخرافـات قد وجدت سبيلها إلى جماعات أدت بها ظروفها لسلوك هذا المسلك، فـإن النخبة المثقفة سلكت بدورها مسلكاً بعيداً عن الإسـلام وطبيعته حـتى لو أرادوا به النهضة بالشـريعة بعد أن رأوا – كما قـال إخـوان الصـفا – أن الشـريعة قد دنسـتها الجهـالات واختلطت بالضلالات أنه لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ومتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمـال" ونـرى شـيئاً مثل هـذا فقى رسـالة ابن رشد "فصل المقـال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال".

إن تقوقع الفهم السنى، وتكاثر الملل والنحل فضلاً عن التصـوف الجـامح قد صـور لهـذا الفريق أن لا حل إلا بالفلسـفة، وعاصر ذلك فـترة الترجمة الـتى دفعها المـأمون إلى الإمام (حتى وإن كانت موجودة قبله) فظهرت بمظهر الجديد الطارئ الـذى يقـدم الحـل. وكـانت الشـقة قد بعـدت ما بين الفقه الإمـبراطورى الـذى وضع خلال القـرون الثلاثة من الهجـرة.. وما بين الفقه القـرآنى النبـوى الـذى جـاء به الرسـول، وطـويت صفحته عام 40 هجرية عندما حول معاوية الخلافة الراشدة إلى المُلك العضوض.. فى هـذه الملابسـات بـدأ وكـأن الفلسـفة هى الـتى تحل المـأزق الـذى تعـرض فيه الفكر الإسلامى.

ولكن هذا لم يكن طبيعيا لأن الفلسـفة اليونانية على وجه التحديد لها جـذور وثنيـة، ولم تكن هى المثلى لتقدم الحل المنشود، خاصة وأن العلمـاء المسـلمين اسـتخدموها فى آخر ما يجوز لها أن تستخدم فيه. الله تعالى وطبيعته وصفاته، الذى قـام عليه علم

---

[8] **(8) من الجزء الرابع من كتاب "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" الصفحات من ص179 إلى ص226 (الطبعة الأولى – مطبعة الموسوعات بباب الخلق سنة 1321هـ).**

التوحيد أو علم الكلام، وهو علم غريب نابى عن منطق القرآن للبرهنة على وجـود الله ثم استخدم فى علم أصول الفقه واعتبر الغزالى الذى قيل إنه عدو الفلسفة اللــدود – المنطق أساساً لفهم القياس وخصص له الصفحات الأولى فى كتابه المستصفى وقال أن من لا يعرفه لا يوثق بعلمه أصلاً وسلم بذلك معظم علمـاء السـلف وليس بن رشد وابن سينا والمعتزلة وحدهم.

وقد بدأ ذلك من أبى الحسن الأشـعرى نفسـه، الـذى حـاول أن يجمع ما بين النص ومذهب أهل العقل وعلماء الكلام وتقصى أحد المـؤلفين تطـور تسـلل علم الكلام إلى الفكر الإسلامى فقال: "ومن بعد الأشعرى فى بناء مدرسـته واتجاهه كـان القاضى أبو بكر الباقلانى. وينسب إليه وضع المقـدمات العقلية (الفلسـفية). كـالجوهر الفـرد، فى تأليف علم الكلام الأشعرى.

ومن بعده كان إمام الحرمين، أبو المعالى عبد الملك الجوينى النيسـابورى الملقب ضياء الدين (ولد سنة 420 هــ - وتـوفى سـنة 478 هــ). درس فى المدرسة النظامية بنيسـابور علـوم التوحيد والفقه والمنطق ثلاثين سـنة، وله كتـاب (نهاية المطلـوب)، مخطوط بدار الكتب المصرية، وهو صاحب كتاب (الشامل) وتلخيصه (كتاب الإرشـاد). وينسب إليه زيـادة عن سـلفيه اسـتخدام المنطق الإغـريقى فى تـأليف علم الكلام الأشعرى.

ومن بعد إمام الحرمين كان تلميذه الغزالى حجة الإسـلام المتـوفى سـنة 505 هــ. وينسب إليه فى بناء المدرسة الأشعرية أنه فى التـأليف على طريقتها أدخل الفلاسـفة للرد عليهم، بعد أن كان الرد فيه من أئمة هذه المدرسة قاصراً على المعتزلة وحدهم.

والإمام ابن الخطيب تابع الغزالى فى نهجه فى الـرد على الفلاسـفة والمعتزلة فى التأليف على النمط الأشعرى. والبيضاوى صاحب (الطوالـع) زاد من خلط مسـائل علم الكلام بمسـائل الفلسـفة. وعلمـاء الأعـاجم: كسـعد الـدين التفتـازانى والإيجى، تـابعوا البيضاوى فى نمط التأليف" انتهى[9].

ويمكن القول إن تجربة الفكر الإسلامى فى هذا المجال لم تكن موفقه، وإن النقل فى هذه النقطة كان أجدى من العقل، لأن العلماء المسـلمين الـذين درسـوا الفلسـفة اليونانية على أساس إستخدامها فى إثبات وجـود الله وتنزيهـه، أخـذوا بها ودفعهم ذلك إلى عالم من التفريعات والافتراضات لم يكن لهم بها عهد. وبعد فترة تحولت أهدافهم إلى محاولة توفيق بين العقيـدة والفلسـفة ورأوا أن الحكمة مولـدة الديانـة.. والديانة متممة للحكمة. كما يفهم من كلام إخوان الصفا..

ويصــور منزلة الفلســفة اليونانية ما جــاء فى كتــاب (الجمع بين رأيى الحكمين) للفارابى والذى قال فيه "ولـولا ما أنقذ الله أهل العقـول والأذهـان، بهـذين الحكمين – أفلاطون وأرسطو، ومن سلك سبيلهما ممن وضحوا أمر الإبداع بحجج واضـحة مقنعـة، وإنه إيجاد الشىء لا عن شىء، وإن كل ما يتكون من شىء مـا، فإنه يفسد لاسـتحالته إلى ذلك الشىء، والعالم مبدع من غير شىء فمآله إلى غير شـىء.. فيما شـاكل ذلك

---

[9] **(9) الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى – للدكتور محمد البهى ج2 ص4.**

من الدلائل، والحجج والبراهين، الـتى توجد كتبهما مملـؤه منهـا، وخصوصـاً مالهما فى الربوبية، وفى المبادئ الطبيعى – لكـان النـاس فى حـيرة ولبس.." فـأين الإسـلام فى هنا، وأين رسالة محمد، وأين نور القرآن وبراهينه التى غرس بها الإيمان غرسـاً يفـوق غرس الفلسفة بمراحل.

إن كلام الفـارابى، ومن ذهب مذهبـه، يصـدق تمامـاً على المجتمع اليونـانى، أيـام أفلاطـون وأرسـطو، هـذا المجتمع الـذى لم يعـرف قرآنـا، ولم يحظ برسـالة، وقـام الفلاسفة فيه بدور الأنبياء. ولكنه لم يعد ذا موضوع بعد رسالة الرسول ونزول القـرآن بأسلوب جديد وبـبراهين تتمشى مع الرسـالة الدائمة والعامة للبشـرية ولكن أصـولهم الأعجميـة، وغـربتهم عن المنطق القـرآنى. وغلبة الرواسب القديمـة، أعنت المنطق الأرسطى ولو تعمق الفارابى وابن سينا وأمثالهما فى القرآن، كما تعمقـوا فى فلسـفة "الحكيمين" لما اشتروا الذى هو أدنى بالذى هو خير. ولكن قد يلتمس لهم عذر بهيمنة الفقهاء التقليديين على الفكر الإسلامى وقتئذ – وحيلولتهم دون أى تأصيل.

وعــرض الــدكتور محمد البهى فى كتابة "الجـانب الإلهى من التفكـير الإسـلامى" لتفسير بن سـينا للآية ﴿اللَّهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَـوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونِـةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. {35 النور}.. فقال.

"... فـالنور إما ذاتى أو حقيقى، أو مسـتعار، والمسـتعار إما الخـبر وإما السـبب الموصل إلى الخـير. وفسر السـموات والأرض بأنها الكـل. والمشـكاة هى العقل الهيـولانى ومفتـاح العقل المسـتعار والزجاجة بالواسـطة، وشـجرة مباركة بـالقوة الفكرية، والنار بالعقل الكلى الكبر للعالم المشاهد. وهو النفس الكلية عند أفلاطون".

ولا جدال فى أن هذا التفسير أبعد ما يكون عما أراده القرآن، وتصـوير القـرآن لله تعالى تتشربه النفوس ويعطى الأثر المطلوب دون تكلف أو إغـراب. فى حين لا يقـدم تفسير ابن سينا الذى تعلم على أرسـطو وأفلاطـون إلا خبطـاً فى عـالم غـريب. ومثل هذه المحاولات هى "تلغـيز" وليس تفسـير القـرآن. فـالقرآن واضح مـؤثر مقنع بذاتـه، بلفظه وجرسه ونظمه.

ولو أن هذه العقول العبقرية ركزت بحثها فى العلوم الطبيعية كما فعل ابن الهيثم، والبـيرونى، والخـوارزمى الخ... لتحقق فى بغـداد ما تحقق فى أوروبا عهد الإحيـاء، ولكسبت المعرفة عشرة قرون ولجاءت من مصـدر قد يلحظ فى اسـتخدامها، أو يضع لها أدبيات الإسلام، أو لو أن المعتزلة الذين عـالجوا قضـية العـدل بالنسـبة لله تعـالى، عالجوها بالنسـبة للخليفة أو طبقوها على أنفسـهم عنـدما سـنحت لهم فرصة الحكم، لحال ذلك دون تدهور النظـام السياسى ولظفر أدب الحـوار بنمـاذج أفضل من نمـاذج إجبار الناس على القول برأى واحد دون تقدير لآرائهم الخاصة.

وما معـنى قضـية الصـفات الـتى أصـبحت محـوراً من محـاور الصـراع فى الفكر الإسـلامى ودارت حولها معـارك وأدت إلى إنقسـامات.. سـوى جـدل لا يخطر لرجل سليم القلب سوىِّ الطوية آمن بآيات القرآن الكريم، كما آمن الصـحابة، فلم يخطر له أن يسـأل أو يستقصـى.. لأن المعـنى المطلـوب وصل قلبه فأدفـأه بالإيمـان وأسـعده باليقين، وأصبح كل ما عدا هذا فضولاً، بل افتياتاً وتلويثاً، إننا فى هـذا الاتجـاه نتفق مع الذين رفضوا أصلاً الحديث فى هذه القضـية ورأوا إنها من محـدثات الأمـور، ونتفق مع ما يقوله ابن الجـوزى فى كتابه "فضل علم السـلف على الخلـف" وإن كنا نختلف معه فى قضايا أخـرى. وقد قـال ابن الجوزية فى كتابه هـذا (ص17 دار الطباعة المنيرية – القاهرة).

"ومن ذلك أعنى محدثات الأمور – ما أحدثه المعتزلة، ومن حذا بحذوهم من الكلام فى ذات الله تعـالى وصـفاته بأدلة العقـول وهو أشد خطـراً من الكلام فى القـدر. لأن الكلام فى القدر كلام فى أفعاله، وهذا كلام فى ذاته وصفاته".

وكان رد فعل تجربة الفكر الإسلامى مع الفلسـفة اليونانية وما تـورط فيه المعتزلة وعلماء الكلام من سـخف وجـدل، أن انـدفع الفكر الإسـلامى إلى التصـوف. كما انتهى إلى ذلك الغزالى، أو إلى السُنة وبالذات الحديث. ولم يكن فى هـذين ما يشـجع العقل بوجه خاص. ومن هنا تهيأ المناخ لحدوث المأساة التى انتصر فيها النقل على العقل.

لم تجد الجماهير متنفساً لها إلا فى التنظيمات الصوفية الـتى لم يقتصر تجاوبها مع الجماهير على أنها قدمت البديل العـاطفى بأبطالها من الأقطـاب والأوتـاد، وما أكـدوه من كرامات لهم من مشى على الماء وسبح فى الهواء وصلاة الظهر فى مكة والعصر فى الشام أو مصر.. ولكنها أيضاً تضـمنت صـورة من التنظيم المحكم يربط الجمـاهير بقيادات، ويملأ الفـراغ التنظيمى، ويوجد لهم شـيوخاً يمكن أن يكـون لهم دور فى حل مشـاكلهم وتجمعهم فى المناسـبات ولم يكن فى التصـوف ما يتعـارض مع أوضـاع الجماهير لأنها إنما قامت للزهد ولمحاربة البـذخ والـترف والاسـتمتاع والجمـاهير ليس لديها شىء تخسره، وهم المؤهلون للانضمام إلى جماعات الفقراء هذه..

ساد التصوف، وأصبح هو الإيمان الشعبى وكان يمكن أن يصلح، ولكن هذا – عمليـاً – كان مستحيلاً لسيادة الجهالة والأمية على الجماهير الـتى كـانت تجد فى "الخرافـة" الـزاد المطلـوب، ولأن ما فرضه البنيـان التنظيمى لها من طاعة المريد للشـيخ طاعة مطلقة، أفسد هؤلاء الشيوخ، ولم يكن منـاص من هـذا لأن السـلطة مفسـدة، كائنه ما كانت.

ووصف ابن حـزم بعض سـلوكيات المتصـوفين "ادعت طائفة من الصـوفية أن فى أولياء الله تعـالى من هو أفضل من الأنبيـاء والرسل وقـالوا إن من بلغ الغاية القصـوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكـاة وغـير ذلك وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك واستباحوا بها نساء غيرهم وقـالوا إننا نـرى الله ونكلمه وكل ما قذف فى قلوبنا فهو حق"[10].

---

[10] (10) الفصل لابن حزم – مصدر سابق الجزء الرابع ص226.

ومع تدهور وانحطـاط الأحـوال العامة فى السـنوات المظلمة الـتى سـبقت العصر الحديث، انحط مستوى كثير من المتصوفين، وظهرت مجموعات جاهلة منكرة، تـدعى القـربى إلى الله وتسـير فى الشـوارع فى أسـمال تكشف عن سـوءاتهم ويـأتون من الأعمـال كل ما يثـير الاشـمئزاز ويظن هـذا من كرامـاتهم وتلتف حـولهم العامة الـذين يؤخذون بشعوذاتهم ومن يقرأ "المقريزى" حتى الجبرتى يعلم العجيب عن أحوال هذه الطائفة وكيف مسـخت الإسـلام مسـخاً، وأفقدته كل قيمه وأوجـدت عالمـاً خرافيـاً وهميـاً.. وابتـدعت طقوسـاً تجعل اتباعها مجـردين من الإرادة تـابعين، خاضـعين، لا ينكـرون إذا رأوا منكـراً لأنهم قد فقـدوا الثقة فى أنفسـهم ولا يملكـون الحكم، ولعله كرامة وليس منكراً.

وكان كثير من المشعوذين يملكون نوعاً من قـوة التـأثير على بعض الحكـام الـذين كانوا مثلهم فى الجهالة وليس لـديهم أى تهـذيب أو علم وإنما حملتهم المـؤامرات إلى الحكم. وجعل هذا ثقة الاتباع فيهم تتوطد وتتأكد..

وظلت أسراب هؤلاء المشعوذين ما بين مرضى، أو متسولة، أو مجـانين تسـير فى طرقـات المـدن تحظى من السـكان بـالعطف أو الاحـترام حـتى جـاء نـابليون فـأمر بجمعهم، وحــول المرضى على المستشــفيات وأودع المتســولين فى ســجون الخ... ولكنهم عــادوا بعد رحيله وشــاهدت فلــولهم الفــترة من محمد على حــتى مشــارف العصر..

ثالثاً: روح العصر ..

لسنا فى حاجة لأن نأخذ بما ذهب إليه أوجست كونت فى تقسيم العهود التى مرت بالبشرية، ولكننا نرى أن العهد الذى بدأ بظهور الإسـلام، أى القـرن السـادس الميلادى واستمر لمدة خمسة أو سـتة قـرون يمكن أن يطلق عليه "عهد الإيمـان" وهى الصـفة الــتى أطلقها ويل دورانت فى موســوعته "قصة الحضــارة" على القــرون الوســطى الأوروبية التى تستغرق فيما تستغرقه المرحلة الإسلامية أيضاً وكل الفـرق أن الإيمـان فى القــرون الوسـطى الأوروبية كـان إيمانـاً تسـيطر عليه بالدرجة الأولى الكنيســة، ورجال الدين الذين فرضوا "مسـيحية الكنيسـة" على الإيمـان المسـيحى، فى حين أن المرحلة بالنسبة للإسلام شـاهدت لمـدة ثلاث أو أربع قـرون حضـارة كـانت بمقـاييس العصر متقدمة عن الحضارة الأوروبية ثم أخـذت القيم الإسـلامية تتآكل بفعل التطـور، وسوء نظم الحكم الخ... حتى أشبهت فى انحطاطهـا، وفى جمودها بمـذهبياتها، إيمـان الكنيسة فى القرون الوسطى الأوروبية..

ولم يكن متصوراً أن تأخذ مسيرة التحرر من روح هذا العصر الصورة التى ظهـرت بها الحرية الفردية كما تصـورها أدبيـات الديمقراطية الحديثـة. كـانت الـروح الإيمانية طاغية وكانت حركات التحرر محكومة بإطار كان يضـيق شـيئاً فشـيئاً، لهـذا لم تتقـدم المسيرة كما لم يظهر من المجددين من تحـرر من أوزار العهد وروحه وما كـان نظـام الحكم ليسمح بظهور مفكر إسلامى حر وما كان مناخ العصر ليسمح بالتحرر من بعض لوثاتــه. إن من الصـعب جـداً أن يتخلص الإنسـان من كل محوطاته وملابسـاته وروح عصـره ومحدوديه وسـائل البحث. إن هـذه كلها جعلت كل واحد من المجـددين الـذين

أشـرنا إليهم لا يـبرأ من أحد آثـار العصـر. فلم يبلغ أحد من الثورية على ما شـاع فى عصره من خرافة مثل ابن تيمية ومع هذا فإنه هو نفسه خضع لمقـولات ليست بمنـأى عما نصب نفسه لحربـه، وتسـربت إليه أفكـار عن ذات الله ابتعد فيها عن نهج القـرآن والرسول وأخذ بكلام السلف وقادته عداوته لمن يخالفه لأن يحكم عليه بالكفر.

وفى كتابنا نحو فقه جديد – الجزء الثـالث ص 31 أشـرنا إلى هـذه النقطة وضـربنا المثل بابن حـزم فقلنا "فـأبن حـزم مثلاً يعلى العـدل والمسـاواة فى كثـير من قضـايا الفقه. ويحمل حملة شعواء على كثير من المبادئ التى وضـعها الفقهـاء أو الاجتهـادات التى أخذوا بها ورأى أنها مجافية لروح الشـريعة – ولكنه من ناحية أخـرى – يأخذ بخـبر الواحد إذا صح فلا يختلف فى هذا عن الشافعى – ممثل الحفاظ السُنى.

وقد أدى به هذا إلى مأزق ومفارقـات كـان عنها فى غـنى فهو يقـول "يقطع صـلاة المصـلى مـرور الكلب والحمـار والمـرأة" ثم يقـول بعد ذلك "إلا أن تكـون المـرأة مضطجعة معترضة فلا تقطع الصلاة".

وهـذه المفارقة إنما جـاءت لأنه وجد حـديثاً عن عائشة أنها قد تكـون نائمة ناحية القبلة فيصلى الرسول إلى القبلة وهى معترضة دون حرج.

ومثل ذلك ما ذهب إليه من أنه "من سم طعامـاً وقدمه لآخـر، فمـات لا يقتص منه ولا يسـمى قـاتلاً" لأنه قـرأ ما روى عن أن الرسـول لم يقتل اليهودية الـتى دست له السم فى ذراع شاة.

وارتأى أن الآية "لا إكراه فى الدين" منسوخة، وأن الإكراه مباح فى الدين وهو أمر كان هو آخر من يفترض أن يذهب إليه أو يسلم به لولا سطوة النصوص وروح العصــر، وهب أن الآية منسوخة فماذا يفعل بالآيات العديـدة الأخـرى الـتى تقـرر حرية العقيـدة مثل "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" أو سـورة "الكـافرين" التى كان الرسول يقرأها فى ركعتى الفجر.

ودعا الشوكانى للاجتهاد ولكنه ألف كتاباً عن صحة أحاديث المهـدى وأنها تصل لحد التواتر والسيوطى الذى كان له ثقافة موسوعية يحشى كتابه "الإتقان" بكل المفتريات والأوهام على القرآن دون أن يمحصها أو يفندها..

وقل مثل ذلك عن ابن تيمية فمع أنه أكتسح اكتســاحاً موجة الشــفاعة والتوسل والأولياء الخ... فإنه من ناحية أخرى لم يكن يتـورع عن الحكم بقتل كل من يخالفه فى آراءه وما أجرأه فى إصدار الحكم على كل مخالف بأنه "حلال الدم"!!.

وهـؤلاء هم القمم فى أئمة الفقـه. أما الـذين جـاءوا من بعـدهم وعاصـروا فـترات الانحلال فإنهم يعكسون ظروف وتطورات هذه المرحلة...

ولا يعد هذا النقد إنتقاصاً منهم، ونحن أبعد الناس عن لومهم، لأنه ما كان يمكن أن يفعلـوا غـير الـذى فعلـوه، ولا يمكن لـوم أحد لأنه أتسق مع عصـره، وقد كـانوا أفضل بمراحل من نظراتهم فى الدول الأخرى، وإنما هو تقرير لحال الأوضـاع الـتى قضى بها العصر. على هؤلاء المجددين.

ولعل أكبر نقص حال دون تقدم الفقه كان استخذاء الفقهاء أمام هيمنة الإسناد، واشتراكهم مع المحدثين فى اعتبار السند وليس المتن هو العامل الفاصل فى تحديد درجة الحديث فى حين أنهم بحكم صنعتهم كان يجب أن يختلفوا عن المحدثين وحاول أبو حنيفة شيئاً ما أن يتحرر، ولكنه هو نفسه كان يرى الأخذ برأى الصحابى، وأن كلمته المشهورة "هم رجال ونحن رجال" إنما كانت على التابعين وليس الصحابة. ونجد الخضوع لهيمنة الإسناد فى الشافعى، وفى ابن حزم، وفى الشوكانى وابن الوزير، فهذا الأخير على حرصه ليكون الحق أعلى مما فى أيدى الخلق دافع دفاعاً مستميتا عن روايات ضعيفة، وأحاديث ركيكة وعن الفكرة العامة للصحبة التى تجعل كل من رأى الرسول يعد صحابيا عدلاً ويؤخذ بحديثه الخ...

وكان من العوامل التى عززت روح العصر أن إقتصرت أداة الثقافة على الكتاب المخطوط ورغم كل ما وصلت إليه حرفة "الوراقة" ونسخ الكتب بالأيدى، فإنها كانت محدودة بالطبع، فضلاً عن أخطاء التصحيف الشنيعة التى ساعدت عليها الحروف العربية وضرورة التنقيط، وفى حالات عديدة ضرورة الشكل. وأى نقص فى هذين يغير المعنى. وكان قوام الدراسة هو "الشيخ" الذى يأوى إليه عدد من الطلبة المؤمنين بأستاذيته وأحكامه، فكان يدرس معهم أحد المراجع أو بعضها فإذا اطمأن إلى كفاية تلميذه أعطاه "إجازة" تبيح له أن يدرس ما تعلمه على يديه. وللطريقة مزاياها، ولكنها تحمل الطابع العام "اليدوى والفردى" الذى كان لكل الحرف والمهن.. وما يتبعه من تحديد، وجاءت الخطوة الأولى فى القضاء على هذا العهد وإشاعة المعرفة مع ظهور المطبعة فى أوروبا وقد تأخر ظهور المطبعة فى الشرق عنها فى الغرب لأكثر من ثلاثة قرون، وعندما أمر السلطان العثمانى شيخ الإسلام بإصدار فتوى يبيح بها إنشاء مطبعة – وكان ينظر إليها وقتئذ وكأنها رجس من عمل الشيطان – أصدر الشيخ الفتوى على أن لا يطبع بها قرآن أو سُنة أو تفسير خشية التصحيف!.

ولهذا تأخر ما يمكن أن تؤديه المطبعة حتى ظهرت فى دول أخرى تابعة للسلطنة العثمانية قبل أن تقوم بدورها فى تركيا..

* * *

لهذه العوامل الثلاثة تعثرت حركات التجديد والإصلاح فى العصور القديمة وحالت دون أن تحقق نقلة حاسمة فيه.

الفصل الثالث
حركة التجديد فى العصور الحديثة
(1)
الذين أرادوا التجديد نهضة

السيد جمال الأفغانى
النافخ فى الصور

السيد جمال الأفغانى هو الروح المحركة، والصوت الداوى وكأنه النافخ فى الصور ما أن ينفخ حتى تتحرك الأجساد الميتة، فتعود إليها الحياة، فتسعى كأنها جراد منتشر..

كان فى هذا الرجل من المواهب والملكات من ثقافة، ومن ذكاء ومن شجاعة، ومن ثقة فى النفس ما جعله يجذب كل الذين اتصلوا به، وما يجعله يظفر بالتقدير والاحترام من ملوك هذه الفترة وفى الوقت نفسه فإنها أثارت حيرة العالمين.

وكأنه المتنبى:

يقولـون لى ما أنت فى كل بلدة　　وما تبتغى. ما أبتغى جـل أن يسمى

وكان كالمتنبى أيضاً:

أنام ملأ جفونى عن شواردها　　ويسهر الناس جراها ويختـصُم

إن مـواهب الرجـل، وظـروف عصـره هى الـتى جعلته يسـلك المتناقضـات فى آن واحد. فقد كان داعية ضد الاستعمار البريطانى الذى كان يحتل معظم الدول الإسلامية وفى مقدمتها الهند ومصـر.. كما كـان بحكم روحه الحـرة ودعوته للتحريـر، عـدواً لكل المستبدين من الحكام الذين كانوا يحكمون دولهم فكـان صـادقاً ومخلصاً فى هجومه الكاسح على الاسـتعمار وفى تحديه السـافر، وفى بعض الحـالات – السـرى - للحكـام والملـوك، وفى هـذا السـبيل كـان يعمل لتكـوين "الـدعاة" الـذين يحملـون دعوته إلى الجماهير، كما عنى بالصحافة، وكان وراء تأسيس عـدد من الصـحف فى مصر – الـتى ظل فيها وهو الذى كان أشبه بالشهاب الثاقب الـذى يختـرق الآفـاق – ثمـان سـنوات، ولم يتردد فى أن يسـتخدم التنظيم الماسـونى الـذى دخله وألم بنظمه ثم كـون نفسه محفلاً مختلفاً، وهذه خطوة ما كان داعية إسلامى غير الأفغانى يجرؤ عليها.

هذا هو الخط الثورى – التحريـرى للأفغـانى الـذى بـذل فيه عصـارة فكـره ومحض ثقافته ومعظم وقته وجهـده والـذى اسـتطاع بفضـله أن يوجد فى الـدعاة النـواة الـتى نهضت بعده برسالة تحرير الشعوب من نير الحكام وظهر هـذا جليا فى مصر إذ كـانت كل المجموعة الرائدة الـتى طـالبت بالدسـتور وبالحيـاة الديمقراطية من اتباعـه. ومن المتأثرين بفكره مثل محمد عبده، وسـعد زغلـول، والبـارودى والهلبـاوى، واللقـانى بل حتى من يظن أنهم أبعد الناس عنه، مثل أحمد لطفى السيد الذى سـافر إلى الآسـتانة ليتتلمذ على يديه.

وبفضل جهده فى هذا المجال نالت مصر أول تجربة دستورية، ثم أول دستور وكان يُرجى منه كل خير لولا مناورات ومقاومات إنجلترا وفرنسا التى أدت إلى الاحتلال البريطانى.

ولكن الأمر الذى أثار حيرة الباحثين ودهشتهم أن هذا الداعية الثورى – جليس قهوة متاتيا.. وملهم الثوريين والإصلاحيين كان يعمل أيضاً مع الملوك والأمراء. وكان هؤلاء الملوك يحتفون به أعظم الاحتفاء ويرون فيه "رجل المهام الصعبة" وقد استقدموه، أو قابلوه جميعاً بدءً من قيصر روسيا وقيصرتها – حتى خاقان البرين.. الخليفة الأعظم – حتى ناصر شاة حاكم إيران حتى الخديوى إسماعيل حاكم مصر.. ثم قابل فى لندن أعداءه الألداء من سادة السياسة البريطانية فكيف يمكن إساغة هذا؟..

الحل فى نظرى يعود إلى عاملين أحدهما ذاتى والثانى موضوعى. أما الذاتى فإن السيد الأفغانى كان معتداً بنفسه وقدراته عالما أنه يمكن أن يحقق ما يعجز عنه الآخرون. ومن ثم فقد كان لديه استعداد نفسى لقبول "المهام الصعبة" التى لا يمكن لغيره أن يحلها، ويجب أن نذكر أن الأفغانى بدأ حياته – فى عشرينات عمره – وزيراً، أو حتى رئيس وزراء لحاكم الأفغان أى أنه يضم بين جنبيه شخصية الحاكم أو الأمير، ولكن من حسن حظ الدعوة الإسلامية أن منافسه أنتصر وفقد الأفغانى منصبه، وتحول من الأمير إلى الثورى فسافر إلى الهند وبدأ مسيرته التى لم تنته إلا فى الأستانة، بعد إقامة طويلة فى مصر. أما العامل الموضوعى فإنه فى أعمق أعماق التراث الإسلامى ألا وهو "الدين النصيحة لخاصة المسلمين وعامتهم".. ومن هنا فإن الداعية المسلم عليه – ابتداءً ومن تلقاء نفسه أن يتقدم بالنصيحة إلى الحكام.. فإذا كان هؤلاء الحكام يعطونه آذانا صاغية، أو يعدونه الحسنى. فقد كان لزاما عليه أن يقوم بذلك خاصة وأن هذا يأتى من أعلا قمة الحكم. الملوك والقياصرة. من هنا نفهم كيف أن الأفغانى لم يرفض دعوة الخديوى إسماعيل له. ولكنه انقلب على إسماعيل وتعاطف مع أبنه توفيق وحدث هذا فى أسوأ فترة عندما تعلم إسماعيل الدرس عن سوء سياسة إنجلتراً وفرنسا وبدأ يتعاطف مع الاتجاه الوطنى، وعندما نجحت موآمرات الدول فى الإطاحة بإسماعيل وجاءوا بتوفيق الذى كان يقول لجمال الأفغانى "أنت أملى فى مصر أيها السيد" كان أول عمله فعله هذا الخديوى الأرعن هو نفى الأفغانى عن مصر بصورة فظة، وحدث هذا تقريبا مع شاه إيران. ولا نعرف شيئاً عن جدوى مساعيه الحميدة مع قيصر روسيا.. أو مع السلطان عبد الحميد الذى استطاع أن يخدعه بالوعود حتى استقدمه إلى الآستانة فوضعه فى قفص ذهبى.. وكان يرى فى عبد الحميد دهاءً ولكنه فى النهاية انتهى إلى أنه "سل فى رئة الدولة".

لم تنجح هذه الجولات العديدة لتحقيق الإصلاح من أعلى، واعتقد أنه انتهى إلى هذه النتيجة وهو يروح ويغدو فى كاغدخانه التى سمح له بالتجول فيها وهو يتمثل أبيات المتنبى..

يقول لى الطبيب أكلت شيئاً وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه إنى جواد أضر بجسمه طول الجمام

تعود أن يغبر فى السـرايا ويدخل من قتـام فى قتـام
فأمسـك لا يطـال له فيرعى ولا هو فى العليق ولا اللجـام

إن درس هذا الجانب من النشاط السياسى للأفغانى **هو عقم أى إصلاح يمكن أن يأتى بالتفـاوض مع الحكـام المسـتبدين. إن خطاباته فى قهـوة متاتيا** الشعبية كانت أجدى من كل جلساته ومفاوضاته فى قصور الملوك والأمراء وهو درس يجب على كل الدعاة الإسـلاميين أن يعـوه وقد كـان أول من أخذ به هو تلميـذه الأثـير محمد عبده عندما أطلق كلمته المشهورة عن لعنة السياسـة، وكل ما جـاء من سـاس ويسوس"..

وإذا كان المصلح الإسلامى يرى أن من واجبه أن يوجه النصيحة للحكام، فـإن هـذا يجب أن يحـدث عن بعـد، لا عن قـرب وابــراء للذمة لا توقعا للإصـلاح، فـإذا جذبته النصـيحة إليهم – احـترق بالنـار. إن عليه أن يلـتزم بخط واحد واضح هو الكفـاح مع الجمـاهير، وبالجمـاهير بعيـدا عن السـلطة. ولقد تنبه الأئمة القـدامى إلى أن الاتصـال بالسلاطين، ولو بأمل الإصلاح – يصيبهم برشاش من أوزارهم فنأواً بأنفسـهم عن ذلك ورفضوا أن يكونوا قضاة لهم.

كل هذا لا يمنع من أن الأفغانى كـان مجـدداً أصـيلاً حـتى وإن لم يقـدم لنا صـورة مفصـلة لهـذا التجديد الجـذرى ولكن تنم عنه بعض كلماته كـالتى قالها للأمـير شـكيب أرسـلان عنـدما قابله فى الأسـتانة فقـال له "أن المسـلمين أصـبحوا كلما قـال لهم الإنسان كونوا بنى آدم قالوا كان آباؤنا كذا وكذا عاشوا فى خيال ما فعل آبـاؤهم، غـير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمـول والضـعة. إن الشـرقيين كلما أرادوا الاعتـذار عما هم فيه من الخمـول الحاضر قـالوا: أفلا تـرون كيف كان آباؤنا؟ نعم! قد كـان آبـاؤكم رجـالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفـاخر آبـائكم إلا أن تفعلـوا فعلهم"، "إن المسـلمين قد سـقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شىء واحد فيهم هو شهواتهم"، "هذا محمود سامى البارودى عاهدنى ثم نكث معى وهو أفضل من عرفت من المسلمين".

ولكنه لم ييأس لأنه كـان يـرى، أن الأزمة تلد الهمة ولا يتسع الأمر إلا إذا ضـاق ولا يظهر الفجر إلا بعد الظلام الحالك، وكان يـرى أن أوشك فجر الإسـلام أن يشـرق فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج سُنة الله فى خلقه.

* * *

وقد عيب على الأفغانى أنه أخفى أنه إيرانى الجنسـية شـيعى المـذهب وأدعى أنه أفغانى سُنى وهى نقطة جدلية، ولكنها لو صحت فما كانت تعـنى الأفغـانى فى شـىء، فقد كـان فـوق الأجنـاس والمـذهبيات ولا حـرج ولا تـثريب إذا رأى أن صـفة الأفغـانى السُنى تجعل الأبواب تتفتح له فضلاً عن تداخل الحدود والحكم ما بين الأفغـان وإيـران ردحاً طويلاً.

* * *

وعيب عليه أيضـاً تأييـده للجامعة الإسـلامية ولكن الجامعة الإسـلامية – على كل عورها – كـانت الأفضل فى وقته وكـانت نوعـاً من الحماية للـدول الصـغيرة وملـوك الطوائف أن يبتلعها الاسـتعمار. فضلا عن أنه كـان يريد أن تظهر النهضة فى أى دولة إسلامية ثم تنتقل منها إلى الدول الأخرى، وهـذا هو سر بقائه فى مصر ثمـان سـنوات فقد آنس إنها أفضل الدول لتحقيق ذلك.

وانتقـدوا تركـيزه على الإصـلاح الـدينى كعلاج. ولم يكن هـذا خطأ لأنه كـان يريد بالإصلاح الدينى إنهاض نفس الفرد. وإعمال عقله وإحياء ضميره، وهـذه شـروط يجب أن تتحقق قبل أى إصلاح سياسـى.. ولكى يمكن لأى إصـلاح سياسى أن ينجح وإلا فإنه سيفشل. وقد تحررت دول عديدة من الاستعمار، ولكنها لم تجن ثمرات الاستقلال لأن القاعدة الشعبية لم تكن قد أصلحت وهيئت للقيام بمسئولية الاستقلال.

وعاصر الأفغـانى ظهـور الماركسـية والدارونية ولكنه نبذ هما تمامـاً، ولم يقـدم لنا دراسة "أكاديمية" لهـذا الـرفض، ولكنه تنبه بحاسـته الإسـلامية والموضـوعية المرهفة إلى نقط الضـعف الكامنة وراء بريق التنظـير اللامع فتحـدث عنهما فى ازدراء كبـير، وقال عن نظرية دارون "تنازع الفناء لا تنازع البقاء".

وفى النهاية، يظل الأفغانى هو الثورى العظيم الرجل الذى أسهم به عالم الإسـلام فى الثوريين الكبار الذين تتنـاقلهم عواصم العـالم ويترصد لهم الحكـام وأنه الـذى أحيا الثقة فى الإسـلام بعد أن بهتت وأضـمحلت وبـدأ الإسـلام كجثة هامـدة، وأنه سـيظل الشخصـية الأخـاذة الـتى جـذبت إليها كل رجـالات العصـر، وسـيبقى رمـزاً لمقاومة الاستعمار من الخارج والاستبداد فى الداخل وتجسيداً للكرامة والإباء والتصميم تشـهد بـــذلك مغامراته شـــرقاً وغربا ومحاولاته ما بين الإثـــارة الجماهيرية والديبلوماســـية الملكية، ما بين التنظيم المعلن والعمل السرى ما بين جلساته فى قهوة متاتيـا، أو فى المحفل الماسـونى – أو فى قصـور القياصـرة. فـأين نجد شخصـية أخـرى يمثل هـذا الثراء.

أن رجلاً كالأفغانى مقداماً جسوراً لا يعرف التردد يجابه المشكلات المعقـدة الـتى كـان يعانيها العـالم الإسـلامى لم يتوقف طـويلاً أمـام أى أمل فى إصـلاح مهما اكتنفته الشبهات، وهذا هو سر دخوله المحفل الماسونى وقبوله دعـوات الملـوك عنـدما أبـدو اسـتعداداً للإصـلاح، لم تكن هـذه هى كل همه وإنما هى وسـائل اعتقد أنه إن لم ينجح فيهـــا، فلن يثبطه ذلك وأنه إن لم يظفر بالإصـــلاح فلن تجعله ينحـــرف عن خطه الرئيسى، ولكنها جلبت عليه الشبهات كما جلب عليه العمل السياسى شـكوك البعض، ولكنها فى التحليل الأخير "الخطأ النبيل" لأنه لم يسع فى هذا كله إلى جاه، أو مـال أو اقتصاد، أو ألقاب بل كان كارهاً لها ورافضاً إياها، وعاش طول حياته متقشفاً.

وكـانت نهايته هى نهاية الثـورى العظيم فقد أصـيب بسـرطان فى الفك وقيل إن الخليفة دفع طبيبه أو أحد مساعديه إلى تسـميمه، ولم يكد يلفظ أنفاسه حـتى داهمت الشرطة مقره وتحفظت على كل شىء ولم يسر فى جنازته إلا عدد محدود ودفن كما يـدفن أقل النـاس وظل قـبره مجهـولاً حـتى اكتشـفه المسـتر "كـراين" وهو أمـريكى

متعاطف مع التوجيهات الشرقية والعربية فجدده فأقام "شاهداً" عليــه، وفيما بعد نقل جثمانه إلى جامعة كابول حيث استقر هناك.

الإمام محمد عبده
رائد العقلانية الإسلامية

كان الشيخ محمد عبده هو المريد الأثير للسيد الأفغانى وقد تتلمذ عليه فى القاهرة ثم صحبه فى باريس وشاركه تحرير "العروة الوثقى" واعتبر حامل علمه وناقل فكره، ولكنه فى الطبيعة كان مختلفا عنه كل الاختلاف فالسيد جمال الـدين كـان نـبيلاً إيرانيا يحمل سـمة العـزة والسـيادة وكـان ثوريا مطبوعا ورجل دولـة، وليس رجل دين. أما الشيخ محمد عبده فقد كان فلاحاً مصـرياً فيه دماثـة، وحلم وتحمل المصـريين. وكـان رجل إصلاح ودين وليس ثورة ودولة، وقد أشعلت جاذبية جمال الدين فيه وقدة ثوريـة، فدار فى فلكه، بل كان هو الذى وضع القسم الـرهيب للجمعية السـرية الـتى ألفها مع الأفغانى للأعمال الفدائية ولكنه مع تقدم السن وزيادة الخـبرات، فضـلاً عن بعـده عن الأفغانى وتأثيره المباشر، ثم ما آلت إليه الحرب العرابية التى كـانت إلى حد كبـير من ثمار إقامة الأفغانى فى القاهرة وعمله فيها.. إلى احتلال بريطـانى.. كل هـذه العوامل كانت تبعده عن الثورية قدر ما تعود به إلى طبيعته الإصلاحية المتأصـلة.. والـتى دفعته – حتى عندما كـان فى إسـار جاذبية أسـتاذه الثوريـة، لأن يقـترح عليه أن يعكفـوا على تربية مجموعة من الشباب تكون نـواة العمل ونقطة الانطلاق.. ورد عليه الأفغـانى بما هو منتظر منه "إنما أنت مثبط!"..

على كل حـال، لقد كـانت نكسة الثـورة العرابية وما تعـرض له من اضـطهاد، وما قوبل به من جحود ونكران ممن أحسن إليهم، ووقوع البلاد فى قبضة الإنجليز، ثم نفيه إلى بيروت عاملاً حاسماً جعله يبتعد عن العمل الثـورى، ويشك فى جـدواه ثم يتحـول هـــذا الشك إلى يقين دفعه فى النهاية لأن يســـتعيذ من السياسة ومن كل ما اتصل بساس ويسوس..

وهكــذا وجد الشــيخ محمد عبــده نفسه وهو يعــود إلى طبيعته ويعمل فى مجاله الدينى/ الفقهى. وكان نجاحه فى تقديم سلسـلة من الـدروس عنـدما نفى إلى بـيروت هى بداية لمسـيرة من العمل فى المعالجـات الفكرية والنظرية لتجديد فهم الإسـلام. وشمل هذا تيسير علم الكلام فى رسالة التوحيد، ثم فى تفسير القـرآن الكـريم الـذى كان ينشر فى المنار وهى مجلة تلميذه ومريده السيد رشيد رضا، والذى كان منه، كما كـان هو من جمـال الـدين، ثم شـرع فى إصـلاح الأزهـر، وإصـلاح إدارتـه، وأسـاتذته والمناهج والطلبة الخ... وهو عمل عظيم ما كـان يمكن لغـير محمد عبـده إنجـازه رغم المقاومات الـتى تعـرض لهـا، وكـذلك إصـلاح المحـاكم وعنـدما عهد إليه برآسة تحرير مجلة الوقائع المصرية التى كانت تسجل القوانين واللـوائح وتشـيد "بـولى النعم" فإنه حولها إلى منبر فكرى وأداة نقد وتوجيه، ومدرسة للكتابة وجذب إليه أفراداً مثل سـعد زغلول.. ولما آلت إليه الفتوى أجتهد بما أثار ثائرة الجامـدين.. كل هـذا وهو يتقـدم من

مجال إلى مجال حتى انتهى إلى العمل الاجتماعى الطوعى فأسس بمساعدة آخرين الجمعية الخيرية الإسلامية ورأسها.

واتسمت المعالجات الدينية – سواء كانت فى التفسير أو الفقه – بدرجة عالية من العقلانية كانت تزيد قدر زيادة نضجه، وتراكم معرفته، وإطلاعه على الآداب الأوروبية حتى لقد انتقد هذه العقلانية طه حسين نفسه، ويمكن القول إنه أكثر الفقهاء عقلانية، ولم يأت بعده من يماثله، فضلاً عن أن يفوقه.

وحسبك أن تلقى نظرة على كتاب "الإسلام دين العلم والمدنية"[(11)] الذى تضمن أراءه فى هذه الناحية. فهو يقيم الأصول العامة للإسلام على ثمانية أصول هى:

الأصل الأول: النظر العقلى لتحصيل الإيمان.

> فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجوز أو يثور عليه؟.

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السُنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج، فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟.

الأصل الثانى: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض.

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن انتقل إلى غيره: أتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان، طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريق الثانى تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السُنة وعمل النبى مهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع المجال إلى غير حد، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها.

الأصل الثالث: من أصول الأحكام فى الإسلام. البعد عن التكفير..

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما أشتهر بين المسلمين من قواعد أحكام دينهم، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر، فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة

---

[11] **(11) الاسم الأصلى للكتاب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" وقد كتبه الشيخ محمد عبده رداً على ما كتبه فرح أنطون رئيس تحرير مجلة الجامعة. ونشره الشيخ رشيد رضا صاحب المنار.**

والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكـون من الحمق بحيث يقـول قـولا لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائه وجه؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار.

الأصل الرابع: الاعتبار فى سنن الله فى الخلق.

يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتبـار – وهو أن لا يعـول بعد الأنبيـاء فى الـدعوة إلى الحق على غير الدليل، وأن لا ينظر إلى العجـائب والغـرائب وخـوارق العـادات – أصل آخر وضع لتقــويم ملكــات الأنفس القائمة على طريق الإســلام، وإصــلاح أعمالها فى معاشها ومعادها – ذلك هو أصل العـبرة بسُـنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشـر، وفى آثار سيرهم فيهم، فمما جاء فى الكتاب العزيز مقرراً لهـذا الأصل ﴿قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُروا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَـذِّبِينَ﴾ .﴿سُـنَّةَ مَنْ قَـدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ .﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ .﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الخ...

فى هذا يصرح الكتاب أن لله فى الأمم والأكوان سنناً لا تتبـدل، والسـنن الطرائق التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار، وهى لا تسمى شرائع أو نـواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين. مالنا ولاختلاف العبـارات؟ الـذى ينـادى به الكتـاب أن نظـام الجمعية البشـرية وما يحـدث فيها هو نظـام واحد لا يتغـير ولا يتبـدل، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يـرد إليها أعماله ويبـنى عليها سـيرته وما يأخذ به نفســه. فــإن غفل فلا ينتظــرن إلا الشــقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو أتصل بالمقربين سـببه، فمهما بحث النـاظر وفكـر، وكشف وقـرر، وأتى لنا بأحكام تلك السُنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنـه، ولا تنفر منه. فلم لا يعظم تسامحها معه؟.

الأصل الخامس: قلب السلطة الدينية.

أصل من أصول الإسلام أنتقل إليه – وما أجله من أصل – **قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها.**

هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها حـتى لم يبق لها عند الجمهـور من أهله اسم ولا رسـم، لم يـدع الإسـلام لأحد بعد الله ورسـوله سـلطاناً على عقيـدة أحد ولا سيطرة على إيمان، حتى أن الرسـول عليه السـلام كـان مبلغـاً ومـذكراً لا مهيمنـاً ولا مسيطراً، قال الله تعالى: ﴿فَـذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُـذَكِّرٌ. لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَـيْطِرٍ﴾. ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا يربط لا فى الأرض ولا فى السماء. بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحــده، وليس لمســلم – مهما علا كعبه فى الإســلام – على آخر – مهما انحطت منزلته فيه – إلا حق النصيحة والإرشاد. قال الله تعـالى فى وصف المفلحين ﴿وَتَوَاصَـوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. وقال ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنـذِرُوا قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْـذَرُونَ﴾. فالمسـلمون يتناصحون ثم هم يقيمـون أمة تـدعو إلى الخـير – وهم المراقبـون عليها – يردونها إلى السبيل السوى إذ انحرفت عنه، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحـذير. ولا يجـوز لها ولا لأحد من النـاس أن يتتبع عـورة أحـد، ولا يسـوغ لقـوى ولا لضـعيف أن يتجسس على عقيـدة أحـد، وليس يجب على مسـلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسُنة رسوله.

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتـاب الله وعن رسـوله من كلام رسـوله، بـدون توسـيط أحد من سـلف ولا خلـف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسـائله ما يؤهله للفهم، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأسـاليبها وأحـوال العـرب خاصة فى زمـان البعثة وما كـان النـاس عليه زمن النـبى وما وقع من الحـوادث وقت نـزول الـوحى، وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار. فإن لم تسمح له حاله بالوصـول إلى ما يعـده لفهم الصواب من السُنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسـأل العـارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به، سـواء كـان السـؤال فى أمر الاعتقـاد أو فى حكم عمل من الأعمال.

فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.

الأصل السادس: حماية الدعوة لمنع الفتنة.

قالوا إن الدين الإسلامى دين جهـادى شـرع فيه القتـال ولم يكن شـرع فى الـدين المسـيحى، ففى طبيعة الـدين روح الشـدة على من يخالفـه، وليس فيها ذلك الصـبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شـريعة المسـالمة، وهى الشـريعة الـتى رددت فى كثـير من الوصايا المسيحية "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخـر، من سـخرك ميلا فسر معه ميلين" (متى5:ـ 39 و40) ونحو ذلك، حـتى لقد طلبت فيها محبة العـدو وهى مما لا يـدخل تحت الاختبـار بل ولا محبة الصـديق، وإنما الاختبـارى العـدل بين الأعـداء والأوليـاء. لكن فى ملكـوت الله على كل شـىء مسـتطاع ولا شـىء فيه بمستحيل.

قلنا لكن انظـروا هل دفع الشر بالشر عند القـدرة عليـه، وعند عـدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى، أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر إلى خصـمه؟ ليس القتل فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾. ولكن القتال فيه لـرد اعتـداء المعتـدين على الحق وأهله إلى أن يـأمن شرهم، ويضمن السلامة من غوائلهم، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية ما تسمعه فى الحروب المسـيحية، عند ما اقتـدر أصـحاب المسـالمة، على محاربة غـيرهم من قتل الشـيوخ والنسـاء والأطفال.

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين، وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين، وغاية ما يقال: إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل، فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته.

الأصل السابع: مودة المخالفين فى العقيدة- المصاهرة.

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته فى العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانه نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه.

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهى كما هى. وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له. أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم، وذوى القربى لوالدتهم، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذى يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من المعارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل وينصح الغاوى، ويرشد الضال. لا يكفر فى ذلك نعمة العشير، ولا يسلك به مسالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير، ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء.

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم، أو قاعدة لصناعة؟ إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد، أو يميل إلى

رأى غير الـذى يجـد؟ أفلا يسع هـذا ما يسع المجـاهر بـالخلاف، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الإسـلام من عناصر وأركـان كلها تؤلف مـزاج الكـرم، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لأطلت على القارئ أكـثر مما أطلت. ولهـذا أرى أن من الــواجب على أن أختم القــول بــذكر أصل أشــرت إليه ولا غــنى لما نحن فيه عن ذكره.

الأصل الثامن: الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

الحيـاة فى الإسـلام مقدمة على الـدين، أوامر الحنفية السـمحة إن كـانت تختطف العبد إلى ربــه، وتملأ قلبه من رهبــة، وتفعم أمله من رغبــة، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشـمه فى ترك اللذات ما فوق العادة.

صـاحب هـذا الـدين لم يقل "بع ما تملك واتبعـنى" ولكن قـال لمن استشـاره فيما يتصدق به من ماله "الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنيـاء خـير من أن تـدعهم عالة يتكففون الناس" انتهى.

ويســتحق الأصل الخــامس بوجه خــاص النظر فهو يــدعو إلى قلب السلطة الدينية أى المؤسسة الدينية التى يغلب دائماً أن تقف عقبة فى سبيل إصلاح المصلحين. وقد سار الشيخ محمد عبده وهو الأزهرى إلى آخر المدى..

* * *

قد قوبلت تجديداته، وفتاواه، بمعارضة شديدة من شيوخ الأزهـر، ومن المعارضـين للإصلاح وكان على رأسهم الخـديوى الـذى نقم منه أنه ضـيع عليه محاولاته الاسـتحواز على أرض الوقــف. وهى المناســبة الــتى أحــوجت الشــيخ محمد عبــده لإنقاذها إلى الاسـتعانة بكرومر وهو الرجل الوحيد الـذى كـان يمكن أن يقف "أفنـدينا" ولم يغفر له الخديوى عباس الذى عرف بشراهته فى الاستحواز على الأمــوال (كبقية أســرة محمد على) ضياع هذه الصفقة، حتى أنه عندما مات، لام رئيس ديوانه أحمد شفيق باشا لأنه سار فى جنازته..

وقد جرت على رأسه صلته بكرومر غضب وشكوك المواطـنين. فهل كـان بوسـعه أن يقبل سرقة الحقـوق لأن الـذى يقـوم بـذلك هو حـاكم البلاد؟ إن قبـول ذلك يحـول الوطنية إلى شـوفونية أو إلى عصـبية فيفضل الظلم من يد المصـرى أو الـتركى على العدل من يدى الإنجليزى.

وفى السنوات الأخيرة من حيـاة الشـيخ، كـان قد أصـبح المعلم والموجه لمجموعة نابغـة، حمل كل واحد منهم راية الإصـلاح فى مجالـه. كـان منهم تلميـذه الأثـير السـيد رشيد رضا يقدم السلفية الميسرة ويجمع المسلمين حـول "المنـار" وكـان منهم سـعد زغلـول الـذى استخلصه وجعله من محـررى الوقـائع ثم دفع به وأعانه لأن يشـغل من

المناصب ما جعله رائد الليبرالية المصرية، ومؤسس حزب الوفد العتيد. كما كان منهم قاسم أمين الـذى دعا إلى تحرير المـرأة وأصـدر كتابيه "تحرير المـرأة" فى السـنة الأخـيرة من القـرن و"المـرأة الجديـدة" وامتد أثـره إلى الشـمال الأفـريقى فكـان هو الملهم للشـيخ عبد الحميد بن بـاديس مؤسس جمعية العلمـاء والرجل الـذى أحتفظ للجزائر بعروبتها وإسلامها بعد أن كادت فرنسا أن تستلحقها كما أثر إلى حد كبير على عالم تونس الطاهر بن عاشور.

وهكذا بارك الله فى علم الرجل ونشر فكره فى أنحاء العالم الإسلامى وكـان هـذا عزاء له على ما تعرض له من اضطهاد وما أذاعـوه عنه من أكـاذيب وشـائعات.. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾. {17 الرعد}..

الإمام الشهيد حسن البنا ..

"الإسلام كمنهج حياة"

آل تراث الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا إلى حسن البنا الـذى ألم بهـذا الـتراث إلماماً حسـناً، فأخذ عن الأفغـانى "القسـمة الجهاديـة" إن لم تكن الثورية فى الإسـلام وهى قسمة أنسيت طوال سنوات الإصلاح والاضـطرار للمهادنة الـتى أملتها الظـروف على محمد عبده ورشـيد رضا فأعادها حسن البنا إلى الفكر الإسـلامى وجعل "الجهـاد فى سبيل الله أسـمى أمانينـا" كما اسـتفاد من عقلانية محمد عبـده، وإن لم يصل إلى مـداه، وكـان مهيئـاً لتقبل قـدر كبـير من العقلانية والليبرالية بحكم نشـأته "المدنيـة" فحسن البنا لم يتعلم فى الأزهر، ولم يضع على رأسه العمامة الأزهريـة، وقد كـان فى الحقيقة أبنا لثورة 19 وغـنى أناشـيدها مراهقا ثم دخل دار العلـوم وهى حصن العربية والإسلام وأراد بها الـذين أنشـأوها أن يخلصـوا الثقافة الإسـلامية من شنشـنة الفقهـاء وتحكمات المـذهبيين. وكـان واسع الإطلاع على الثقافة الغربية والإسـلامية، وأذكر إلى قرأت فى مكتبته فى مستهل شبابى "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى ورسـائل إخـوان الصـفا" و "تلـبيس إبليس" و "العقد الفريد لأبن عبد ربـة" و "الأغـانى للأصـفهانى" "والفهرست لابن النـديم" فضـلاً عن الكتابـات الحديثة للأسـتاذ كـرد على، ومجلـدات المنار الخ...

وكـان من حسن حظه أن مهد له السـيد رشـيد رضا بتقديمه "السـلفية الميسـرة" فوفر عليه عمل ثلاثين عاماً وبدأ منها ثم سار بها إلى درجة من التبسـيط والتنهيج كما فى "الأصول العشرين" وابتعد عن كل المسـائل الجدلية الشـائكة الـتى تولع بها بعض الفقهـاء وأدت إلى فرقه المسـلمين. واسـتفاد حسن البنا من التجربة الصـوفية الـتى مارسها بعمق فى مراهقتـه، كما مارسـها الشـيخ محمد عبـده والسـيد رشـيد رضا من قبل – ولكن خلصها من أوزارها...

إن العمل العظيم لحسن البنا أنه حـاول أن يقـدم الإسـلام كمنهج حيـاة، وأنه دون غيره من قادة الفكر الإسلامى استطاع بعبقريته فى التنظيم تأسـيس الهيئة الإسـلامية الأم" أو الهيئة القياسـية الـتى اسـتلهمتها ونسـجت على منوالها كل الهيئـات الأخـرى،

وبهـذا نقل الفكر الإسـلامى من ميـدان الكتابـة، الـتى لا تمـارس إلا بين أكـاديميين والفقهاء إلى مجال الجماهير العريضة، وإلى تنهيج المجتمع بحيث أصـبح الإسـلام قـوة فاعلة بين قوى المجتمـع، ولم يقتصر هـذا على مصـر، بل انتقل إلى بقية دول العـالم. ولا ينقص من قدرها أن انشـقت منهـا. أو حـتى ثـارت عليها أمشـاج وآحـاد لم يرزقـوا نجاحاً أو توفيقاً ولم يوهنوا أو يضعفوا الهيئة الـتى انشـقوا عليها بل إن هـذا كـان دليلاً على سـلامتها. وليس أدل على عبقريته فى التنظيم. أنه خلال عشـرين عامـاً فحسب نقل الإخوان المسـلمين من جمعية صـوفية صـغيرة فى إحـدى مـدن القتـال إلى هيئة عالمية تقدم الإسـلام كمنهج حيـاة، ولو قـدر له البقـاء لأجـرى من التجديد فيها مثل ما أجــراه فى العشــرين ســنة الأولى. على أن الهيئة رغم كل ما يوجه إليها من نقد وما أصيبت به من قصور لا تـزال أفضل الهيئـات على السـاحة، وقد صـمدت لكل الحكـام الذين ناصبوها العداء وأرادوا لها الـزوال، فزالـوا هم وبقيت هى بـدءً من فـاروق حـتى جمـال عبد الناصر حـتى السـادات وحـتى مبـارك، ففى كل هـذه العهـود كـانت الهيئة "محظورة" ومع هذا ظلت قوية متماسكة تستطيع أن ترسل إلى مجلس الشعب بأكثر مما تستطيع أحزاب المعارضة مجتمعة، رغم المضايقات التى لا تتصور..

لقد قيل كثيراً عن الإخـوان من الشـائعات الـتى أختلقها أو ضـخمها أعـداؤها، وهى مما تتعـرض له كل الهيئـات، وتصـدر عن نظـرة أحاديـة، أو عـدم إلمـام بكافة جـوانب الموضوع الخ...

ولعل أكبر ما ينتقدونه تأسيس الإخوان للنظام الخاص. وأنا لا أرى فيه خطأً أصوليا وإن كان قد أساء اسـتخدام الثقة فى بعض الحـالات. ولكن أريد به بعد تكـوين الجوالة التى تقف ما بين التدريب الرياضى والتدريب العسكرى الذى يكفل الشـباب نوعـاً من القوة والالتزام والنظام – تكوين كادر يكـون بمثابة "ضـباط" لهـذه الميليشـيا الشـعبية التى كان لابد من تكوينها لمجابهة إسرائيل وجيش الاحتلال (حوالى 80 ألف جندى فى القنـال والقـاهرة الخ... وقد صـحت تنبـؤات الأسـتاذ البنا وأدى متطوعو الإخـوان دوراً بارزاً فى مقاومة إسرائيل وأوقعـوا فيها الـرعب ولكنهم أخـذوا من سـاحة القتـال إلى معسكر الاعتقـال. ثم جـاء دور مجابهة الجيش البريطـانى عـام 1951 وكـان للفـدائى الإخوانى القدح المعلى فى الهجوم على المعسكرات البريطانية. فالنظام الخاص كـان له دور بارز وقد أداه، وإن كـان قد أسـاء الثقة فى بعض الحـالات ولم يؤسس النظـام الخاص للقيام بثورة أو إغتيـال أو تـدمير فـإن هـذا إن كـان وارداً، وحـدث فى حـالات نادرة – فإن الهدف العام الدائم هو بث روح الجندية والشجاعة فى الشعب. أما الثورة فهو دور التنظيم العسكرى فى الجيش الذى كان جمال عبد الناصر نفسه أحد أعضائه.

ونحن أنفسنا من نقاد الإخوان، ولكننا ننقدها بمعيار الواجب، لا بمعيار الواقع، ولأنها بدلاً من أن تبدأ من حيث أنتهى مؤسسها، فتكمل عمله فإنها – لظروف عديدة قـاهرة – وجـدت نفسـها وهى تنكص عما كـانت قد بلغته أيـام البنـا، ولكننا لا نملك لومها إذا وضعنا فى تقديرنا ما تعرضت له من اضطهاد أو ما مارسه على أعضائها زبانية السجن الحربى من تعذيب وما تقوم به الدولة – حتى الآن – من ملاحقة يومية..

إن إغفـال الـدور الميـدانى/ العملى فى مجـال التجديد الإسـلامى الـذى يتمثل فى إشاعة مبدأ "الإسلام كمنهج حياة" فى مئات الألوف من أعضاء الإخوان، ودفع الإسـلام إلى صـدارة المجتمع بعد أن ركنه دسـتور 23 فى ركن قصى وتربية عشـرات الألـوف من الشباب على الاستقامة والجدية والأمانة نقول إن هذا الإغفال هو السر فى تصـور بعض الذين يكتبون عن الـدعوات الإسـلامية أن حسن البنا يـأتى بعد رشـيد رضـا، وأن سلسلة الإصـلاح بـدأت بجمـال الأفغـانى ثم أخـذت فى عد تنـازلى مع محمد عبـده ثم رشيد رضا ثم حسن البنا، وهذا تبسيط مخل يعود لأن هؤلاء الكتـاب "كتـاب" يقيسـون الأثر بمدى تنظير أو أكاديمية من يترجمون له، فى حين أن هذا التجديد، ما لم يتطـرق إلى وجدان الجماهير وينتظم حياتهم فإنه يظل حبيسـاً بين الصـفحات ليجـول ويصـول فيه هـؤلاء الكتـاب! إن حسن البنا بـدأ فقهيا – حيث انتهى رشـيد رضـا. وكـانت خدمة رشيد رضا الثمينة أنه قدم إلى الإمام البنا الفقه الميسر نتيجة لعمل دائب قرابة ثلاثين عاماً، وقد بدأ حسن البنا حيث انتهى رشيد رضا، ولم يكن يعنيه أن يقـدم فقهـاً جديـداً لأن هدفه لم يكن هذا، ولو أراد وجعل هـذا هدفه فربما قـدم لنا مـذهبا خامسـاً بفضل سـعة أفقه ومرونة فكـره وإطلاعه على الفكر المـدنى. كـان حسن البنا رجل دعـوة – ولعله هو الذى صك هذا التعبير وأشـاعه "الـدعوة" وقد هـذب فى فقه رشـيد رضا بما يتلاءم مع دعوته الجماهيرية، ثم أخذ جانبا من "مدنية" إن لم يكن عقلانية محمد عبده بقدر ما يسـمح به مسـتوى الجمـاهير وأخـيراً "فإنه أضـاف" "القسـمة الجهاديـة" إلى دعوته، وهى القسمة التى عزف عنها محمد عبـده ورشـيد رضا فكـان بهـذا قريبـاً من جمال الأفغانى.

وقد ورث حسن البنا الإعجاب بجمال الأفغانى عن والده الـذى كـان عظيم التقـدير له وسمى باسمه أصغر أبنائه (كاتب هذه السطور) فضـلاً عن قراءاته الخاصة لأعمـال الأفغانى ولاتجاهه، ولكنه صاغ ثوريته فى تعبير إسـلامى "الجهـاد" الـذى لا يقتصر على القتال ولكنه أعم لأنه جهاد النفس.

وأخيراً فإنه يفضل الجميع (جمال الأفغـانى، ومحمد عبـده، ورشـيد رضـا) بأنه كـان منظماً قديراً وبهذا كون أكبر تكتل إسلامى منظم فى العصر الحديث تكتل جــذب إليه معظم طلبة الجامعات وأضـفى عليهم طـابع الجد والاجتهـاد وأجتـذب كل الشـباب من ذوى الأصــول الريفية بما فى ذلك الرؤسـاء الثلاث جمــال عبد الناصــر، والســادات، ومبارك ثم ترك بصمته على الهيئات الإسلامية التى جاءت بعد الإخوان المسلمين..

* * *

باستشهاد حسن البنا طويت فى مصر تلك المرحلة من التجديد التى رزقت تواصلاً وتكاملاً وأفادت من التراكم الإصلاحى وسارت على هـدى وبصـيرة وكـانت أشـبه بعقد نظيم تلألأت ماسـاته فى سـماء التجديد الإسـلامى، وإن تواصـلت فى بلـدين من دول آسيا: إيران وباكستان.

ماذا كان يريد حسن البنا..

كان حسن البنا رجلاً تربويا بفطرته وطبيعته وقد أراد الله له أن يـدخل دار العلـوم ليكـون معلما وعـبر عن أمله عنـدما طلب إليه مع بقية الطلبة أن يكتب موضـوعاً عن

أمله بعد التخرج فقال أن أمله أن يكون مرشداً معلماً يقضى سحابة اليوم فى تعليم الأبناء ويقضى الليل فى تعليم الأباء هدف دينهم ومنابع سعادتهم ومسرات حاجياتهم تارة بالخطابة والمحاورة وتارة بالتأليف والكتابة وثالثة بالتجول والسياحة.

وكان هدفه هو أن يكون الإسلام منهج حياة وكان عليه لكى يحقق هذا أن يقدم الإسلام مبلوراً، مبسطاً، مركزاً وهو ما فعله فى عدد من الرسائل الصغيرة أو المقالات، وأضرب مثلاً برسالتيه الهامتين. رسالة التعاليم ورسالة "مشكلاتنا السياسية فى ضوء النظام الإسلامى".

فى رسالة التعاليم أعتبر أن أول ركن من أركان بيعتنا هو "الفهم" وعرض هذا الفهم صورة للسلفية المبسطة التى أراد بها الجمع بين الأصول المتفق عليها، مع استبعاد ما أقحم على هذه الأصول من غشاوات أو إضافات أو تحكمات مذهبية فقال: إنما أريد بالفهم أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة و أن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز:

1- الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء .

2 - والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام ، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات .

3 - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

4 - والتمائم والرقي والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة .

5 - ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، و الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار و الحكم و المقاصد.

6 - وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالإتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص – فيما اختلفت فيه – بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا.

7 - ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الإتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وان

يتقبل كل إرشـاد مصـحوب بالـدليل مـتى صح عنـده صـلاح من أرشـده وكفايتـه، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

8 - والخلاف الفقهي في الفروع لا يكـون سـببا للتفـرق في الـدين، ولا يـؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مـانع من التحقيق العلمي النزيه في مسـائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصـول إلى الحقيقـة، من غـير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب.

9 - وكل مســألة لا ينبــني عليها عمل فــالخوض فيها من التكلف الــذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكـام الـتي لم تقـع، والخـوض في معـاني الآيـات القرآنية الكريمة الـتي لم يصل إليها العلم بعـد، والكلام في المفاضـلة بين الأصـحاب رضـوان الله عليهم وما شـجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صـحبته وجـزاء نيته وفي التأول مندوحة.

10 - ومعرفة الله تبـارك وتعـالى وتوحيـده وتنزيهه أسـمى عقائد الإسـلام، وآيـات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه، نـؤمن بها كما جـاءت من غـير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعــرض لما جــاء فيها من خلاف بين العلمــاء، ويســعنا ما وسع رسول الله وأصـحابه ﴿وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُـونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا﴾ {آل عمران:7}

11 - وكل بدعة في دين الله لا أصل لها ــ استحســنها النــاس بــأهوائهم ســواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

12 - والبدعة الإضــافية والتَّركِية والالــتزام في العبــادات المطلقة خلاف فقهي ، لكل فيه رأيه ، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

13 - ومحبة الصالحين و احترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبـارك وتعـالى، والأوليـاء هم المـذكورون بقوله تعـالى (الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُــونَ)، والكرامة ثابتة بشـرائطها الشــرعية، مع اعتقــاد أنهم رضــوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد ممـاتهم فضلا عن أن يهبـوا شـيئا من ذلك لغيرهم.

14 - وزيـارة القبـور أيا كـانت سـنة مشـروعة بالكيفية المـأثورة، ولكن الاسـتعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشيد القبور وسترها وأضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

15 - والـدعاء إذا قـرن بالتوسل إلى الله تعـالى بأحد من خلقه خلاف فـرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

16 - والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشـرعية، بل يجب التأكد من حـدود المعاني المقصود بها، والوقوف عنـدها كما يجب الاحـتراز من الخـداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

17 - والعقيـدة أسـاس العمـل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحـة، وتحصـيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاّ وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

18 - والإسـلام يحـرر العقـل، ويحث على النظر في الكـون، ويرفع قـدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنـافع من كل شـيء، والحكمة ضـالة المـؤمن أنى وجـدها فهو أحق الناس بها.

19 - وقد يتنـاول كل من النظر الشـرعي والنظر العقلي ما لا يـدخل في دائـرة الآخـر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصـطدم حقيقة علمية صـحيحة بقاعـدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالإتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

20 - ولا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ــ بـرأي أو بمعصية ـ إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كـذب صـريح القـرآن، أو فسـره على وجه لا تحتمله أسـاليب اللغة العربية بحـال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

وإذا علم الأخ المسلم دينه في هذه الأصول، فقد عرف معنى هتافه دائما (القـرآن دستورنا و الرسول قدوتنا).

وأريد بالعمل:

ثمرة العلم والإخلاص: ﴿وَقُلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ {التوبة:105} .

ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق:

1 – إصلاح نفسه حتى يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قـادرا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدا لنفسـه، حريصا على وقتـه، منظما في شؤونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته.

2- وتكوين بيت مسلم، بان يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسـلام في مظـاهر الحيـاة المنزليـة، وحسن اختيـار الزوجـة، و توقيفها على حقها و واجبها، وحسن تربية الأولاد، والخـدم وتنشـئتهم على مبـادئ الإسـلام، وذلك واجب كل أخ على حدته كذلك.

3 – وإرشـاد المجتمـع، بنشر دعـوة الخـير فيـه، ومحاربة الرذائل و المنكـرات، و تشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائما، وذلك واجب كل أخ على حدته، و واجب الجماعة كهيئة عاملة.

4 – وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي – غير إسلامى – سياسى أو اقتصادى أو روحى.

5 - وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة و أجير عندها وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة و لا عبرة بالشكل الذي تتخذه و لا بالنوع، مادام موافقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.

ومن صفاتها: الشعور بالتبعية، والشفقة، على الرعية، و العدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه.

ومن واجباتها: صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر التعليم، وإعداد القوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراسة المال، وتقوي الأخلاق، ونشر الدعوة.

ومن حقها - متى أدت واجبها - الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال.

فإذا قصرت: فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

6 - إعادة **الكيان** الدولي للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريب ثقافتها وجمع كلمتها، حتى يؤدى ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

7 – و أستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ {لأنفال:39}، ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ {التوبة:32}.

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة وعلى كل أخ باعتباره عضوا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها **مهمات**، يراها الناس خيالا ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبدا، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ {يوسف 21}. انتهى الاقتباس..

* * *

ومن الواضح بالطبع أن الإمام البنا احتفظ للسلفية بكل معالمها تقريباً، وأن استبعد منها الشوائب والغشاوات، وهو أمر إن كان يحمد له فى قضية الالتزام، فلا جدال أنه كان قيداً على حرية التجديد، كما نراها اليوم وأن مقارنة رسالة التعاليم بأصول الإسلام – كما قدمها محمد عبده تمثل مدى التزام حسن البنا. ومدى تحرر محمد عبده وإذا كان هناك تبرير فهو أن محمد عبده كان مفكراً حراً، ولكن حسن البنا كان زعيماً جماهيرياً، والزعيم الجماهيرى ملزم باتباع مستوى فهم جماهيره. محمد عبده كان يطلق آراءه وحسن البنا كان يطبق أحكامه، وهناك شقة كبيرة بين الفكر والتطبيق.

وفى رسـالته الهامة عن "مشـكلاتنا الداخلية فى ضـوء النظـام الإسـلامى" نظـام الحكم، يتحدث إلينا وكأنه ليبرالى من أبناء ثورة 19 ومن أنصـار دسـتور سـنة 23 فهو يشير إلى مسئولية الحكم – ووحده الأمة، واحترام إرادة الأمة – وهو يتحدث عن نظام الانتخاب وعيوبه فى مصر ويستشهد بكلام لمـيريت غـالى وللـدكتور سـيد صـبرى. كما ينتقد سياسة الأحزاب وأنه ليس لها مبادئ متميزة وأن رسالتها الوحيدة هى الحكم.

ثم يتحدث عن الناحية الاقتصادية فيشير إلى الاستغلال الأجنبى وإلى "ثراء فـاحش وفقر مدقع وتخبط اقتصادى الخ...".

وفى كل ما كتبه البنا، ورغم أنه هو الذى صك تعبير "الإسلام دين ودولـة" فلم تـرد أبـداً كلمة الحاكمية الإلهية ولا كـان يخطر فى باله الدولة الثيولوجيـة، وكـان أقصى ما وصل إليه الإخـوان هو الترشـيح مـرتين للمجلس التشـريعى دون توفيق فى المـرتين. مما يوضح أن همهم الأعظم كان هو الجـانب الـتربوى وأن الإمـام البنا عـرض الإسـلام كمنهج حياة فى رسـالة التعـاليم، ثم حـاول أن يطبق ذلك عمليا بالطريقة الطبيعية أن يبدأ الفـرد بنفسـه، ثم بأسـرته ثم تتسع الأسـرة لتسع الحى، ولمجمـوع الأحيـاء فيمثل المدينة، وعندما تتكرر يصبح هنـاك نسـبة كبـيرة تطبق الإسـلام على حياتها ويمكن عن الضرورة أن تضغط على الدولة لتطبيق ما تراه من قوانين الشريعة.

لم يضع جمـال الأفغـانى، ولا محمد عبـده، ولا رشـيد رضا منهجـاً مثل "الأصـول العشرين" أو تحديداً للدولة، لأنهم لم يكونوا "منظمين" ولكن مفكـرين، أما حسن البنا فكان بالدرجة الأولى منظمـاً، وهـذه هى ميزته بقـدر ما كـانت هى السـبب فى ضـبط فكرته بما يسمح به الواقع ومستوى الجماهير العريضة.

إن هذا المنهج وإن كان قد نجح فى تكوين "الإخوان المسلمين" كقلعة منيعة، فـإن أمـواج السياسة دخلت إلى عقر دار الإخـوان، ومن المسـلم به أن كل الهيئـات ما أن تبلغ من السـعة والانتشـار ما تعد معه هيئة قوميـة، حـتى يكـون لزاما عليها أن تحـدد موقفاً من السياسة العامة لأنها إذا لم تفعل فسـتحاول الأحـزاب اسـتلحاقها أو التـأثير عليها. وقد كانت الحركة النقابية البريطانية عنـدما نشـأت أشد الحركـات فنية وأكثرها بعداً عن "الدين والسياسة" ولكن عندما كبرت هذه الحركة وأصبحت ذات طابع قومى أصـبح لزامـاً عليها أن تسـهم فى القضـية العامة – فكـونت حـزب العمـال من قاعـدة الحركة النقابية دون أن يتقيد الحزب بالحركة النقابية وحـدها وإنما يضم كل من يـؤمن بدستوره ودون أن تتقيد الحركة النقابية نفسها بما يفعله الحزب.

نقول إن من الخفة والسطحية معالجة موقف الإخوان دون تقدير الاعتبـارات الـتى تظهر، وتضغط، ويعسر على الجماعة أن تتخلص منها، فضـلاً عن أنها – فيما يـرى – لا تخـالف مبادئها ولا جـدال فى أنه كـان خـيراً لو وقفت الحركة عند أساسـها الـدعوى التربوى وتخلصت من النشاط السياسى، ولكنها فيما يبدو لم تستطع.

ومن الظلم للحقيقة أن يظن أحد أن الإخوان قد دفعـوا ثمن أخطـائهم أو تـورطهم فى السياسة فالحقيقة أنهم دفعوا ثمن نجـاحهم بصـورة جعلتهم الكتلة الـتى يمكن أن تمثل التيـار الأول فى البلاد وأنهم وضـعوا فى قيـاداتهم عمـالاً ومعلمين إلـزامى فى الوقت الذى كانت قيادات الأحزاب مقصورة على الباشوات والبكوات الذين يتناقشون

بالفرنسية أو العربية مشاكل السياسة فى كلُـوب محمد على وأن السـلطة الحاكمة – سواء كان رأسها فاروق أو عبد الناصر أو السـادات أو مبـارك لا تقبل هـذا وتعمل بكل قوة لكبحها، وقد تمنينا من كل قلبنا أن لا ينشأ شقاق ما بين عبد الناصر والإخـوان لأن هـذا كـان يـؤمن حركة ضـباط الجيش من الانـزلاق كما كـان يحتفظ بقاعـدة الإخـوان المسلمين الشـعبية ذخـراً للبلاد.. وبهـذا كـان يكسب الجميع عبد الناصـر.. والإخـوان.. ومصر..

فإذا كان حسن البنا لم ينجح فيما هدف إليه من جعل الإسلام منهج حياة، فإنه قدم لنا الهيئة الإسلامية القياسية وما تتعـرض له الهيئة من مـآزق. وهـذا فى حد ذاته درس يـثرى ويعلم الهيئـات الإسـلامية، ويجنبها أن تقع فيما وقع فيه الإخـوان.. لو أن لهـذه الهيئات عقولاً تفكر وقلوباً تحس وتستشعر.

محمد إقبال
البحث عن السوبرمان الإسلامى

يشغل الدكتور محمد إقبال منزلة رفيعة فى حركة التجديد الإسـلامى. لقد كـان هو الأب الـروحى لدولة باكسـتان. وقد فكر فيها من سـنة 1930 عنـدما كـان محمد على جنة يعمل مع المـؤتمر الهنـدى وقد هـداه إلى هـذه الفكـرة حسه الإسـلامى العميق ووجدانه الإيمـانى كشـاعر صـوفى مسـلم، قـدر ما دعت إليه حساسـيته السياسـية وتقـديره لقيمة الحرية الدينيـة، وهى مشـاعر لم تكن موجـودة لـدى "جنـة" ومجموعة السياسيين الذين ولـوا أمر باكسـتان ويضم دوره فى التجديد مجموعـات المحاضـرات التى ألقاها والعـدد الكبـير من الـدواوين الـتى بعث فيها الـروح الإيمانية وأهم من هـذا كتابه "إعادة بناء الفكر الدينى" وهو بالطبع محاولة مباشرة للتجديد الإسلامى.

لقد كـان أجـداد إقبـال من طبقة البراهمة وهى أعلاً درجة فى التقسـيم الطبقى الهنـدوكى. ولكن أحد أجـداده اعتنق الإسـلام عن إيمـان وإخلاص، وضـحى فى هـذا السبيل بامتيازاته الطبقية وبلقب "باندت" غير آسف. وهذا الوفاء للإسـلام والإيمـان به انتقل إلى أبنائه حتى وصل إلى والد إقبال الذى كان مسـلماً نموذجيـاً فى تعليمه لابنه فقد حرص على تعليمه القرآن. وكان إقبال الطفل يقرأ القرآن كل صباح وكـان والـده يسأله ماذا يفعـل.. فيقـول أقـرأ القـرآن، وظل الوالد يسـأل هـذا السـؤال وابنه يجيب بالإجابة نفسها حتى سأل أباه "لماذا تسألنى كل يوم وتسمع الإجابة نفسها؟ **فقال له إذا أردت أن تفهم القرآن فـاقرأه كأنما أنـزل عليـك"** وهـذا التوجيه الـدقيق جعل نظرة إقبال تتجدد كلما قرأ القرآن. كأنما أنزل إليه وحالت دون أن يفهم القـرآن عبر التفاسير لأن من أنزل عليه القـرآن لا يلتفت إلى التفاسـير فشـغل عقله التفكـير فيه، وتدبره وتملك وجدانه وأصبح "خلقه قرآنيا"..

وفى مناسبة أخرى شاهده والده، وكان صبياً وهو ينهال على سائل بعصا أسقطت كيس السائل فتناثر كل ما كان بها. وشـاهده والـده فتـألم وخـرجت من شـفتيه آهـات وقـال يخاطبـه.. "تجتمع أمة خـير الرسل يـوم القيامة ويصـرخ هـذا المسـكين البـائس بصـوته المتـألم وسط جميع النـاس من الشـهداء وأولى العلم والزهد وأربـاب الصـفا

والقلوب للعدل والإنصاف. فكيف تبرر هـذا الخطأ أمـام اللـه؟ ومـاذا أقـول لو سـألنى رسـول الله لقد وهبك الله طفلاً مسـلما، ولكنك ما أحسـنت تأديبه وتوجيهه ولم تهـده إلى الصراط المسـتقيم لكى يصبح إنسـانا صـالحا؟ فتـذكر يا بُـنىّ، عتـاب النـبى يـوم القيامة حين يلقى على نظرة غاضبة ولائمة" فمن الضرورى أن تلتزم بأخلاق الرسـول الحسنة، وتتبع خطواته عند التعامل مع النـاس، لأنه كـان على خلق عظيم، إنك يا بُـنى بـــرعم من غصن الرســـول فصر وردة من نســـيم ربيعه وأنت كـــذلك بلبل من روضة الرســول. فاصــدح بلحن تهــتز وتبتهج به القلــوب والأرواح، كن نجما ســاطعا فى كبد السماء حيث تقتبس نورك وضياءك من شمائل الرسول العطرة.

بهذه الطريقة التى ضرب لها المثل بالرسول وجعله يتصور يوم الحســاب، واعتـبر أنه "بـــرعم" من غصن الرســـول وروضة الخ... إلى آخر هـــذه الأمثلة والتشـــبيهات الوجدانية الرفيعة الــتى أنغرست فى نفس إقبـال الفــتى وظلت مصــاحبه له طــوال عمره، وتغنى بها فى شعره.

وكـانت أمه سـيدة نقيـة، ورعـة، ذات روحانية وعنـدما تـوفيت سـنة 1914 رثاها بقصيدة فى ذكرى الأم الراحلة جاء فيها "كـانت حياتك صـفحة ذهبية متألقة فى سـماء الكون وبفضل تربيتك أصبحت ساطعا مثل شجرة السرو".

ويماثل تأثر إقبال بأبويه تأثره بأسـتاذيه مـولاى أمير حسن وسـير تومـاس أرنولـد. والأول من هـذين مـولاى أمـير حسن هو الـذى أشـرف على توجيهه الثقـافى والأدبى ورعاية ملكته الشعرية، وتحويله من النظم بالبنجالية إلى النظم بالأوردية، وكان إقبـال شديد التقدير له وعندما ارتأت الحكومة البريطانية الإنعـام عليه بلقب "سـير" اشـترط لقبوله أن تنعم على أستاذه بلقب "شمس العلمــاء" ولما احتجت الحكومة بأنه لم يقم بتأليف كتاب قال إقبال أنه هو نفسه كتاب أمير حســن، وكفى به كتابا وقبلت الحكومة البريطانية هذا التبرير وأسبغت عليه اللقب..

أما أستاذه الآخر فهو سير توماس أرنولد، وهو من البريطانيين القلائل المتعاطفين مع الإسلام ومع الهنود وروى الدكتور عبد الوهـاب عـزام فى كتابه "محمد إقبـال" عنه "وكـــان – أى أرنولد – يحب العـــادات الإســـلامية ويميل إلى أزيائنا وســـننا، أذكر إنى تعشيت معه فى داره فبدا الطعام قائلاً باسم الله، وودعنى حين الانصـراف قـائلاً فى أمان الله، وجاء إلى مصر بدعوة من جامعة القاهرة وآثر النزول فى حلـوان، وهى دار إقامتى ثم انتقل إلى المعادى وكنت أقابله بين الحين والحين وكان يـزورنى فى ليـالى رمضان التماسا لسماع القرآن، وذهبت إليه مرة فى الفندق الذى نزل فيه فى حلـوان فأخرج من حقيبته عمامة وطربوشا".

وقد استكشف أرنولد ملكـات إقبـال عنـدما انتظم فى الكلية الحكومية فى لاهـور الــتى حـاز منها درجة البكـالوريوس سـنة 1897 بتقـدير مرمـوق، وبخاصة فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية، وقامت علاقة صداقة وتقدير ما بين الأستاذ وتلميذه.

وهكـذا فـإن التربية فى عهد طفولته من أب وأم مؤمـنين إيمانـاً وجـدانياً عظيمـاً، وأستاذين رشيدين كفلت له الأساس النفسى والسيكولوجى وسيرت له السـبيل الـذى كان مهيئاً له.

درس إقبال – بعد دراسته الأولية للقرآن مبادئ الدين ثم تعلم الفارسية على يـدى أستاذه مولاى أمير حسن وعندما ذهب إلى إنجلترا بتوصية منه ليـدرس فى كامبريـدج شق عليه الفراق وقال فى إحـدى رباعياته "أين أنت أيها الكليم من. ذرا سـينا" قسـما إن كان فى رؤوسنا غـرام متـأجج بـالعلم والمعرفـة، فـإن ذلك كـان بفضل شخصـيتك البارزة.

ويظهر لنا أثر سـير تومـاس أرنولد على إقبـال من تلك الحادثة الـتى قصـها زميله السير عبد القادر عندما اعتزم إقبال أن يهجر الشعر ويخصص وقته لما هو أكثر فائدة، واعترض السير عبد القادر بأن شعره يقوم بدور عظيم فى الإصـلاح يقـول السـير عبد القادر "أقمت فى لندن سنتين من السنوات الثلاثة التى أقـام فيها إقبـال فى إنجلـترا، وفى أكثر الأحيان كنا نلتقى ونتحدث عن مواضيع شـتى ففى ذات يـوم قـال لى إقبـال لقد صممت على عدم قرض الشعر بل وعلى ترك الشاعرية كلية، وأقسمت بالا انظم آية قصيدة فيما بعد، وبدلا من ذلك أصرف ساعات قرض الشعر فى تحقيق عمل مفيد آخر فقلت له إن قصائده ليست من القصـائد الـتى يجب تركها لأن لها تـأثيراً يمكن به علاج شـعبنا المضـطهد وبلادنا المشـئومة، ومن ثم لا يكـون من المعقـول ألا تسـتخدم هــذه الموهبة الشــعرية النافعة لصــالح الإنســانية، فــتردد إقبــال وأصــبح حــائراً بين المنزلــتين، أى بين قبــول فكــرتى ورفضــها، فقررنا أن نفصل فيما بيننا حسب رأى البروفيسور آرنولد المؤقر، لو اتفق هو معى فعلى الشاعر أن يبـدل رأيه مسـتمرا فى معالجة الشعر، ولو اختلف مع رائى فيكون من الأحسن أن يـترك شـاعريته. اعتقد أنه كان من حسن الحظ لعالمنا الأدبى والعلمى أن آرنولد قد اتفق مع رائى وقال: لا يجوز لإقبـال أن ينصـرف عن شـاعريته لأن الأوقـات الـتى يصـرفها فى معالجة الشـعر هى حقيقة فى صالحه وفى صالح قومه ووطنه معا.

حققت السـنوات الـتى أمضـاها إقبـال فى أوروبا لفلسـفته النضج واسـتكملت لها الجــانب العلمى وقد درس أعمــال نتيشة وهيجيل وكــان الــذى اشــرف على رســالة الماجستير عن فلسـفة الأخلاق واحد من أبـرز تلاميذ هيجـل، وعمقت هـذه الدراسـات من فكـره الإسـلامى ولم تزحزحه أو تجعل وسـاوس الشك تسـاوره. وقد كـانت تربية إقبـال تعصـمه من ذلـك، ونحن نـرى فيها الأثر الحسن للعلاقـات الأسـرية المسـتقرة القائمة على إيمان وإخلاص وكذلك تأثير أستاذيه اللذين مثلاً "القـدوة" وهـذه المعـانى هما مما لا نجد لها مـــــثيلاً فى معظم النخب العربية فى الحقبة الحديثة الـــــتى نجد الشكوك تهز الثقة وتعصف بالإيمان ولا يكون للأسـرة أو الأسـاتذة إلا أثر بـاهت يـزول عند صدمة الانبهار، كان إقبال إنساناً مؤصلاً، وجعله ذلك يستوعب الثقافة الحديثة دون أن يغفل نـواحى القصـور فى الحضـارة الأوروبية وبوجه خـاص التركـيز على الجـانب المـادى حـتى لقد قـال "أن أوروبا هى اليـوم أكـبر عـائق فى سـبيل الـرقى الأخلاقى للإنسانية (تجديد الفكر الدينى – الترجمة العربية ص207 – 208)

وعنـــدما عـــاد اشـــتغل حينا كأســـتاذ فى الجامعة ولكنه ســئم الوظيفة واشـــتغل بالمحاماة بعد أن حصل على لقب "باريستر" وهو المحامى المتخصص فى المرافعـات وانهمك مع هـــذا فى إلقـــاء المحاضـــرات فى الهيئـــات العامة وعُـــنى بقضـــية التعليم واكتشف فى مرحلة مبكرة الأثر المـــدمر للمعاهد الدينية التقليدية مثل مدرسة ديابوند وندوة العلماء فى لكنو وتحدث عن خريجها "لقد كتموا أنفاسك فكيف يمكن أن تردد لا إله إلا اللـه" وفى بيت آخر يـارب أشـكو إليك المـدارس الدينية الـتى تعلم "شـواهين" الطلاب دروس الخضوع والاستخذاء" ولكنه كان ناقداً للحضـارة الأوروبية وفى الـوقت نفسه ناقداً للتربية الدينية التقليديـة، وأشـار فى محاضـراته المتعـددة إلى ما يجب أن يكـــون عليه الفكر الإســـلامى وقد جمعت المحاضـــرات فى كتابه "إعـــادة بنـــاء الفكر الدينى" الذى يعد مساهمة مباشرة وإضافة ثمينة فى التجديد الإسلامى.

وكانت سنواته الأخيرة هى سنوات المجد، وهى أيضاً سـنوات الكـوارث فقد انتابته الأمـراض واحـدة بعد أخـرى ومـاتت زوجته الحبيبـة، ثم تـوفى أخلص أصـدقاء "نـاس مسعود" وكاد يفقد بصره ولكنه كان يردد أنه يلقى الموت بابتسامه.

* * *

من الأمور التى تستحق الإشارة. والتى تصـور الأثر الضـخم للـروح التقليدية حـتى على شخص مثل إقبال موقف إقبال من المرأة. لقد تضـافر على اتخـاذ موقفه صـفته الشاعرية التى غلبت عليه فجعلته يرى المرأة رمزاً للأمومة المقدسة وعنوانا للجمـال والرقة والحنان – واتفق هذا الاتجاه مع الاتجاه الإسلامى التقليـدى الـذى يقـاوم فكـرة "تحرير المـــرأة" والمطالبة بحقها فى التعليم والعمل والاختلاط والنشـــاط السياســـى، ولهذا لا نجد فى كتاباته الإصلاحية إشارة إلى قضية المـرأة.. ولكننا نـرى الإشـارة إليها فى كثير من أشعاره وهو يرفض حتى العلوم إذا ذهبت بأنوثة المرأة.

وقيل إن الحكومة البريطانية عرضت عليه منصب نائب الملك فى جنـوب أفريقيـا، وكان من مقتضـيات هـذا المنصب أن تظهر زوجته بجانبه سـافرة بـالطبع فى الحفلات للقاءات الرسمية وقد رفض إقبال هذا العرض لأنه على ما ذهب إليه البعض يتنافى مع التقاليد الإسلامية المقدسة.

نعم نحن نفهم حساسية قضية إصلاح أوضاع المرأة فى مجتمع إسـلامى، وأنها آخر القضايا قبولاً، وأنه من الطبيعى أن يقف إقبال هذا الموقف فـإن سـاعة تحرير المـرأة لم تكن قد حانت. على أن إقبـال لم يفقد الإحسـاس بظلم المـرأة، ولكنه رأى أن تلك هى قسمتها من الطبيعة.

كذلك فى فؤادى للنساء أسى   لكنها عقدة أعيت على الحيل

فوقف كما وقف شوقى عندما خاطب المرأة رامزاً لها بالكنار داخل قفص ذهبى..

أنت ابن رأى للطبيـــعة   فيك غيـــر مبدل

إن طرت عن كنـفى وقعت   على النسور الجهل

وشوقى لم يقف عند هذا، ولكنه سار فى اتجـاه حركة تحرير المـرأة لأن إحساسه الـدينى لم يكن من العمق بحيث يحـول دون ذلـك. أما إقبـال فعجز عن ذلـك.. وهو ما يصور مدى عمق هذه المسـألة وأنها لم تقهر حاسة الظلم، ولم تفد من علـوم الغـرب الـــتى اســـتوعبها إقبـــال لأن التعامل مع المـــرأة لم يكن بلغة المنطق والعقل ولكن بمنطق التقليد والعادات..

والحقيقة أن أحـداً من المصـلحين (باسـتثناء قاسم أمين) لم يعن بقضـية المـرأة العناية الواجبة أو يعالجها بصـراحة وحسـم، وقد روى عن جمـال الأفغـانى أنه قـال لا بأس بالسفور إذا لم يكن مطبة للفجور، وقال هـذا عنـدما كـان الحجـاب يخـبئ وجـوه المـرأة المسـلمة فى كل مكـان. كما ينسب إلى الإمـام محمد عبـده تشـجيعه لقاسم أمين. ولكن باستثناء ذلك لا نجد إلا المعالجات التقليدية التى تتحـدث عن دور الإسـلام فى رفع شأن المرأة دون أن تذكر دون الفقهاء فى الخسف بها أسفل سافلين..

* * *

كان إقبال يطمح إلى إعادة بنـاء التفكـير الإسـلامى كما يـدل على ذلك اسم كتابه تجديد التفكير الدينى فى الإسلام[12]. وكان قديراً على ذلك فقد رزق من المـؤهلات ما كان يمكنه من القيـام بـذلك. ولكنه لم يحقق هـذا عمليـاً، وما جـاء فى كتابه إنما يمثل المادة التى كان يمكن إقامة البناء بها أما هندسة هذا البناء والأساس الـذى يقـوم عليه فهذا ما لم يقـدر له القيـام به على وجه التحديـد، وكـان يمكن لاتباعه أن يبـدءوا حيث انتهى، وأن يستكملوا ما لم يتمه، ولكن هذا لم يحـدث أيضـاً بل إن أمله السياسى فى قيام "باكستان" الذى تحقق بعد وفاته بسبع سنوات لم يـأت كما تمـنى ووقعت الدولة الناشئة فى يد سياسيين أذكياء مثل "جنة" ولكنهم لم يتمثلوا "المشروع الإسلامى" ثم سقطت فى أيـدى جـنرالات لا يتمـيزون بكفاية خاصـة، بل كـانوا أقل من أقـرانهم فى الدول الأخرى.

نعود إلى مشروع إقبال فى إعادة بناء الفكر الإسلامى، ولدينا مادة هذا البناء فى أبواب وفصول "إعادة بناء الفكر الدينى" فهناك الإسلام كقاعدة للدولة والمجتمع ولضبط الفرد وهدايته.. وبالطبع فإنه كان يفهم الإسلام فهما ساميا عميقا متحرراً من تلك القشور والغشاوات التى أهالها الأسلاف لأنه كان – كما أشرنا – ينظر إلى القرآن الكريم كما لو نزل عليه. فكان فهمه للإسلام قرآنيا بالدرجة الأولى فيه حيوية وديناميكية وشمول القرآن الكريم وبعد القرآن يأتى الفرد، وكان إقبال كمفكر، يؤمن بالفرد، وحريته، واستقلاله. وأنه هو اللبنة الحقيقية الصلبة فى المجتمع. كان إقبال خلال دراسته وبفضل اتجاهاته النفسية والمزاجية يبحث عن السوبرمان الإسلامى. وقد ألم بالطبع بسوبرمان نيشة "الوحش الآرى الذى لا يعرف الرحمة" ونبذه تماماً ووجد السوبرمان المسلم فى كلمات عبر فيها عن تصوره "المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا

---

[12] **(12) طبع الكتاب بالإنجليزية وترجمه إلى العربية الأستاذ عباس محمود وراجع مقدمته والفصل الأول الأستاذ عبد العزيز المراغى وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدى علام ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1955**

يرد" وافترض فى هذا السوبرمان الخلائق الإسلامية من عزة وكرامة، وعمل ومعرفة واتقان وإيثار وتقوى وعدل ويعد عن الظلم، والكذب والشهوات.. وكان كل بيت من شعره يضع قسمة من قسمات هذا الفرد – هذا الإنسان الذى هو "فى كل عصر ساقى أهل الذوق، وفى كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق وسيفه مسلول فى كل معركة" "أن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى. فلا تزال طالعة".

إن صورة "السوبرمان الإسلامى" التى قدمتها كلماته تمتزج فيها آفاق الشعر والخيال.. بوقائع الحال ولكنه عمليا كان يراه فى الرسول ثم خلفائه وصحابته الأدنيين من صدق النية وعلو الهمة والشجاعة والعزوف عن متاع الدنيا أو الاستسلام للشهوات وفى بعدهم عن السفسطة فى القول والسفساف فى العمل، فهؤلاء وضعوا عمليا صورة لما يكون عليه "السوبرمان" الإسلامى. وهو بهذا يتلاقى مع النص القرآنى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

بعد هذا نجد إقبال ينهل من كل ثقافات العصر بلا حرج، ولكنه كان من الذكاء بحيث رأى الأثر السيئ للفلسفة اليونانية، والمنطق الأرسطى على الفكر والفقه الإسلامى وقد انتقد سقراط. وأفلاطون من القدامى كما انتقد شوبنهور ونيتشة وهيجيل وبرجسون، وكان يرى أن الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة وواضح أن الفلسفة الأوروبية بعيدة كل البعد عن القلب، وكتب إلى أحد المفتونين بالفلسفة الأوروبية "إن الفلسفة ليست إلا حجابا للحقيقة وأنها لا تزيد صاحبها والذى يقترن بها إلا بعداً عن الحقيقة وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل. هذا هيجيل الذى تبالغ فى تقديره ليس إلا صدفة خالية من اللؤلؤ".

وإنما قال إقبال هذا لأنه كان يؤمن باقتران الفكر بالعمل الذى يحول دون أن يشط الفكر فى متاهات الافتراضات والتنظيرات التى يتعصب لها أصحابها أكثر مما تحمل موضوعاً، لأن معالجة كل فيلسوف للموضوع هو ما يميز فلسفته، فليس الموضوع هو إلهام وإنما طريقته فى المعالجة. والذى ظفر منه بالتقدير هو الأسلوب التجريبى الذى اتسم به الفكر الإسلامى والذى كان الهدية العظمى التى قدمها العلماء المسلمون إلى أوروبا، والتى تعد من أسس نهضتها الحديثة..

من هنا كان إقبال ينظر إلى المعرفة نظرة عمليه تجعل الفكر فى خدمة الحياة، وكان هو السبب الذى جعله يعزف عن الفلسفة الأوروبية ويأخذ بالفلسفة القرآنية/ النبوية التى يتلاقى فيها الفكر بالعمل.

وعندما جوبه بقضية الدولة، عاد إلى تركيا التى كانت كالهند تضم شعوباً عديدة، فرأى أن فكرة القومية والوطنية التى رفع لواءها ضباط الاتحاد والترقى "لا تصلح" وقارنها بالاتجاه الإسلامى الذى كان على رأسه الأمير سعيد حليم ووجد أن الإسلام يمكن أن يجمع معظم العناصر التى تكونها تركيا فى حين أن القومية لا تبقى إلا على الأتراك، وتستبعد الأجناس الأخرى، وهذا المعيار هو ما يمكن أن يستخدم فى الهند،

ولكن بشـــكل مختلف هو أن تكـــون للأقلية المســـلمة دولة تقـــوم على الإســـلام هى باكستان.

هل كان هذا الاجتهاد سليما؟ لقد أرتضى إقبـال هـذا لغلبة الـروح الإسلامية عليـه، ولإيمانه بالتعصب الهندوكى مما كان سيجعل حياة المسلمين جحيماً..

أو هل كـــــان الأفضل أن تتحد الأقلية الإســـــلامية مع الأغلبية الهندوكية لإقامة هند ديمقراطية كما كان يريد ذلك الزعيم الهنـدى المسـلم أبو الكلام آزاد الـذى كـان يـأتى بعد غاندى ونهرو فى قيادة حزب المؤتمر..؟ لقد استبعدها المودودى وإن لم يستبعدها أبو الحسن الندوى.

نحن لا نسـتطيع أن نحكم، لأن المـوت اسـتأثر بإقبـال قبل أن تقـوم الدولة الـتى تمناها والتى تلقفها سياسيون محترفون.. وليسوا ملتزمين وليس هذا ذنبـه، ولا هو مما يحاسب عليه..

على شريعتى
نعم للتشيع العلوى. لا للتشيع الصفوى

إن حديثنا الطويل السابق عن المجـددين فى الإسـلام يجب أن لا ينسـينا أن هنـاك محاولات جادة للتجديد جاءت من الضفة الأخرى لنهر الإسـلام – أعـنى الشـيعة الـذين انعزلوا عن السُنة لأسباب كانت سياسية بالدرجة الأولى، ولكنها استطاعت أن تغـرس فى العقيدة الشيعية أفكاراً أبعدتها عن النظرة السُنية، ثم تأثرت بالمصـالح والأطمـاع. حتى احتدمت العداوات ونشبت حروب دامية بين الطائفتين المؤمنتين. دون أن يجـدوا من يصلح بينهما بالعدل كما وجهنا القرآن فى الآية 9 من سـورة الحجـرات وأدت هـذه العداوات لأن تتجذر الدعوة الشـيعية فى خراسـان (فـارس – إيـران) الـتى وإن خلقها الإسلام خلقاً جديداً وأعطاها الدين واللغة والقيم الخ... إلا أنها احتفظت بتراثها القديم ولم تتخلى عن لغتهـا، ولكنها احتفظت بها مع بقـاء العربية لغة الفكر والكتابـة. كـانت فـارس هى المنطقة البـارزة (لأن الأتـراك أيضـاً احتفظـوا بلغتهم، ولكن ليس لهم من المساهمة فى الإسلام ما لفـارس) الـتى ظلت عنـدما دخلها الفتح الإسـلامى محتفظة باستقلالها وتراثها وجذور الحضارة الفارسية العريقة، والتى حدثت على أرضـــها الجولة الأولى، من الصـــراع ما بين الغـــرب والشـــرق عنـــدما غزاها الإســـكندر ولكنه تركهـــا، فاستعادت كيانها القديم. وكانت فارس تختلف فى هذا عن الشام ومصر اللتين خضعتا للغزو الرومانى/ البيزنطى وفقدتا استقلالهما ولغتهما أيضا. فعندما جاء الفتح الإسلامى حلت اللغة العربية محل لغة الفاتح المستوردة. ومع احتدام العداوات أخذت الشخصية الفارسية تعظم على حساب الشخصية الإسـلامية/ العربية ووجـدت فى التشـيع غطـاءً مـذهبياً يعطيها المقـوم العقيـدى وتكلل هـذا بظهـور الدولة الصـفوية وضـخمت فيه وأضافت إليه من الأقوال والدعاوى ما أرادت به أن تحصـنه من غـزو المـذهب الحنفى الذى كانت تتبناه عدوتها اللدود الدولة العثمانية.

وتطورت الأحوال بإيران بعد الدولة الصفوية، وظهـرت أسـرة فاجـار وتعرضت لعدوان جارتها القوية روسيا، وللأطماع الاقتصادية لبريطانيا وأخذت سـحب الاسـتعمار تظلل أجـواء إيـران، كما ظهـرت الأفكـار الشـيوعية مع ظهـور البلشـفية فى روسـيا وتعددت دعوات الإصلاح وحركـات المقاومة وتبلـورت أخـيراً فى حركة دسـتور 1905 الذى يطلق عليه فى الكتابات الإيرانية "المشروطة" وكان هذا الدستور يعطى الشعب حق انتخاب نواب يمثلونه فى مجلس تشـريعى يضع القـوانين، كما كـان ينص على أن إيران دولة إسلامية شيعية، وأن العلماء والمراجع يستشـارون عند وضع القـوانين وأيد معظم المراجع وآيــات الله حركة الدســتور وإن وقفت قلة موقفا ســلبيا، أو أخــذت بمخادعات الإمـبراطور ونجد أكـبر إقامة للحكم الـديمقراطى على أسس من العقيـدة الشيعية فى كتاب الشيخ محمد حسين النائينى "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" الذى دعا فيه إلى تقييد سلطة الحاكم عن طريق الدستور الذى يجعل الشعب يشارك فى السـلطة. ونجد عنده أقوى دفاع عن الديمقراطية قدمه آيات الله باستثناء طلقانى الذى سيظهر بعـــده، وقـــال "إن الديمقراطية جـــائزة أو واجبـــة، من بـــاب مقدمة الـــواجب، لأن الديمقراطية سـبب للرفـاه والتقـدم والأمن. وكـذلك من بـاب الأحكـام الثانويـة، وإن النواب خبراء فى السياسة وينتدبون لتحديد القوانين الثانوية. ومن باب الأمور العرفية، وإن النـواب ينظمـون القـوانين خـارج دائـرة الشـرع. ومن بـاب الـدفاع عن الـوطن الإيرانى" [13]

كان يمكن أن تُتابع هذه البادرة لولا ظهور رضا شاه العسـكرى الفظ الـذى طـوى هذه الصفحة بحكمه العسكرى الذى بسط إرهابه طوال مدة حكمه.

فى هــذه الأجــواء ظهر أبــرز مفكر حــاول أن يحقق تجديــداً جــذريا ما بين الفكر الشيعى وما بين ما تفرضه ضرورات العصر ذلكم هو على شريعتى..

فى الفترة التى ظهر فيها على شريعتى، ظهرت أفكار وبرز رجـال أرادوا الإصـلاح، وكان بعضهم من آيات الله والمراجع الكبار مثل طالقانى ومثل النـائينى ومثل شـريعة مدارى آمنوا بأن الحكم الديمقراطى هو الحل الحقيقى لمشكلة الحكم، وأنه لا يتنـافى مع أصول الفكر الشيعى ولكنهم كانوا يعجـزون عن تصـور ما يقتضـيه ذلك من أوضـاع تفصـيلية، أو تغيـيرات فى جـوانب المجتمع كما لم يكن لـديهم تصـور واضح دقيق عن مـدى تعقيد مقتضـيات العصر الحـديث. كما كـان فيها رجـال من "الانتلجنسـياً" ما بين محامين وأدباء ومفكـرين ومهندسـين مثل "مهـدى بازركـان" الـذى عهد إليه الخميـنى بالحكومة الأولى عقب نجاح ثورته. ومثل بنى صدر الذى عين رئيساً للجمهورية وهـذه المجموعة كـــانت تـــؤمن بفهم يتمشى مع مقتضـــيات العصر – مع احتفاظها بالخط الشـيعى الرئيسـى، ولكن دون التعمق فى فقهيـات الإمامة وما تحفل قواعد المراجع من أحكام ونقول الخ...

[13] (13) تطور الفكر السياسى الشيعى: من الشورى إلى ولاية الفقيه: أحمد الكاتب دار الجديد بيروت ص409

وكان المطلوب رجلاً يستوعب ثقافة العصر الحديث ويحكمهـا، وفى الـوقت نفسه يوظفها لخدمة القيم والمثل العليا الإسلامية، وأن يتجـاوز بطريقه مـا، ما يقـرره الفكر الشيعى من أحكام وضعها الفقهـاء فى ظل عهـود وبحكم ظـروف – تختلف تمامـاً عن العهد الحديث وظروفه..

وقد حل على شـــريعتى هـــذه المعادلة بـــان فـــرق ما بين التشـــيع الصفوى.. وما بين التشـيع العلـوى واعتـبر الأول صـادراً عن الصـفويين وبحكم السـلطة وأنه المسـئول عن الكم الـرهيب من الخرافـات الـتى ألصقت بـالفكر الشـيعى.. وأن المفـروض هو العـودة إلى الفقه العلـوى فقه على بن أبى طـالب والحسـين.. وأجـرى تميـيزاً واضـحاً ما بين الاثنين..

وكـانت هـذه أول مجابهة للفكر الشـيعى، وأول تفرقه ما بين فكر صـفوى وفكر علوى، وأبـرز محاولة للتخلص من الفكر الصـفوى الـذى قـامت عليه كتابـات وأدبيـات وتقاليد وأوضاع وأحكام وتصورات اعتبرت أنها من صميم الفكر الشيعى وما يميزه عن الفكر السُنى..

كان لدى شريعتى من الصفاء الذهبى والتمكن الثقافى والإخلاص ما جعل كتاباته ودعوته تجد من الشباب آذانا صاغيه.

[ولد على شريعتى فى ديسمبر عام 1933 فى قرية قريبة من مدينة مشـهد فى محافظة خراسان وكان أبوه محمد تقى الدين شريعتى مفسراً للقرآن وكاتباً معروفـاً ومناضلاً فى الحركة الوطنية ومؤسسا لمركز نشر الحقائق الإسلامية.

عنـدما كـان طالبا فى المدرسة الثانويـة، نشط ضـمن التيـار الـذى قـاده الـدكتور مصدق. فى عام 1954 واسـتمر ينشط ضـمن تواصل ذلك التيـار إذ أصبح عضـواً فى حركة المقاومة الوطنيـة، الـتى أسسـها آية الله زنجـانى وآية الله طالقـانى ومهـدى بازركـان وبعد تشـتت الحركة بسـبب القمع العـام 1958 سـجن شـريعتى لمـدة سـتة أشهر.

بعد تخرجه من الجامعة بدرجة امتيـــاز، فى الأدب أرسل فى بعثة دراســـية إلى فرنسا عـام 1959 وهنـاك واصل نشـاطه السياسى إلى جـانب دراسـته فأسس فـرع أوروبا لحركة تحرير إيران، التى أنشأها بازركان والطالقانى فى عام 1961.

فى فرنسا درس الأديـان وعلم الاجتمـاع والأدب، وحصل على شـهادتين للـدكتوراه فى تأريخ الإسلام وعلم الاجتماع، وبدأ هناك بنشر بعض دراساته عن الإسـلام بـاللغتين الفرنسـية والفارسـية، كما تـرجم عن الفرنسـية كتـاب لـويس ماسـينيون عن سـلمان الفارسى.

فى فرنسا أيضـاً، كـان من أبـرز النشـطاء فى دعم الثـورة الجزائريـة، وتنظيم التظـاهرات ونشـاطات التضـامن معـا، ومن هنـاك تراسل مع المفكر المعـروف فرانز فانون، وترجم للفارسية قسماً من كتابه "معذبو الأرض".

ظل على شـريعتى مناضـلاً من أجل تنظيم الحركة الإسـلامية فى الخـارج، ولعب دوراً فى تكوين النوى الأولى للجمعيات الإسلامية للطلبة الإيرانيين فى الخارج متعاوناً فى ذلك مع أبى الحسن بنى صدر وحسن حبيبى وآخرين.

فى منتصف السـتينات، قـرر العـودة إلى إيـران وكـانت نتيجة تلك المخـاطرة أن أعتقل على الحدود ثم أطلق سراحه بعد فترة وعين مدرساً فى جامعة مشهد، وبعدها فى جامعة طهران.

وفى عـام 1969 تـأسستفى طهـران حسـينية الأرشـاد لتصـبح بعد فـترة مركـزاً لنشـاطات على شـريعتى حيث قـام بإلقـاء محاضـرات منتظمة حـول الإسلام وتـأريخ الشـيعة، مبلـوراً من خلالها منظومة أفكـاره حـول الإسـلام والـتى أراد منها تصـحيح مفاهيم سائدة خاطئة عن الإسلام كما أراد منها شـحذ الإسـلام سـلاحاً للتعبئة الفكرية والسياسية فى أوساط الشباب وقد أسس شريعتى فى حسينية الإرشـاد خمس لجـان لتطـوير النشـاطات فى مجـالات: تـأريخ الإسـلام، تفسـير القـرآن، الأدب والفن، اللغة والأدب العربى واللغة الإنجليزية. كما نظم مسرحية عن ثورة "سربدران" التى حــدثت فى إيران خلال القرن الثامن الهجرى.

التف حول حسينية الإرشاد ونشاطاتها جيل كامل من الشـباب، وكـانت محاضـرات شريعتى تطبع كراريس وتسجل أشـرطة لتـوزع بـالآلاف فى كافة أنحـاء إيـران. إلا أن نشاطاته اصطدمت بمعارضة فئة من رجال الدين، فشنوا على شريعتى حملات تشهير ظالمة واتهموه بالبهائية والوهابية والزندقة و... ونشروا ضده كتباً عديدة، اتهموه فيها، بخيانة الإسلام وإدخال البدع فيه.

فى العام 1973 أغلقت السلطة حسينية الأرشـاد، واعتقلت على شـريعتى ووالـده وبقى 18 شهراًفى السجن، حيث كتب من هناك: "سيظل هـؤلاء الجلادون يتحسـرون على سماع كلمة آه منى".

أطلق سراحه بعد أن تدخل من أجله المسـؤولون الجزائريـون، أثنـاء زيـارة الشـاه إلى الجزائر فى آذار العام 1975 لكنهوضع تحت المراقبة ومنع آية نشاطات علنية.

فى آذار 1977 غادر طهران متوجهـاً إلى لنـدن، ليبـدأ مرحلة جديـدة من النشـاط خارج البلاد، بعد أن سدت فى وجهه السبل فى إيران. ولكنه قتل بعد شهر من وجـوده فى لندن بطريقة غامضة. وقد نقل جثمانه إلى سوريا ليـدفن إلى جـوار مرقد السـيدة زينب. وقد أبنه السيد ياسر عرفات والإمام السيد موسى الصدر[14]]انتهى الاقتباس.

وتتمثل إضافة على شريعتى فى التجديد الإسـلامى فى رفضه كل ما قدمه التشـيع الصفوى من خرافات ولوثات وتقديس للأئمة واعطائهم منزلة كأنما هم الذين يحركون الكون وبناء المساجد المذهبة والقباب الملونة والتمسح بالقبور والعداوة المريـرة لكل من لم يناصر الإمام على ويعـترف بأفضـليته وأولويته فى الخلافة على الجميع والتنديد

---

[14] **(14) هكـذا تكلم على شـريعتى "فكـره ودوره فى نهـوض الحركة الإسـلامية مع نصوص مختارة من كتاباتـه". بقلم فاضل رسـول. ص5-6 (دار الكلمة للنشر سـنة 82 بيروت)..**

بـأبى بكر وعمر وعائشة وعثمـان الخ... وإحلال تشـيع علـوى يقـوم على الولاية (بفتح الـواو) وليس على الولاية بكسر الـواو ويمثل قيمِّ الخـير والشـجاعة والنبل والعطـاء الخ... (أنظر كتابنا رسالة إلى الدعوات الإسلامية المعاصرة) وكتابنا (الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة)..

أما أثر شريعتى فيمكن القول إن كتاباته ومحاضراته والفكـرة الـتى تقـدمها والـتى آمن بها شباب إيران مهدت الطريق لقبول ثـورة الخميـنى - رغم أنها مختلفة – ولكنها فى النهاية كـانت إسـلامية، بل وشـيعية، كما أن الخميـنى فى كفاحاته الأولى ظهر بمظهر الفقيه صاحب الأفق الواسع الذى يقبل التعاون مع المعسـكرات الديمقراطيـة، ومع نقابات العمال، بل ومع مجاهدى خلق.. كما تهـادن مع بازرجـان وطالقـانى. وهـذا المسلك المتفتح يسر لفكر شريعتى أن ينتشر، وأن يجند لمصلحة الثورة..

حقا إن الخميـنى عنـدما أحكم قبضـته على الأمـور تنكر لحلفائه السـابقين، بل وأطلق على بعضهم لقب "المنافقين" الذى كان يضعهم تحت طائلة القانون ويعتـبرهم من المفسـدين فى الأرض. وأنه – رغم كل ملكاته كرجل دولة – سـمح بـأن تكـون الأولوية هى لولاية الفقيـه، مما أوجد أزمة محتدمة بين الجنـاح الإصـلاحى وبين الجنـاح المحافظ فى مثل هـذا المنـاخ يمكن لأفكـار على شـريعتى أن تعـود مـرة أخـرى، وأن تكـون من أمضى الأسـلحة فى يد الشـباب والمجموعـات الـتى تـرفض سـيطرة ولاية الفقيه بصورة تشل "ولاية الأمة".

الشيخ علال الفاسى
داعية الحرية، والنقابية والنقد الذاتى

فى علال الفاسى نجد شيئاً لا نجده فى الدعاة الإسلاميين السابقين، حتى أكـثرهم تقدميه وانفتاحاً، نجد الداعية للحرية والذى يخصص لها كتاباً، ويرى أن الحرية أصل ولا يجوز الأفتيات عليها. ونجد الحديث عن النقابية. وأن النقابة يجب أن تكون فى المجال الاقتصادى كالحزب فى المجال السياسى. بل نراه عاملاً بالفعل على تكوين النقابـات ومؤسسا للحركة النقابية المغربيـة. ومنذ أن أسس الإمـام حسن البنا جماعة الإخـوان المسلمين من ستة من عمال قناة السويس – ولم يقرب داعية إسـلامى من العمـال، بل إن الإخـوان نفسـهم لم يكـرروا تجربة مرشـدهم وجـاء وقت كـان الإخـوان فى السودان يرون النقابات "رجسا من عمل الشيطان".

ثم يخصص كتابـاً من أهم كتبه عن النقد الـذاتى ويكفى عنوانه فحسب لإبـراز أصالته وجدته فى أدبيات الدعاة الإسلاميين.

ولد علال الفاسى عـام 1910 من أسـرة الفاسـيين الفهـريين المشـهورة ودرس بالقرويين وتزعم خلال سنوات دراسته حركات الطلبة. وفى هذه المرحلة – أو قبلها – بدأ ينظم الشعر وكانت أول قصيدة له.

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب   وألهـو بلذات الحياة وأطرب

وهو معنى ببرز همة هذا الصبى بن الخمس عشرة، وأنه أنهى عهد اللهو والطرب.

وتـزعم حركة "السـلفية الجديـدة" وسـاهم فى حركة تأسـيس المـدارس الحـرة وتطـوع بـالتعليم فى المدرسة الناصـرية كما أنه بعد أن نـال عالمية القـرويين سـنة 1930 تـطـوعبتدريس التاريخ الإسلامى بالجامعة.

بدأ اضطهاد السلطات الفرنسية فسافر إلى شمال المغرب، وحاصـرته السـلطات الأسـبانية فانتقل إلى أسـبانيا ومنها إلى بـاريس ومنها إلى جـنيف حيث ألتقى بـالأمير شكيب أرسلان وعقد معه صلات وثيقة.

اشترك فى المظاهرات ضد الظهير البربرى سنه 1930 وأسس مع إخوانه جمعية سـرية ظهـرت فيما بعد باسم "كتلة العمل الوطـنى" الـتى تعتـبر أول حـزب سياسى بالمغرب وأسس أول نقابة عمالية بفاس سنة 1935

ساهم فى لجنة "دفتر الإصلاحات المغربية" وكـان أحد الثلاثة الـذين تزعموها وهم علال الفاسى وأحمد بلافـريج ومحمد حسن الـوزانى وانتخب علال الفاسى رئيسا لهـا. وأخذت اللجنة اسم "الحزب الوطنى لتحقيق المطـالب" ودعا سـنة 1937 فى مـؤتمر اسـتثنائى فى الربــاط لاتخــاذ سياسة إيجابية ضد سـلطة الحماية الفرنسـية وردت السلطات الفرنسية بنفيه إلى الجابون ثم إلى الكونغو.

وفى سـنة 1941 قـرر الحـزب الوطـنى أن يؤسس مع شخصـيات حـرة حـزب الاستقلال واحتفظ برئيس الحزب الوطنى (علال الفاسى) بصفته زعيم الحزب.

أعيد للمغرب سن 46 فـاستأنفنشاطه وقام بدور فعال فى تثبيت دعـائم الحـزب كما قام بتدعيم الحركة النقابية فى مختلف الدول المغربية.

وسافر علال الفاسى إلى القاهرة ليشترك فى تكريم الزعيم المغـربى الأمـير عبد الكــريم الــذى تسـلل إلى القــاهرة ولاذ بها كلاجئ كــان محل احتفــاء كل الهيئــات الإسـلامية، وبوجه خـاص الإخـوان المسـلمين الـذين كـان لهم دور فى تسـلله وكـانت القاهرة وقتئذ هى بؤرة نشـاط الحركـات العربية كما كـان مكتب المغـرب العـربى بها يضم كل فصائل المغرب، واقنع علال الفاسى الجامعة العربية بعـرض قضـية المغـرب على الأمم المتحـدة وقـام بـدور بـارز فى السياسة المغربية بعد عـودة الملك محمد الخامس.

ولعلال الفاسى مؤلفــات ثمينة من أبرزها كتــاب "مقاصد الشــريعة الإســلامية ومكانتها" الـذى بـدأ فيه حيث انتهى الشـاطبى، ثم أضـاف إليه زبـدة خبراته وثقافاتـه، وكذلك كتاب "دفاع عن الشريعة" وكتاب الحركات الاستقلالية فى المغـرب فضـلاً عن الكتاب الهام "النقد الذاتى".

إن علال الفاسـى، وإن كـان قد بـدأ من "السـلفية الجديـدة" فإنه انتهى إلى أن الإسـلام حركة تـرفض الجمـود، وأن التجديد طبيعة فيــه، وأن الحرية أصل فيــه، وأن الحركة النقابية جـانب يجب الاهتمـام به وأن قضـية المـرأة لابد من أن تحسم لا طبقا

لما قــرره الفقهــاء.. **ولكن لما قــرره القــرآن ولما أثبتته الأوضــاع الســليمة ولهذا فإنه قرر "أن المصلحة الاجتماعية، انطلاقاً من المبادئ الإســلامية تقضى بمنع التعــدد فى الزوجــات وإنى أقــرر الــرأى بكامل الاطمئنــان النفسى وتطـبيق مبـدأ الإصـلاح الإسـلامى بمنع التعـدد مطلقـاً فى هـذا العصر إقامة العدل وتقديراً للمرأة وحماية للإسلام**".

إن كلمــات علال الفاسى عن المــرأة، وعن الحركة النقابيــة، وكتابه عن الحريــة، وكتابه عن "النقد الذاتى" كلها توضح أنه جاوز السلفية فعلاً ودخل فى دور البحث عن بــديل لهــا، ولكن المفارقة أنه فى هــذه اللحظة جــاءت السياسة وشــغلته عن قضــية الاستقلال باعتبــاره الوضع الــذى يمكن أن يحقق أهــداف الــدعوة وكــان الملك الطريد المنفى هو رمز مقاومة الشعب. وهذه الحالة تغيرت بعد أن نال المغرب استقلاله ولم يعد الملك محمد الخامس هو المنفى الطريد رمز المقاومة ولكن الملك الشرعى رمز الحكم والحفاظ، هنا اختلفت المواقع، بل ولعلها – تناقضت ولكن ما كان يمكن لحــزب الاستقلال أن يبقى حزباً دعوياً لقد جرفته السياسة وأصــبح عليه أن يشــكل وزارات أو يشترك فى تشــكيل الــوزارات. وقضى هــذا عمليا على الــدور الثــورى الــدعوى لحــزب الاستقلال وقد كان الخيار هو أن تؤلف الحركة هيئة دعويه ينبثق عنها حزب الاستقلال، ولكن دون أن يكــون مقيــداً للهيئة الأم، على طريقة تنظيم الحركة النقابية البريطانية لحزب العمــال.. ولكن يبــدو أن الــوقت كــان قد فــات. وتقــدم علال الفاسى فى السن وظهــرت القيــادات السياســية المحترفــة، وفى مثل هــذا المنــاخ تبتلع موجة الحفــاظ والجهد الأقل الــدعوة الثورية وبهــذا لم تحقق دعــوة علال الفاسى الــدور الثــورى، وإن كانت دون شك – تمثل خطوة واسعة نحوها.

لقد ابتلى علال الفاسى دون فرســان التجديد الإســلامى ورواده – بالضــرورة الــتى أقحمته ى العمل السياسى – وقدمت لنا مثلاً – يضــاف إلى أمثلة عديــدة أخــرى – عن خطورة العمل السياسى – بالمعنى الذى يتضمن السلطة – على العمل الدعوى.

الفصل الرابع
من دعاة التجديد فى العصر الحديث
(2)

رفاعة رافع الطهطاوى

هـذا هو أسـتاذ الأسـاتذة وطليعة الـرواد والـذى حقق ما أراده نـابليون والخـديوى إسـماعيل من الربط بين الفكر الأوروبى والواقع المصـرى. كـان أزهريا نابغـاً تنبه إلى ملكاته شـيخ الأزهر المرمـوق الشـيخ حسن العطـار وهو الوحيد من بين زملائه الـذى انفتح على عالم العصر واهتم بالتعرف على ما جاءت به الحملة الفرنسية من معـارف علمية فوجد فيه الطهطاوى رائداً ووجد الشيخ العطـار فيه مريـداً يتسم بالأقبـال على العلم والاجتهاد، فرشحه لدى محمد على ليكون إمامـاً للبعثة الأولى الـتى أرسـلها إلى فرنسا سـنة 1825 وكـانت همة الطهطـاوى أعظم من أن تقعد به كإمـام للبعثـة، فقد أقبل على تعلم الفرنســـية وعُـــنى بدراسة الجغرافيا والتـــاريخ والسياسة وأعجب بمونتسيكو وشجعه أساتذته لما رأوا من إقباله واجتهـاده وتفهمـه، ثم عـاد الطهطـاوى إلى مصر ســـنة 1831 ووضع كتابه الهـــام "تخليص الأيربز فى تلخيص بـــاريز" وعين مترجما بمدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية.

وجاءت نقطة التحول مع إنشاء مدرسة الألسن سنة 1835 التى كـانت أمل رفاعة وأخذ يعمل فيها وينظمها ويطورها ليل نهـار حـتى تخـرجت الدفعة الأولى سـنة 1841 فعهد إلى كل فرد من الخريجين بترجمة كتاب أو أكثر.

وأضيف إلى أعماله الإشـراف على الوقـائع الرسـمية فعربها بعد أن كـانت بالتركية وأدخل فيها المقال الصـحفى بعد أن كـانت مقصـورة على أخبـار الحكومة وظل يقـوم بهذه المهمة حتى سنة 1850

وعندما مات محمد على وولى عباس الحكم أغلق المـدارس وأبعد الطهطـاوى إلى السودان ناظراً لمدرسة ابتدائية.

ومن حسن حظه أن لم يظل العهد بعبـاس فقد مـات وتـولى سـعيد باشا الـذى استقدم الطهطاوى وعهد إليه بمسـئوليات جديـدة كـان منها الإشـراف على طبع عـدد كبـير من أمهـات الكتب مثل تفسـير الفخر الـرازى ومعاهد التنصـيص على شـواهد التلخيص وخزانة الأدب ومقامـــات الحريـــرى وغيرها كما أشـــرف على تحرير مجلة "روضة المـدارس" وتـرجم القـانون المـدنى الفرنسى وقـانون التجـارة وأصـدر كتـاب "توثيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل" عن تاريخ مصر الفرعونى القديم وعن السيرة النبوية كتب "نهاية الإيجـاز فى سـيرة سـاكن الحجـاز" ونشر فصـوله فى مجلة روضة المـدارس فى سـنة 1874 وفى مجـال التربية والمنـاهج أصـدر منـاهج

الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية". و"جمال الأجرومية" و"المرشد الأمين للبنات والبنين" وكل هذه الكتب كتب رائدة تعد الأولى فى موضوعها.. كما يجب أن لا تنسى كتابه "القول السديد فى الاجتهاد والتقليد".

ومع هذا يظل كتابه "تلخيص الأبريز" أشهر كتبه وأكثرها تأثيراً لأنه نقل للقارئ المصرى صورة دقيقة للحياة الفرنسية بجوانبها الاجتماعية والسياسية، وأبدى آراء جريئة خاصة فى مجال المرأة فهو يستحسن الدور الذى تقوم به الزوجة الفرنسية "التى يضفى وجودها على المجلس جمالاً وانسا وبهجة وأنها تحيى الضيوف أصالة أو نيابة عن زوجها وزوجها يحييهم بالتبعية". ورأى أن عمل المرأة يصقل شخصيتها ويبعدها عن البطالة "ويمكن للمرأة عند اقتضاء المجال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها". وكذلك "والعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذلة عظيمة فى حق النساء". ولم يضق بالرقص الأوروبى ورأى أنه رياضة ومتعة وليس فيه ما يثير الشهوات وأنه جزء من وضع اجتماعى تشارك فيه المرأة الرجل وفرق بينه وبين رفض "الغوازى" فى مصر الذى يراد به خاصة إثارة الشهوة.

فهذا الشيخ الأزهرى يتكلم فى قضية المرأة بطريقة عقلانية خالصة، ولا يسمح أبداً لأقوال الشيوخ عن الاختلاط أو الحجاب لأن تؤثر عليه.

ودوره فى تأسيس مدرسة الألسن والنهضة بها قد يكون أعظم أدواره لأنه يسر حركة الترجمة.

وأنفرد الطهطاوى بأنه كتب لزوجته تعهداً بأنه لا يتزوج عليها ولا يقيم علاقة جنسية مع جارية ما ظلت معه على وفاق.

أن أثر الطهطاوى فى رفع المستوى الثقافى بما أصدره من كتب، وما تضمنته هذه الكتب من آراء كانت متقدمة عن عصره بحيث يسر عملية التطوير، بما فى ذلك فهم الإسلام يفوق كل شخص آخر ولولا أعماله لما تيسر للمجددين أن يبدأوا حيث أنتهى هو.

السيد رشيد رضا

نشأ السيد رشيد رضا فى عائلة من سراة طرابلس، كان فيها التأصيل الإسلامى البعيد فى الوقت نفسه عن الأفق الضيق أو الاتباع الأعمى. وألم بمفاتيح العلوم الإسلامية كما دخل التجربة الصوفية (كما دخلها محمد عبده من قبله وحسن البنا من بعده) وتعلم منها دون أن يتأثر بأوزارها وأساطيرها ثم تعرف على فكر جمال الأفغانى عندما قرأ فصولاً من العروة الوثقى فأحدثت فى نفسه هزة عميقة، بل وخلقتها خلقاً جديداً بحيث أصبح كل أماله التعرف على هذا الرجل العظيم والتتلمذ على يديه، ولكن الظروف العملية حالت دون ذلك لوفاة السيد جمال الدين فجعل هدفه أن يربط أسبابه بالشيخ محمد عبده الذى كان قد تعرف عليه فى مستهل شبابه عندما كان الشيخ فى بيروت وتحايل على كل الصعوبات حتى وصل إلى الإسكندرية ومنها إلى

القاهرة حتى التقى بالشيخ الذى فاجأه بأنه علم أن من اللبنـانيين من يفكر فى إنشـاء صحيفة، مع أن الصحف فى مصر أكثر من الهم على القلب! ولم يفت هذا فى عضـده بل لقد أقنعه فى النهاية بـأن يعينه بكل ما يسـتطيع على إنشـاء "المنـار" وهكـذا ظهر هذا المنار الذى ظل يرسل شعاعه قرابة سـبعة وثلاثين عامـاً متصـلة ووصـلت أنـواره إلى الهند وإندونيسيا والعراق وتركيا بل دخلت القـارة الأفريقية والشـمال الأفـريقى – تونس والجزائر والمغرب.

ويمكن إجمال ما قدمه السيد رشيد فى :

أولاً: إصـدار المنـار لمـدة سـبعة وثلاثين عامـاً متصـلة كـون منها جامعة إسـلامية شاملة ضمت التفسـير ومختلف أبـواب الدراسـات الاجتماعية والتاريخية وبعض الكتب التى نشرت مسلسلة مثل كتاب "أم القرى" للكواكبى. والكثير من كتب السـيد رشـيد رضا كما ضــمت أحــاديث طويلة عن السياســات الغربية والعربية وكفــاح الشــعوب الإسلامية خاصة العدوان الإيطالى على ليبيا، وشاركت فى تأييد قاسم أمين فى تحرير المرأة. وكان هناك باب ثابت عن "نقد المنار" ينشر ما يوجه إليه من نقـد، وبـاب الـرد على الأسئلة التى يمكن أن تصل إلى الفتاوى هـذا كله فضـلاً عن بـاب التفسـير الـذى كان يتصدر كل عـدد وكتبه لأكـثر من خمس سـنوات الشـيخ محمد عبـده ثم اسـتكمله السيد رشيد رضـا، ويمكن القـول دون مبالغة أن مجلـدات المنـار تعطى قارئها صـورة حقيقية عن عـالم الثلث الأول للقـرن العشـرين وما أثـير فيه من قضـايا. وأن المنـار ربطت العالم الإسلامى بعضه بعضاً.

ثانياً: إن الشيخ رشـيد رضا خلال رحلته الطويلة (قرابة أربعين عامـاً متصـلة) فى الدراسة والبحث والكتابة والتـأليف والاجتماعـات والزيـارات قـدم ما يمكن أن نسـميه "السـلفية الميسـرة " الـتى تحـررت من معظم الإسـرائيليات" والأحـاديث الموضـوعة والتحكمات المذهبية الخ... ونعترف بـأن هـذه "السـلفية" لم تصل إلى عقلانية الشـيخ محمد عبـده، لأنها – بعد كل شـىء – سـلفية، ولكن دور السـيد رشـيد أنه حررها من الغشاوات، وأنه أبرز قضايا معينة مثل التيسير، والمصلحة، والشورى الخ...

ثالثا: أنه أرخ لحيـاة محمد عبـده فى ثلاثة أجـزاء يزيد الجـزء الأول منها على ألف صفحة، وتضمن كتاباً من تأليف الشيخ محمد عبده عن الثـورة العرابيـة، وتعـرض لكل ما ألم بمصر من أحـداث، كما تضـمن الجـزء الثـانى مقـالات الشـيخ محمد عبـده فى العروة الوثقى وغيرها وتضمن الجزء الثالث ما قيل فى تأبينه أو كتب عنه.

كما أصـدر عـدداً كبـيراً من الكتب مثل "الـوحى المحمـدى" و"الخلافـة" و"العـرب والـترك" "وتيسـير الإسـلام" "ومحـاورات بين المصـلح والمقلـد" كما نشر بعض كتب التراث الهامة مثل الموافقات للشاطبى وغيره وبعض الترجمات مثل "التربية".

رابعاً: أنه فى الأيام الأخيرة من حياته أسس "دار الدعوة والإرشاد" كهيئة لترشـيد الخطاب الدينى وتدريب الـدعاة وتكـونت بالفعل وكـانت الدراسة إقامية وظلت لمـدة سنتين، ثم توقفت لعجز الموارد المالية. ولا نعرف الأثر الذى خلفته، ولكن مما لا يخلو من دلالة أن كان من دارسيها الشيخ محمد أبو زيد الـذى أصـدر كتـاب تفسـير القـرآن

بالقرآن وذهب فيه مذهبا خالف الثوابت المقررة وصودر الكتـاب وأعـدم، وهى سـابقة قد لا تعرفها الكتب التى تتقصى حركات التجديد.

خامساً: لقد أثير عن السيد رشيد رضا ما أثير من قبل عن شيخه محمد عبده عن علاقــات سياســية ومواقف متأرجحة والحقيقة أن الرجل فى كل مواقفه كــان ينشد الخير. ولم يكن اتصاله بكل ذوى السلطان لمطمع أو تعصب، ولكن لحملهم على إتباع سياسة الشورى وخدمة الجمهـور والقيـام بالواجبـات نحو النـاس الخ... ولم يكن يهمه أن يقـدم هـذا لزيد أو عبيـد، ما دامت فى يـديهم أزمة الأمـور ومقاليد الحكم. وهو فى هذا كان يتبع حكمة الحسن البصرى.. لو كانت عندى دعوة مستجابة لدعوتها للسلطان لأن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً "، وهو صاحب شعار "تتعاون فيما تتفق عليه ويعـذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه".. وقد كبح الشيخ محمد عبده جماحه نحو السياسة وحال دون أن يتورط فيها، ولما مات، ودفعت بالسيد رشيد رضا الظـروف إلى الصـدارة فى بعض المواقف السياسية والعربية حاول الإصـلاح، ولكنه فى النهاية خـرج منها بصـفقه المغبـون وتـبين سـلامة توجيه الشـيخ محمد عبـده له وقد أثقلته الهمـوم والأعبـاء فى سنواته الأخيرة واضطر لأن يرهن بيته حتى يفى بديون المطبعة..

ولا جدال أن الفكر الإسلامى أصبح يفضل محمد عبـده ورشـيد رضا شـيئاً آخر عما كان عليه قبل أن يقوما بعملهما العظيم..

عبد الرحمن الكواكبى

يقف الكواكــبى ما بين محمد عبــده ورشــيد رضا لقد قــدم القــاهرة لينشر كتابيه "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" فوصلها عام 1899 وتوفى بها عام 1902 وخلال هــذه الفترة الوجيزة. نشرت جريدة المؤيد كتاب طبائع الاستبداد على حلقـات، ونشر كتـاب أم القرى فى "المنار" وبهذين العملين أكتسب الكواكـبى شـهرة مدويـة، وقد تضـمنت هذه المدة أيضاً سلسلة من الزيارات للعالم العربى والسواحل الأفريقية.

ولا تعود أهمية الكواكبى إلى مهاجمة الاستبداد فقد كـان هـذا لب دعـوة الأفغـانى، ولكن إلى إصداره كتاب "طبائع الاستبداد" الذى قـام فيه بتحليل الاسـتبداد سياسـيا أو دينيا، ودوافعه وأسبابه وطبائعه الخ... فركز الاهتمـام العـام وبلـور موضـوع الاسـتبداد. وقد أعطى بعض الباحثين أهمية كبرى للكتاب، ولكن آخرين لم يصلوا إلى هذا المـدى. ولعل ما يؤخذ عليه أن طريقة التحليل أعطت الموضوع طابعاً أكاديميا أفقده الحــرارة رغم إيمان المؤلف الذى كـان يتبـدى خلال السـطور ولعله لو طعم الكتـاب بأمثلة من التاريخ أو مزج ما بين المنهج التحليلى والمنهج التـاريخى لأعطى الكتـاب حيوية وُعمق صـورة الاسـتبداد وجرائمه فى حق الشـعوب.. وقد كشف بـاحث عن أهمية خاصة له عندما وجه الأنظـار إلى الترجمة الفارسـية له الـتى صـدرت عـام 1907 وتأثيرها على أحد المراجع الشـيعية البـارزة وهى السـيد محمد حسـين النـائينى وكتابه "تنبيه الأمة وتبرئه الذمة" الذى صدر سنة 1909 والذى يماثل فى روحه طبـائع الاسـتبداد. وهو ما

يعطى كتــاب الكواكــبى أهمية[15] وفى نظرنا أن كتــاب "أم القــرى" لا يقل أهمية عن طبائع الاستبداد لأنه قدم أول تصـور "لأمميـة" إسـلامية تفضل تصـور جمـال الأفغـانى للجامعة الإسلامية، لأن الأفغانى كثورى كان يستهدف الدول ولكن الكواكبى كان كاتبا، ومن ثم فإنه اســتهدف تكــوين تنظيم جماعة تعمل لتحقيق الأمة الإســلامية فكــانت جمعية أم القرى التى وإن كانت أصلاً فكرة فهناك ما يدل على أن الكواكبى شرع فى إيجادها بالفعل – وأنه رغم أنه اعتمد على الجماهير، فإنه لم يكن يـرفض مسـاندة من الخديوى، أو غيره من نبلاء مصر الذين أبدو تعاطفـاً كما يظهر من الصـفحات الأخـيرة لإحـدى طبعـات "أم القـرى" والعامل الحاسم أن الكواكـبى عوجل فى بـدايات عملـه، وأنه لإنجاز ضخم أن يتم عمله الحقيقى خلال ثلاث سنوات.

وقد اعتقد بعض القوميين العرب أن الكواكبى هو رائد القومية العربية وهـذا إدعـاء عريض فالكواكبى رائد وداعية إسـلامى، وكـان الإسـلام هو لحمة دعوته وسـداها، غاية الأمر أنه أعتــبر العــرب أقــدر العناصر على فهم الإســلام بحكم اللغة الــتى يفهم بها القـرآن. ولهـذا المعـنى جعل "أم القـرى" مركـزاً رئيسـياً لهـا. ومهما كـانت عربية أم القرى، فإنها تعود إلى الإسلام أولاً وأخيراً. ونقطع بأن الكواكـبى كـان يخـالف الفكـرة الضيقة للقومية العربية، أو الصورة التى دعا إليها حزب البعث أو ساطع الحصرى.

أبو الحسن الندوى

فى شخصية الإمام أبى الحسن الندوى نجد الصــورة المثلى للداعيــة، فقد ولد من أسرة مسلمة عريقة وتربى تربية إسلامية. وتضلع فى العربية بوجه خـاص. وقـرأ على العلامة المحدث الشيخ حيدر حسن خان الطونكى الصحيحين البخـارى ومسـلم وسـنن أبى داود وسنن الترمذى "حرفاً حرفاً" كما قرأ عليه شيئاً من تفسير البيضاوى.

وقد ولد فى إحـدى قـرى الولاية الشـمالية فى الهند عـام 1914 وأبـوه هو علامة الهند، وأمه سيدة مثقفة تقرأ وتكتب وتقول الشعر وتحفظ القرآن. واستكمل دراسـاته التى تضـلع فيها خاصة اللغة العربية وعكف خلال عـامين على تعلم الإنجليزية (1928-1930) وعين مدرساً فى مدرسة دار العلوم لنـدوة العلمـاء عـام 34 واسـتكمل خلال هذه الفـترة ثقافاته العامة بمطالعاته لكتب المعاصـرين وللصـحف ووقع عليه الاختيـار ليكون أمينا عاماً لندوة العلماء سنة 1961 وأسس حركة رسالة الإنسانية سنة 1951

وبدأ الكتابة فى وقت مبكر للمنـار عـام 1931 عن حركة السـيد أحمد بن عرفـان شـهيد بـالاكوت عـام 1831 وأصـدر عـام 1944 كتابه المشـهور مـاذا خسر العـالم بانحطاط المسلمين" بالأوردية، وترجم بعد ذلك مراراً بالعربيـة. وفى عـام 1965 ألف كتابه "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطـار الإسـلامية" و"كتـاب ربانية لا رهبانية" وكتاب رجال الفكر والدعوة فى الإسلام من عدة أجزاء.

---

[15] **(15) انظر "من التراث إلى التجديد للأستاذ زكى ميلاد – المركز الثقافى العربى – بيروت ص115.**

وهذه الكتب هى من الكتب الهامة بحكم موضـوعاتها وبحكم الطريقة الـتى عالجها السيد أبو الحسن الندوى فلديه فكرة محورية يعرضها بأسـانيد من الأصـول الإسـلامية وكذلك بالاعتماد على العقل والمنطق والكتابـات المعاصـرة تتخللها دفعة إيمانية تربط بينها وتعطيها حرارة وقوة وتجعلها تصيب الهدف الذى أرادته مباشرة.

وليست الكتب هى أهم نشـاطات الشـيخ، لأنه كـان – كما ذكرنا – داعية مطبوعـاً، ولهذا سـافر شـرقاً وشـمالاً وجنوبـاً وشـمالاً وأعانه فى ذلك أجادته العربية وأنه كـان يتحـدث دون عجمه أو لكنه كما يتحـدث الإنجليزية فحج سـنة 47 وأقـام بالحجـاز سـتة أشهر تعرف فيها على علمائه.

وسـافر مـرة ثانية للحج سـنة 51 وتعـرف على بقية رجـال المملكة ونظم عـدة لقاءات ثقافية، وزار مصر سـنة 51 وألقى سلسـلة من المحاضـرات وتعـرف على كل رجال الدين وعلى كل شخصيات الإخوان المسلمين، كما زار الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد الإمام الشهيد حسن البنا فى مكتبه العتيق بالغورية، والشيخ أحمد البنا، فـوق أنه والد الإمام الشهيد فإنه مصنف الموسوعة الإسلامية الحديثية الكبرى مسند الإمـام أحمد بن حنبـل، وأمضى سـاعات مع الشـهيد سـيد قطب وعن هـذه الرحلة نشر كتابه "أسمعى يا مصر.." وكتب مقدمة لمذكرات الـدعوة والداعية للإمـام حسن البنا تفيض عاطفة وتقديراً للإمام الشهيد عبر عن أسفه العميق لأنه لم يقدر له لقاءه – ثم سـافر إلى الشـــام وأمضى 24 يوما فى دمشق وألقى خلالها محاضـــرات ونـــدوات ثم زار فلسطين وزار بيت المقدس والمسجد الأقصى وعاد إلى الشام مـرة ثانية 956 وألقى المحاضرات فى جامعة دمشق وأصدر رسالة بعنوان "أسمعى يا سوريا" ثم سافر إلى لبنـــان ومنها إلى تركيا وفى ســـنة 962 ســـافر إلى الكـــويت وألقى بها كلمة رائعة "أسمعى يا زهرة الصحراء".

وزار السعودية مـراراً وتكـراراً وقابل أربعة من ملوكها الملك خالد والملك سـعود والملك فيصل والملك فهد واشـترك فى تكـوين رابطة العـالم الإسـلامى.. وفى عـام 1973 سافر إلى أفغانستان وإيران ولبنان والعراق، وسـافر عـام 1976 إلى المغـرب وأمضى أسـبوعين وطبعت مذكراته "أسـبوعان فى المغـرب الأقصـى" وسـافر إلى الجزائر عام 1982 ثم عاد إليها عـام 86 ودعى للأردن عـام 1984 وألقى محاضـرات فى جامعة اليرموك وزار فى السنة نفسها اليمن وألقى محاضرات فى جامعة صـنعاء، وطبعت أهم محاضراته فى الرحلتين بعنوان "نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان".

وســـــافر إلى بورما 1960 وإلى باكســـــتان 1964 و1978 وطبعت أحاديثه فى باكستان فى مجموعتين بالأردية بعنوان "أحاديث باكستان" و"تحفة باكستان".

وبالنســـبة لأوروبا وأمريكا فقد كـــانت رحلته الأولى عـــام 1963 زار فيها جـــنيف ولـوزان وبـاريس وكمـبردج وأوكسـفورد وجلاسـجو وقابل كل الشخصـيات الإسـلامية وبعض أسـاتذة الجامعـات البريطانية كما زار فى أسـبانيا مدريد وأشـبلية وقرطبة كما زار عـام 1964 بـرلين وميـونخ وبـون، ثم عـرج على بريطانيا وألقى محاضـرات فى جامعة لندن وجامعة برمنجهام وجامعة ليدز وطبعت أحاديثه فى هذه الرحلة فى كتـاب

بعنوان "حديث مع الغرب" وزار أكسفورد عام 1983 لمناسبة تأسيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية وألقى محاضرة بعنوان الإسلام والغرب.

وفى عام 1977 زار أمريكا وكندا فزار نيويورك وأنديانابوليس ونيويورك وشيكاجو وفيلادلفيا ومعظم الولايات الأمريكية وألقى محاضرات فى جامعات كولومبيا وهـارفرد ودترويت وصلى فى قاعة الصلاة فى الأمم المتحدة وطبعت أهم محاضراته فى كتـاب بعنوان "أحاديث صريحة فى أمريكا".

وفى عام 1987 سافر إلى ماليزيا.

وفى عام 1993 سـافر إلى تاشـقند وسـمرقند وبخـارى لحضـور مناسـبة تأسـيس مركز تذكارى للإمام البخارى.

يندر أن نجد مثل هـذا السـفير المتجـول، المتطـوع فى سـبيل الله ولنشر الـدعوة الإسـلامية الـذى كـان بفضل علمـه، وخلقه خـير دعايـة، ولم يكتف بما أثمرته هـذه الرحلات والمحاضرات على أصحابها بل نشر خلاصاتها فى كتب طبعت ونشرت فعمت الفائدة منها من لم يشتركوا فيها أو يتعرفوا عليها.

وكان الندوى يجيد العربية دون لكنه ويستظهر القـرآن والحـديث والشـعر العـربى ووصف د. منجد مصـــطفى بهجت أســـتاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية بالجامعة العلمية فى ماليزيا إحـدى الكلمـات المـوجزة الـتى ألقاها فى المـؤتمر الأدبى الـذى عقدته رابطة الأدب الإسـلامى فى اسـطنبول فى 8 – 10 أغسـطس سـنة 1968 وخاطب بها المؤتمر وختمها بعنوان "لو أجتمع أدباء العالم الإسلامى وأرادوا أن يمدحوا شيئاً ذا هدف سـليم وغاية نبيلة تـدعو الإنسـانية إلى ما فيه سـلامها لما اسـتطاعوا أن يقولوا أحسن مما قاله الله ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. {25 إبراهيم}..

وعقب على ذلك..

"لا أكتم القـارئ إنى كنت أسـتمع لأول مـرة مباشـرة للشـيخ النـدوى ودارت بى الأرض كمذهول، وقلت فى نفسى ليت شعرى من أى مشكاة يقبس هذا الشيخ؟. إنها منحة ربانية وقلت ليت شعرى فـأين اللكنة والعجمة وهى أمـور لا يمكن أن يفلت منها أعجمى إذا تعلم العربية"[16].

إن الشيخ الندوى كان يمخر عباب البلاغة العربية عـبر القـرآن فيصل إلى الألبـاب. وكان هذا هو أسلوب حسن البنا قبله الذى يتعانق فيه الأدب مع القـرآن. ومعـروف أن الشيخ الندوى تأثر طويلاً بحياة ودعوة حسن البنا.

مع أن الإمام الندوى كـان مؤلفـاً غزير الإنتـاج وأن كثـيراً من كتبه بالعربيـة، إلا أن هناك مؤلفات أخرى قيمة مثل سـيرة حياتـه، قافلة الحيـاة بالأورديـة، فلم تـترجم إلى

---

[16] **(16) ص138 عدد خاص ممتاز عن الإمام من مجلة الصحوة الإسلامية إبريل 2000**

العربية وأعتقد أن دار العلوم والمنظومة العلمية فى لكهنو مقصـرة فى عـدم ترجمتها فإن الوسيلة العملية لتقدير هـذا الداعية المـربى هى نشر أعماله وإذاعتها بين النـاس تخليداً له وإشاعة للاستفادة منها.

وكان الإمام أبو الحسن الندوى مثالاً للتطـابق ما بين القـول والعمـل، وكـان عمله مصـداقاً لقولـه، فكـان متقشـفاً بسـيطا، ينفر من مظـاهر الـثراء ومن نفـوذ السـلطة ويكره الفنادق الفاخرة، ويؤثر أن يسكن فى شقة متواضعة وكان يجد حرجاً فى قبول الجـوائز العلمية ورفض تسـلم مكافـأة من إحـدى الجامعـات بعد أسـبوعين من المحاضرات بما يعادل ستة آلاف دولار قائلاً إنه لا يأخذ على العلم أجراً. وكان فى زيه وفى سـمته مسـلماً يحتفظ بالتقاليد الإسـلامية من تربية اللحية وتخفيف الشـارب. وعندما سئل عن أغرب ما رآه فى القاهرة قال "إننـى وجـدت العلمـاء حليقى اللحى" وهذا يعود إلى أن مسلمى الهند سلفيون بمعنى الكلمة وعمادهم وهديهم هى السُنة.

وهناك نقطة هامة أبرزها الشيخ القرضـاوى فى كلمته فى رثـاء أبى الحسن الندوى – تلك هى أن أبا الحسن الندوى هو الـذى عـرفهم بأهمية كلمة ربعى بن عـامر قائد المسـلمين وسـفيرهم إلى رسـتم القائد الفارسى الـتى لخص فلسـفة الإسـلام فى كلمـات قليلة (كما ذكر القرضـاوى) إلا وهى أن الله ابتعثنا لنخـرج النـاس من عبـاده العبـاد إلى عبـادة اللـه، ومن ضـيق الـدنيا إلى سـعتها، ومن جـور الأديـان إلى عـدل الإسلام" قـال الشـيخ القرضـاوى "أبو الحسن النـدوى – فيما أعلم – هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف، وهذه الكلمات ثم تناقلها الكـاتبون بعد ذلك وانتشرت[17].

النقطة التى أتصور أنها حدثت أن الشهيد سيد قطب ألتقط هذه الكلمة التى كانت أحد مفـاتيح دعوته عن الشـيخ، قبل أن يتـأثر بمضـمونها الـذى صـاغه المـودودى فى الحاكمية الإلهية. وقد كان لأبى الحسن الندوى لقاءات مستطيلة مع سـيد قطب وكتب سيد قطب مقدمة لكتابه "أسـمعى يا مصـر.." جـاء فيها قـرأت أسـمعى يا مصـر.. ويا ليت مصر سمعت.

أتصور أن تأثير سيد قطب بكلمـات ربعى بن عـامر جـاء من النـدوى، ولكن طغت عليه الصيغة المودودية لأن أحداث العنف وجرائم عبد الناصر وتعـذيب زبانيته للإخـوان فى سجونهم جعلت تكييف سيد قطب أقرب إلى المناخ الصـراعى المـودودى منه إلى المناخ السماحى الندوى.

وكـان أبو الحسن النـدوى يضـيق شـيئاً ما بالتصـورات الـتى قـدمها أبو الأعلى المودودى وخالف فيها سماحة الإسلام، وجرت بينهما بعض المناقشات أشـرنا إليها فى

---

17 **(17) أنظر كلمة الشيخ يوسف القرضاوى فى عدد ذى القعدة وذى الحجة سنة 1420 الخاص بسماحة الشيخ أبى الحسن الندوى من مجلة الداعى (تصدرها الجامعة الإسلامية دار العلوم – ديوبند – الهند ص16) وهى بعنوان "ربانى الأمة وداعية الإسلام العلامة أبو الحسن الندوى".**

كتابنا "رسالة إلى الـدعوات الإسـلامية المعاصـرة" ولم يكن فى هـذه المناقشـات من الجانبين ما يمس آداب الحوار أو ما يخل بما لكل منهما من تقدير واعتبار.

ويمكن القـول – بكل تأكيد – أن السـيد أبو الحسن النـدوى كـان من أبـرز وأكـبر الدعاة إلى التجديد الإسلامى وأن تجديده كـان جوهريـا، بمعـنى أنه يعـود مباشـرة إلى عناصر القوة والحيوية فى الإسلام – التى نجدهما فى القـرآن والرسـول – وهـذا منهج سليم حتى وإن لم يكن وحده كافيا لإنهـاض المسـلمين وانتشـال الإسـلام من الوهـدة الـتى تـردى فيها بفعل المذهبية والعقلية النقليـة، إذ كـان لابد أن تصـطحب دعـوة أبى الحسن الندوى بالإشارة إلى الضرورة المؤكـدة للتعـايش مع العصر الحـديث والتعامل معه بلغته هـــو، لا بلغتنا نحن، لأنه لا يفهم لغتنـــا، ولأنه الآن ممثل القـــوة والمنعة والسيادة، خاصة وأنه كان الوحيد الذى ألم بالإنجليزية وفى الوقت نفسه فإنه كـان من أئمة المسلمين، ولكن غلب الأصيل على المحدث.

وعنـدما مـات سـنة 1420 أقيمت عليه صـلاة الغـائب ليلة السـابع والعشـرين من رمضان "يوم وفاته" فى المسجد الحرام التى حضرها قرابة ثلاثة ملايين مصـلى، كلهم يدعون الله له.

أبو الأعلى المودودى

ولد الإمـام أبو الأعلى المـودودى فى 3 رجب عـام 1321 هــ - 25 سـبتمبر عـام 1903 فى أورنك آباد، وكـان أبـوه قد درس حينا ما بجامعة عليكـرة ثم تركها ليشـتغل بالمحاماة والتعليم وفى عام 1322 هـ تـرك العمل وانعـزل عن النـاس.. ثم عـاد مـرة ثانية إلى المحاماة حتى داهمه المرض وأبقاه قعيداً حتى توفى عام 1338هـ.

ونشأ المودودى خلال فترة انقطاع والده إلى العبادة والزهـد، فحـرص والـده على تربيته تربية إسلامية، وألحقه بمدارس الثقافة الإسلامية، حيث أتقن العربية والفارسـية والفقه والحديث، واجتاز امتحان "مولوى".

وفى عام 1918 عمل فى إحدى الصحف الـتى كـانت تصـدر ببعض المـدن الهندية حتى استقر به المقام فى دهلى، واشترك فى حركة إحياء الخلافة.

وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الإنجليزية وطـالع كتب التـاريخ والفلسـفة والسياسة الخ... إما بحكم عمله، وإما لأنه اكتشف عدم إلمامه بها مع أهميتها..

وأقام فترة فى بهوبال عكف فيها على المطالعة والبحث..

وتحدد خلال هذه الفترة العمل المهنى لأبى الأعلى المودودى الـذى كـان مهيئـاً له بحكم النشأة والتربية والمزاج هو "الكتابة" التى يكون مجالها المنتظم هو: (الصـحافة) بالمعنى القديم لهذه الكلمة.

وفى عام 1928م أصدر كتاب: "الجهاد فى الإسلام" الذى رد به على شبهة انتشار الإسلام بالسيف، التى ادعاها غاندى فى إحدى المناسبات.

وفى عام 1932م أصدر صحيفته الخاصة "ترجمان القرآن" فى حيدر آبـاد الـدكن، وكان شعارها:

"احملوا دعوة القرآن وحلقوا بها فوق العالم".

وكتب عددا من الكتب، وانتشر اسمه ككاتب ومفكر وداعية إسلامى، وبدأت معالم دعوته تتفتح خلال كتاباته عن:

الربا، والحجاب، والتنقيحات، والتفهمات الخ....

وفى عـام 1937م قـدم المـودودى إلى لاهـور بنـاء على دعـوة قـدمها له العلامة إقبال، ولم يكد يستقر بها حتى توفى إقبال.

وتـوالت التطـورات السياسـية، وظهـرت فكـرة القومية الهنديـة، ووجد المـودودى نفسه فى خضم الصراع فأصدر كتابيه عن الصراع السياسى ومسألة القومية.

ودفعه هذا الاتجاه للتركيز على قضية الدولة الإسلامية التى ستصبح واسـطة العقد فى فكره.

وفى السادس والعشرين من أغسطس عام 1941م تكونت "الجماعة الإسـلامية" من خمسة وسـبعين رجلاً اجتمعـوا من مختلف بقـاع الهند بنـاء على دعـوة وجهها عن طريق مجلته "ترجمان القرآن"، وانتخب الإمام المودودى "أميراً" لها..

وهـــذا هو أول بعث للكلمة الإســـلامية القديمة "أمـــير" بعد أن حل محلها تعبـــير "الرئيس" أو "الأمين العام".

ونرى هنا تجديدا يماثل تجديد الإمام الشهيد رحمه الله عندما بعث تعبير "المرشد" من قاموس الصوفية.

فى هـذه الفـترة أتم المـودودى كتبه الهامـة: المصـطلحات الأربعة فى القـرآن، الإسلام والجاهلية، المسألة الاقتصادية، وبـدأ كتبـه: تفهيم القـرآن، دين الحـق، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، شهادة الحق.

وخلال عامى 1947، 1948م قام المودودى بنشاط سياسى مكثف تطلبه تكـوين دولة باكستان وعرض المودودى فكرته فى خطاب بكلية الحقوق عام 1948م..

كما قـــدم فى إحـــدى الاجتماعـــات الغفـــيرة فى كراتشى النقط الأربع للنظـــام الإسلامى وهى:

1. باكسـتان هى ملك لله فقـط. وعلى الحكومة الباكسـتانية أن تقيم نظـام البلاد بما يرضى الله.

2. القضاء على القوانين المخالفة للشريعة.

3. أن يكون القانون الأساسى لباكستان هو الشريعة الإسلامية.

4. أن تحدد الحكومة الباكستانية سلطانها طبقا لحدود الشريعة.

وفى أول نوفمـبر عـام 1972م وبعد واحد وثلاثين عاما من الكفـاح قـدم الإمـام المـودودى طلبا إلى الجماعة الإسـلامية بإعفائه من منصـبه كـأمير للجماعة الإسـلامية لأسـباب صـحية، وعكف على البحث والقـراءة بحيث أكمل "تفهيم القـرآن" و"سـيرة النبى صلى الله عليه وسلم". وفى الثانى والعشرين من سبتمبر عام 1979م توفى.

كانت دعوة الإمام المودودى تتسم بالبساطة والوضوح، وتقـوم فكرته على مبـادئ أساسية ثلاث:

المبـدأ الأول: هو "الحاكمية الإلهيـة" المنبثقة من أن الله تعـالى هو خـالق هـذا الكـون وخـالق الإنسـان، ومبـدع كل شـىء فى الوجـود، وأنه ما من ذرة فى السـماء والأرض أو نجـوى ثلاثة أو أقل إلا يعلمها اللـه.. وبنـاء على هـذا المبـدأ الرئيسى يتفـرع المبدآن الثانى والثالث.

المبدأ الثـانى: "العبودية لله وحـده" فلا يجـوز للإنسـان أن يشـرك بالله تعـالى شيئاً.

المبدأ الثالث: أن كل أوضاع المجتمع الإنسانى من سياسة، واقتصـاد، واجتمـاع. يجب أن تتم طبقا لما أراده الله تعـالى لها وفقا لما شـرعه فى الكتـاب والسُـنة، وأى قـــانون أو تنظيم يخـــالف ذلك يعد نوعا من مخالفة "الحاكمية الإلهيـــة" ويقـــرب من الشرك.

وعنــدما قــامت الجماعة فى الســادس والعشــرين من أغســطس عــام 1941م وضـعت دسـتورها، ويغلب أن يكـون المـودودى هو الـذى وضع نفسه المـواد الجوهرية الخاصة بالغاية والوسيلة لأنها تكاد تكون قطعة من كتاباته.

وظل الدستور الذى وضع عام 1941 سارى المفعول حتى عـام 1952 أى حـوالى أحد عشر عاما تمت خلالها أحـداث جسـام كـان منها قيـام "باكسـتان" داراً للإسـلام، فانتخب أعضاء الجماعة فى المؤتمر لجنة لوضع دستور الجماعة.

وتضمن الدستور المبادئ الآتية:

المادة الثالثة: عقيـدة الجماعة الإسـلامية هى: لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه. والمراد من الجزء الأول من هذه العقيدة أى كـون الله إلها واحـدا دون غـيره، هـو: أن كل ما فى السموات والأرض فالله خالقه وربه ومالكه وهو حاكمه.

ومن مسلتزمات هذه العقيدة بعد فهمها والإقرار بها:

1. أن لا يعتقد الإنسـان فيما دون الله وليـاً له ووكيلاً، وقاضـيا لحاجاتـه، وكاشـفا لمشـــكلاته، ومجيبا لدعواتـــه. فغـــير الله لا يملك بتاتا ســـلطة من الســـلطات المطلقة.
2. أن لا يعتقد فى غير الله أنه ينفعه أو يضره، وأن لا يتقى أحدا غـيره، ولا يخـاف إلا أيـــاه، ولا يطمع إلا منـــه، ولا يتوكل إلا عليـــه، فالله وحـــده مصـــدر جميع السلطات.
3. أن لا يدعو إلا الله، ولا يتعوذ إلا به، ولا يستعين إلا به، ولا يعتقد فى غيره أن له ضـلعا ونفـوذا فى التـدابير الإلهيـة، أو أن شـفاعته تبـدل قضـاء الله وقـدره، فـالجميع فى مملكة اللـه، سـواء من الملائكة أو الأنبيـاء أو الأوليـاء، ليسـوا إلا رعيته التى لا تملك شيئاً إلا بأذنه.
4. أن لا يطأطئ رأسه أمام غير الله. ولا يعبد إلا إيـاه، ولا ينـذر إلا لـه، ولا يتعامل مع أحد غير الله ما كان يتعامله المشركون مع آلهتهم. فالله هو وحده يسـتحق أن يؤدى له كل أنواع العبادة.
5. أن لا يسـلم لغـير الله بأنه ملـك، أو مالك الملك أو مصـدر السـلطة العليـا. ولا يعترف لأحد غير الله بحقه فى الأمر والنهى بناءا على سلطته الذاتيـة. وكـذلك لا يؤمن بغير الله شارعا ومقننا مستقلا بذاتـه. ويـرفض كل طاعة لا تتبع طاعة

الله ولا تلتزم بأحكام الله. فالله وحده هو مالك حقيقى لملكه وخالق حقيقى لمخلوقه. وليس لغيره أبدا حق الملكية والحاكمية بصفة مطلقة.

ويستوجب بعد قبول هذه العقيدة:

6. **أن يتنازل الإنسان عن حريته وسيادته، وأن يتخلى عن اتباع أهوائه، وأن يكون عبدا مخلصاً لله الذى آمن به دون منازع.**
7. أن لا يزعم لنفسه مالكا حقيقيا لأى شىء، بل يؤمن بأن كل ما عنده من الأشياء حتى نفسه، وجوارحه، ومواهبه الذهنية، وقواه الجسدية ملك لله عز وجل ووديعة له عنده.
8. أن يعتبر نفسه مسؤولا أمام الله، ومحاسبا عنده. ولا يغيبن عن باله، ولا للمحة من البصر، حيث استخدامه قواه ومواهبه وعند ستائر تصرفاته ومعاملاته أنه سوف يحاسب على كل شىء من ذلك.
9. وأن يجعل رضى الله مقياس ما يحبه، وسخط الله مقياس ما لا يحبه.
10. وأن يجعل ابتغاء مرضات الله، والتقرب إليه غاية جهوده ومناط حياته.
11. وأن يتخذ هدى الله هو الهدى فى أخلاقه، وحياته الاجتماعية، والتمدنية، والاقتصادية، والسياسة حتى فى كل أمر من أمور الدنيا، وأن يرفض كل طريق أو ضابط يخالف شريعة الله.

وتعرض المودودى لسلسلة من المحاكمات الأولى فى أكتوبر 48 والثانية فى مارس سنة 53 والثالثة فى يناير 64 وصدرت فيها أحكام بالسجن مدى الحياة، ولكن أطلق سراحه بعد فترات قصيرة.

ما هو المأخذ على هذا العرض..

المأخذ أن المودودى قد أحال الأمر كله إلى الله بصفة مطلقة وشاملة دون أن يذكر لنا ماذا يعنى بهذا عملياً..

ما هو معنى أن يعيش الإنسان لله...

هل معناه أن يقضى نهاره صائماً وليله قائماً ولا يفتر لسانه عن ذكر الله..

هل يريد ما أراده ابن القارض..

وأن خطرت لى عن سواك إرادة   على خاطرى سهواً قضيب بردتى

هل يريد أن يضحى الإنسان بحياته فى سبيل الله فيعلنها حرباً شعواء على أعداء الله.

أن هذه الخيارات كلها يمكن أن يحتملها كلام المودودى بل وقد أولتها بعض الجماعات الإسلامية هذا التأويل.

ولماذا يريد المودودى أن يتنازل الإنسان عن حريته..

إن الله تعالى لم يطلب من الإنسان أن يتنازل عن حريته وسيادته كما ارتأى المودودى، ولو أراد لما منحها له أصلاً ولما جعله خليفة له الخ... على العكس لقد أراد

الله من الإنسان أن يمارسـها بكل قـوة بل وسـلط عليه الشـيطان ليفتنه فالله ما أراد حياة اختبار واختيار ولم يردها تنازلاَ وكلام المودودى مزايدة على الله.

وإذا كان الأمر بالنسبة للفرد مشكل ولا يسـتقيم فهو بالنسـبة للدولة أشد إشـكالاً وأكثر انحرافاً لأن الدولة التى تعيش لله، وهى ملك للـه، ولا يملك شـعبها شـيئاً الخ... جديرة بأن تضيع فى بيداء سوء الفهم وتنحرف عن السبيل.

ويتضح مدى عمومية كلام المـودودى، وأنه يحتمـل، بل ويـؤدى، إلى التخبط عنـدما يقارن بكلام الإمام حسن البنا الـذى عـرض عقيدته تحت عنـوان "الفهم" فى عشـرين أصلاً محدداً ثم تحدث عن التطـبيق تحت عنـوان "العمـل" فحـدد الـدور للعضو كفـرد وزوج وأب، ثم كمواطن فى مجتمع ودولة ثم كمواطن عالمى، فلم يدع لعضـوه سـبيلاً للحيرة أو التخبط..

لهذا فإن هذا المستوى المثـالى الـذى أراده المـودودى لم يبق طـويلاً، وشـاهد هو نفسه تقهقره وانحساره.. لأنه – بكل بساطة – غير عملى ولا يمكن أن يكون عملياً.

عبد الحميد بن باديس

هــذا هو الرجل الــذى أنقذ الجزائر من أن تكــون جــزءً من فرنسا وتفقد عروبتها واســتقلالها بعد أن احتلتها لمائة عــام حــرمت فيها اللغة العربية على أبنائها وطـاردت الإسـلام وجعلت من أكــبر جــامع كاتدرائية وانتشر المبشــرون فى المــدارس لتحويل أطفال المسلمين نصارى.

فى خضم هذا التحول الساحق وقف عبد الحميد باديس ليعلن قولته:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

ولد الشيخ عبد الحميد باديس فى الرابع من ديسـمبر عـام 1889م فى قسـنطينة من أسرة تعود إلى المعز بن باديس كبير قبيلة صنهاجة البربرية.

وهكـذا أراد الله لـداعى العربية والإسـلام أن يكـون من أبنـاء الأمـازيغ، وأن يمهر مقالاته بلقب الصنهاجى.

وأتم حفظ القـرآن وهو فى الثالثة عشـرة، وأمَّ المصـلين فى صـلاة الـتراويح فى شهر رمضان لثلاث سنوات متوالية فى المسجد الكبير.

وبعد أن تلقى العلم على يدى الشـيخ حمـدان الونيسى سـافر إلى تـونس، والتحق بجامع الزيتونة، وكان من أساتذته الشيخ الطاهر بن عاشور زميل وتلميذ الشـيخ محمد عبده.

ونال شهادة العالمية عام 1913م بعد أربع سنوات وكان سنة ثلاثة وعشرين عاما. وعاد إلى قسنطينة، ولكنه غادرها ليؤدى فريضة الحج حيث التقى هناك بشيخه القـديم

الشيخ حمدان الونيسى الذى عـرض عليه الاسـتقرار بالمدينة المنـورة، والتفـرغ للعلم والأمن من مضايقات الفرنسين فرد بكلمته المأثورة:

نحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية فى هذا الوطن.

وتعرف هناك أيضاً على زميل كفاحه، وخليفته الشيخ البشير الإبراهيمى.

وخلال لقاءاتهما من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر طوال ثلاثة أشهر اختمـرت الخطوط الأولى لكفاح الشيخ.

وزار عند عودته مصر وسوريا ولبنان.. ويغلب أن يكون قد تأثر بأفكار الشيخ رشيد رضا ومجلة "المنـار" الـتى كـانت قد بـدأت مسـيرتها الطويلة فى نشر علم وتفسـير الشيخ محمد عبده.

عاد إلى الجزائر فوجد الاسـتعمار قد عـاث فيها فسـادا: فـاغلق المـدارس، وهـدم العربية..

والهيئة الوحيدة التى شجعها كانت: الطرق الصوفية التى ركنت إليه.

فوجد قرابة ثلاثمائة وخمســين زاوية يؤمها مائتــان وخمسة وتســعون ألف مريد شعارهم جميعا..

"من ليس له شيخ فالشيطان شيخه!!؟!".

بدأ ابن باديس بالدراسة فى المسجد الأخضر، وتفـرغ للصـبيان مسـاء يعلمهم فى سرية تامة اللغة العربية والعقيدة الإسلامية..

كان ابن باديس يريد موطأ قدم ينطلق منه إلى هدف..

وكــان تــدريس الإســلام هو أفضل المنطلقــات فهو الغاية وهو الوســيلة فى ذات الوقت، وقد كفل له قدرا – ولو محدداً – من حرية العمل..

فالإسلام بطبيعته يتضمن أساسيات العمل السياسـى، والاجتمـاعى، والاقتصـادى.. وكذلك يتضمن: مبادئ الحرية، والعدالة، والكرامة..

وبهذا يمكن أن يقوم بدور سياسى مؤصل إسلاميا دون أن يقع تحت حظر وتحـريم العمل السياسى..

وفى إحدى المناسبات قال:

"إننا أخترنا الخطة الدينية عن علم وبصيرة على غيرها، وتمسـكنا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنــا، من النصح والإرشــاد وبث الخــير والثبــات على وجه واحد والسـير على خط مسـتقيم، ولو أردنا أن نـدخل الميـدان السياسى لــدخلناه جهــراً، ولضــربنا فيه المثل بما عــرف عنا من ثباتنا ونصيحتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكننا اخترنا ما اخترنـاه لما ذكرنا وبينا".

ثم أن العمل العـام – سياسـيا كـان أو غـير سياسى – لأبد أن يقـوم على أسـاس إيمانى لا يتأتى إلا بدراسة العقيدة.

وإذا أرسـينا العقيـدة فقد أرسـينا أسس العمل السياسـى، حـتى وإن كـانت هنـاك مراحل عديدة يسلم بعضها لبعض: "فطور للتمهيد، وطـور لإزالة الأنقـاض، وطـور فى البناء والتشييد".

وهو منطق يدل على سـلامة التفكـير، فهو يأخذ بما يتفق مع فطـرة الشـعب، ولو نادى بغير الإسلام لما وجد تجاوبا فطريا..

وكـدليل على مقـدرة الشـيخ ابن بـاديس على ترجمة نص فى موطأ مالك ترجمة سياسية رفيعة شرحه لخطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى أول خلافته:

"إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق الخ...".

فإنه استخرج منها ثلاثة عشر أصلاً من أصول الولاية وهى:

الأصل الأول: لا حق لأحد فى ولاية أمر من أمـور الأمة إلا بتولية الأمـة. وهـذا مأخوذ من قوله: "وليت عليكم" أى ولانى غيرى وهو أنتم.

الأصل الثانى: الذى يتولى أمور الأمة هو أكفؤها لا خيرها (فى سـلوك الشـخص وتقواه) وهذا مأخوذ من قوله: "ولست بخيركم"، ويعززه قبول أبى بكـر، وعمـر، وأبى عبيـدة إمـارة عمـرو بن العـاص فى سـرية (ذات السلاسـل)، وكـذلك قبـولهم إمـارة أسامة.. وهم جميعا خير من أسامة وعمرو.

الأصل الثـالث: لا يكـون أحد بمجـرد ولايته خـيراً من الأمـة، وإنما يكفل له ذلك أعماله. وهو مأخوذ من قوله أيضاً: "ولست بخيركم".

الأصل الرابع: حق الأمة فى مراقبة أولى الأمر لأنها مصدر سلطتهم.

الأصل الخامس: تأبيد الأمة الحاكم عند السـداد مـأخوذ من قوله "إذا رأيتمـونى على حق فأعينونى".

الأصل السادس: توجيه الأمة للوالى ونصحه وتقويمه إذا زاغ فى سـلوكه. "وإن رأيتمونى على باطل فسددونى".

الأصل الثامن: على من تولى أمرا من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التى يسير عليها ليكونوا على بصيرة، ويكون سائراً فى تلك الخطة عن رضا.

من قولـه: "أطيعـونى ما أطعت الله فيكم" فخطته طاعة اللـه، وهم قد عرفـوا ما هى طاعة الله فى الإسلام.

الأصل التاسع: لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذى رضيته لنفسها.

وهذا أيضاً مأخوذ من قوله "أطيعونى ما أطعت الله فيكم" فـإن عصـيته فلا طاعة لى عليكم" فلا يطيعونه لذاته، وإنما لاتباعه الشرع.

الأصل العاشر: الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم.

الأصل الحادى عشر: صون الحقوق.

الأصل الثانى عشر: حفظ التوازن بين الطبقات.

وهذه الأصول الثلاثة مأخوذة من قوله "ألا إن أقواكم لضعيف حتى آخذ الحق منه وأضعفكم عندى لقوى حتى أخذ الحق له".

الأصل الثالث عشر: شعور الراعى والرعية بالمسئولية المشتركة بينهما وشعورهما دائما بالتقصير ليستمرا على العمل بجد واجتهاد، فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما وهو مأخوذ من قوله: أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم".

* * *

قرر ابن باديس أن يدخل مجال الصحافة فأصدر فى عام 1925م. (1343هـ) مجلة "المنقذ" تحمل شعارا [الحق فوق كل أحد، والوطن فوق كل شىء]، ولكن السلطات الفرنسية أوقفتها بعد ثمانية عشر عددا.. فأصدر بعدها "الشهاب".

وفى عام 1930م احتفلت السلطات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، وأصدر بن باديس بيانا باسم لفيف من العلماء يوجه الشعب إلى مقاطعة هذه الاحتفالات (بكل هدوء) واستجاب الناس فقاطعوها دون شغب يؤاخذون عليه، وإنما بكل هدوء.

وفى العام الثانى أسس عبد الحميد بن باديس "جمعية العلماء المسلمين الجزائرين"، وعقد الاجتماع التأسيسى لها فى الخامس من مايو عام 1931، وانتخب رئيسا لها.

وفى الجمعية كما فى دروسه كان الاستعمار يحرم عليه الاشتغال بالسياسة، ولكن لم يكن لهذا التحريم معنى بالنسبة لابن باديس الذى مضى بكل همة يقضى على ضلالات "الطرقية" ويجلى الإسلام الحقيقى ويهاجم الظلم والطغيان والقمع والتسلط، ويحى العزائم ويلهب الهمم، حتى نجحت الجمعية نجاحا باهراً وانتشرت مدارسها، وتعرضت خلال ذلك لكثير من صور الاضطهاد.

وفى عام 1938م خاطب الشيخ ابن باديس الاجتماع العام للجمعية قائلاً: "سلام عليكم يا أعضاء جمعية المسلمين الجزائرين أجمعين، سلام على مساجينكم فى المساجين، وسلام على متهميكم فى المتهمين، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين: سجون، واتهامات، ونكبات.. ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها... فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث، أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها" ويتضح من هذه الخطبة أن الجمعية لم تكن جمعية وعظ وإرشاد، وإنما إيقاظ وإنهاض، ومعالجة لروح وجوهر السياسة والتغلغل فيها.. لا من باب الحزب، ولكن من باب المسجد. وجعل ذلك لجمعية العلماء صلاحيات الحزب دون ملاحقاته. وهذا من كياسة بن باديس وحكمته، فإنه لم يكن هيابا ولم يخش الدخول فى صراع غاية ما فى الأمر أنه كان يقدم معارضته فى قالب إسلامى موضوعى يفوت على السلطات أن تجد عليه مأخذا أو فيه منفذا بحيث يظهر مدافعا عن الإسلام وليس متحديا للحكومة.

وعندما سافر إلى باريس عام 1936 قابل مع أعضاء المؤتمر الجزائـرى الإسـلانى العام – الوزير دلاديه، قال هذا لهم" "إن لفرنسا مدافع طويلة".

فرد ابن باديس: "إن لدى الجزائريين مدافع أطول". فلما تسـاءل عنها دلاديه قـال ابن باديس "إنها مدافع الله".

ورد ردا خشـنا صـريحا على مراسل جريـدة "التـامب" **Le Tempe** قـائلاً لـه: "أسـمعوا إننا لن نرضـيكم أبـدا، ولن نعمل على إرضـائكم.. إننا لا نخشـاكم أبـداً، ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة أيـــديكم.. نحن ســـائرون على منهاجنا وفى طريقنـــا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنا سكوتكم، فقولـوا ما شـئتم.. وإنما ننصـحكم نصـيحة خالصة أن لا تعـــودوا لمثل هـــذا العمل الممقـــوت، فسياسة وخز الـــدبابيس تنتهى غالبا بفقد الشعب لصـبره، وإخـراج الحليم عن حلمـه، وإننا لنسد فى اوجهكم هـذا البـاب. إلا إن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله".

وشـيئا فشـيئاً مع رسـوخ قدمه وتطـور الأحـوال كـان يصـرح بهدفه الحقيقى وهو الثورة على فرنسا وتحقيقه الاستقلال.

وبعد قيام الحرب العالمية الثانية قال لبعض إخوانه:

"والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقوننى على الثورة لأعلنتهـا" وأخذ العهود على الجنود الجزائريين.. "سأعلن الثـورة على فرنسا مـتى أعلنت إيطاليا الحـــرب على فرنســا" وكــان يــرى فى جبــال الأوراس معقلا منيعا يمكن أن تعلن منه الثورة.

ولكن المرض الذى أصابه ولم يفرغ لمعالجته تسبب فى وفاته فى السـادس عشر من أبريل عام 1940م.

إن ابن بــاديس يســتحق مكانا عليا فى ركب التجديد فقد كــان هو الــذى اســتنقذ الجزائر من قبضة الاستعمار وأعادها إلى الإسلام والعروبة، ولأنه الذى قدم صورة حية قوية ونابضة للإسلام.

بديع الزمان سعيد النورسى

ولد سعيد النورسى فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى وشاهد تكالب أوروبا على الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، وعندما سقطت بالفعل جاء "الاتحاديون" أى رجال الاتحاد والترقى الذين جعلوا شعارهم "الحرية. الأخوة. المساواة" وهم زمرة من الضباط اختلط فيهم الصالح بالطالح وأفسدتهم جميعا السلطة المطلقة فأقاموا الحكم العسكرى وورطوا الدولة فى حرب ضد الخلفاء مما أدى إلى هزيمة تركيا هزيمة جعلت الحلفاء يحتلون الأستانة ويقتسمون الحكم فيها.. وكان السلطان وقتئذ هو السلطان وحيد الدين الذى جاء بعد السلطان محمد رشاد الذى كان أسير الإنجليز، ولكنه – فيما يرى البعض – أشار من طرف خفى إلى حرب الاستقلال وربما يكون هو الذى مهد لقوات تلك الحرب الهروب خفية إلى الأناضول ليبدؤوا معركة الاستقلال، وكان على رأسهم مصطفى كمال.

وكان ضمن قادة حرب الاستقلال عناصر إسلامية الاتجاه دخلت الحرب تحت راية الجهاد، ولكن ظهور مصطفى كمال غير الصورة، ولم يكد ينفرد بالقيادة، ويكتسب الانتصار الأخير حتى ألغى الخلافة واحل القوانين الأوروبية محل قوانين الشريعة ثم جعل الحروف اللاتينية هى حروف اللغة التركية التى كانت عربية الأصل. فقطع بذلك حاضر الأمة عن ماضيها وجذرها التاريخى إلى آخر ما ارتكبه من الموبقات.

أراد الله لسعيد النورسى أن يعاصر تلك الأحداث الجسام وأن يعيش فى قلبها.

ولد سعيد النورسى فى قرية نورس التى تقع وسط الجبال التى تغطى قمتها الثلوج، والقرية تتبع ولاية بتليس شرق الأناضول سنة 1293- 1873

كان والده صوفيا تقيا لم يطعم أولاده إلا من حلال كما كانت أمه تقول إنها لم ترضع أبناءها إلا وهى على طهر ووضوء.

وظهرت مخايل الذكاء على سعيد الطفل ومن أطرف ما تكشف لنا ترجمة حياته تلك القطعة عن حال المدارس "كان نظام المدارس "الكتاب" فى شرق الأناضول آنذاك قائماً على إعطاء حق فتح المدارس العلمية الدينية لكل عالم مجاز، وتكون مصاريف الطلاب على عاتق منشئ المدرسة إن كان قادراً على ذلك، وإلا فإن هذه المصاريف تعطى من زكاة الآهلين ومن تبرعاتهم، لذا كان طلاب المدارس الدينية ينتشرون فى القرى لجمع الزكاة لتأمين مصاريفهم".

فى سنة 1888م ذهب إلى بتليس والتحق بمدرسة الشيخ "أمين أفندى" ولم يلبث فيها طويلاً كذلك، لأن الشيخ رفض تدريسه لصغر سنة وأوكله إلى شخص آخر، مما حز هذا فى نفسه لذلك قصد إلى مدرسة "مير حسن ولى" فى مُكُسْ ثم إلى مدرسة فى واسطان "كواش" وبعد شهر واحد فقط ذهب مع صديق اسمه "ملا محمد" إلى مدرسة فى قضاء "بايزيد" التابعة لولاية "آغرى".

وهنا بدأت الدراسة الدينية الأساس فى حياة (سعيد) إذ أنه لم يكن قد قرأ حتى الآن سوى النحو والصرف.

وبعد جولة فى المدارس أظهر فيها دأبه على الدراسة أنتهى إلى مدرسة العالم المعروف فتح الله أفندى الذى سأله:

- كنت تقرأ "السيوطى" فى السنة الماضية، فهل تقرأ "الجامى" هذه السنة؟.
- لقد قرأته كاملاً.

وبدأ (فتح الله أفندى) يسرد له أسماء الكتب ويجيبه (الملا سعيد) بأنه قرأها كاملاً، حتى أصبح يتعجب من أمره ويقول له أخيراً:

- لقد كنت مجنوناً فى السنة الماضية فهل ما زلت على جنونك حتى الآن؟.

عند ذلك أبدى (الملا سعيد) استعداده للامتحان فى تلك الكتب، وفعلاً فأنه لم يتردد أمام أى سؤال كان، مما أدهش العالم وأعجبه وأخيراً قال له:

- حسناً.. إن ذكاءك خارق، ولكن دعنا نرى قوة حفظك. فهل تستطيع أن تقرأ بضعة أسطر من هذا الكتاب مرتين وتحفظهما؟ ومد له كتاب "مقامات

الحريرى". أخذ (الملا سعيد) الكتاب وقرأ صفحة واحدة منه مرة واحدة فإذا بها كافية لحفظها مما أذهل العالم "فتح الله أفندى" وجعله يقول:

إن اجتماع الذكاء الخارق مع القوة الخارقة للحفظ شىء نادر جداً.
خلال فترة الدراسة اشتهر أمره فأطلق عليه الملا سعيد. أو بديع الزمان..

فى هذه الفترة قرأ ما نشرته الصحف عن وزير المستعمرات البريطانى جلادستون وهو يخاطب مجلس العموم وبيده نسخة من القرآن "ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود"..

زلزل هذا النبأ سعيد. الشاب وصمم على أن ينذر حياته لإثبات إعجاز القرآن وأنه "شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها"..

زار استانبول وقدم عريضة للسلطان عبد الحميد يطلب فيها فتح المدارس التى تعلم الرياضيات والفيزياء والكيمياء. كما ظفر بمقابلة السلطان مقابلة أثارت غضب الحاشية الذين أحالوه إلى محكمة عسكرية ولما تكلم أمامها بحرارة شديدة قرر رئيس المحكمة إحالته إلى الأطباء لفحص قواه العقلية وقرر هؤلاء إيداعه فى مستشفى طرب طائش للمجاذيب! ولكنه لم يبق بها طويلاً، فقد أمر برجوعه فذهب إلى سلانيك وتعرف على كبار شخصيات الاتحاد والترقى كما قابل شيخ الأزهر الشيخ بخيت المطبعى وقال له أن تركيا حبلى حاليا بجنين أوروبى وستلده يوما ما وأن أوروبا حبلى بجنين إسلامى وستلده يوما ما..

وتورط سعيد نورسى فى تمرد إحدى فرق الجيش على الحركة الاتحادية ومطالبتها بالشريعة قبل أن ترسل الحركة جيشاً على رأسه محمود شوكت باشا ليقضى عليها، وينتهى الأمر بعزل السلطان عبد الحميد سنة 1909 وإعلان الأحكام العرفية وإنشاء محكمة عسكرية كان من المتهمين فيها سعيد النورسى ولكنه ترافع عن نفسه مرافعة بليغة جعلته يظفر بالبراءة.

وعندما أعلنت الحرب العالمية أنضم سعيد النورسى إلى القوات الشعبية التى كانت تحارب الروس فى جبهة القفاس ودخلت القوات الروسية مدينة بتليس التى كان سعيد النورسى وطلابه يتولون الدفاع عنها فجرح سعيد النورسى وأخذ أسيراً وأرسل إلى أحد معسكرات الأسرى فى شرق روسيا وقدم إلى محاكمة عسكرية لأنه لم يقدم التحية للقائد الروسى وتصدر المحكمة حكمها بالإعدام ويطلب النورسى أن يسمحوا له ليصلى ركعتين وعندئذ يؤخذ القائد الروسى ويعفو عنه..

وبعد سنتين وأربعة أشهر فى الأسر استطاع الهرب أثر حدوث الثورة البلشفية وما أثارته من فوضى فوصل إلى ألمانيا ومنها إلى أستانبول.

وعندما بدأت حركة المقاومة فى الأناضول بزعامة مصطفى كمال ورفاقه دعى سعيد النورسى إلى أنقره وطلبوا إليه الانضمام إليهم ولكنه لم يسعد كثيراً إذ لاحظ استهانتهم بالإسلام وأن معظم المبعوثين لا يؤدون الصلاة. فأصدر بيانا "أيها المبعوثون إنكم لمبعوثين ليوم عظيم" وكان من نتيجة هذا البيان الذى تولى إلقاءه الجنرال

كاظم قرة بكير وهو فى حكم القائد العام أن من يقارب من ستين نائبا أقاموا الصلاة وازدحم بهم مسجد بناية المجلس فانتقلوا إلى غرفة أكبر.

واغضب هذا البيان مصطفى كمال الذى طلبه وانتقد بيابه ولكن بديع الزمان قال "يا باشا أن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هى الصلاة وأن الذى لا يصلى خائن! وحكم الخائن مردود" ومع أنه دعى للاشتراك فى حركات مسلحة ضد مصطفى كمال فقد رفض أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضا كما رفض محاولات إقامة دولة كردية (وقد كان هو كردى الأصل) ولكن هذا لم ينجه من نقمة السلطة عليه فأمرت باعتقاله ونفيه إلى طرابزون عن طريق أرضروم على زحافات تجرها الخيول فوق الثلوج، ومن هناك صدرت الأوامر مرة ثانية بنفيه إلى ناحية بارلا النائية فى قارب شراعى فى وسط مياه بحيرة متجمدة.

وصل سعيد النورسى إلى منفاه فى بارلا من أعمال أسبارطه فى غرب الأناضول فى شتاء 1926 حيث قضى الليلة الأولى فى مخفر الشرطة ثم خصص لإقامته بيت صغير يتألف من غرفتين ويطل على مروج بارلا الممتدة إلى بحيرة أغريدير.

وكان هناك نبع أمام البيت الصغير، كما كانت هناك شجرة الدلب الضخمة تنتصب أمام البيت وتغرد على أغصانها الطيور. وصنع أحد النجارين غرفة خشبية غير مسقفة صغيرة وضعت بين أغصان هذه الشجرة. فكان سعيد النورسى يقضى فيها أغلب أوقاته فى فصل الربيع والصيف.

فى هذا البيت الصغير بدأ سعيد النورسى يضع "رسائل النور" ومع أنه كان فى عزله قاتلة، ويعد الاتصال به مبرراً للاعتقال.. فقد كان لابد أن يتصل به بعض السكان الذين ما لبثوا أن أصبحوا تلاميذه ورسله فى نشر وإذاعة رسائل النور.

رسائل النور إلهامات قرآنية. كان سعيد النورسى يلقيها على بعض تلاميذه وهو سائر وفى حالات من الجيشان الروحى والوجدانى. وكانت النسخة الأصلية تنتقل إلى أيدى تلاميذه الذين يقومون باستنساخها باليد، ولم يكن لديه أى كتب أو مراجع باستثناء القرآن وإعانته فى حالته تلك ذاكرته الخارقة على الحفظ التى كانت تغنيه عن الرجوع إلى المراجع اليومية.

وظلت رسائل النور تنتشر بهذه الطريق طوال عشرين عاما حتى طبعت لأول مرة بالرونيو، ولم يقدر لها أن تطبع فى المطابع العادية إلا سنة 1956

لا يتسع المجال للإشارة إلى المحاكمات العديدة التى حوكم فيها سعيد النورسى بمختلف التهم، والغريب أنه فى جميعها ظفر بالبراءة، لقد كان صادقاً كل الصدق وهو يقول أنه لا شأن له بالسياسة، وأنه خادم القرآن وحامله وأنه يحمى الإيمان وكان صدقه هذا يصيب قضائه كأنه رصاصة لا يقف أمامها شىء، فلا يملكون إلا الحكم بالبراءة، كما لا يتسع المجال للإشارة إلى الملاحقات العديدة التى استمرت حتى بعد

وفاته عندما قررت السلطات نقله من أورفا حيث توفى إلى مكان مجهول فى مدينة أسبارطة..

إن نصيب سعيد الزمان فى التجديد الإسلامى هى أنه حفظ للشعب التركى إيمانه بالإسلام وأنه فى كل رسائل النور كان يعود إلى القرآن وهذا أمر لا يمكن التقليل من أهميته بالنسبة لدعاة إسلاميين يرتبطون بالمذاهب.

وانتشرت رسائل النور رغم كل رقابات الحكومة وكان بعض النساء اللاتى يجهلن القراءة والكتابة تنقلها كما ينقلون الرسوم. وجاءت بعض الزوجات ليقلن للشيخ، يا أستاذنا إننا لكى نشارك فى خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال لأزواجنا لكى يتفرغون كليا لكتابه رسائل النور" وكانت رسائل النور هذه نوع من الإلهامات القرآنية والفيوض التى تنهال على كل من يستحضر القرآن، وكان النورسى مسلماً صادق الإيمان، ولعله فى أخذه لنفسه بصور من المجاهدات قد أبعد نفسه واتباعه عن سير الحياة وسياق الأحداث، ولكن لم يكن من هذا بد أمام الهجمة الشرسة على الإسلام وعلى الإيمان، بل وعلى فكرة "الله" التى حاولت الكمالية أن تمحوها من القاموس لتضع محلها "الطبيعة".

ولكنها – مع انتهاء هذه الهجمة، وبعد انتشار الرسائل وطبعها طبعات عديدة وظهور جماعة النور بحيث تشكل فصيلاً إسلامياً هاماً فى تركيا – نقول إن النزعة الإلهامية، الوجدانية لرسائل النور يمكن – عند العكوف عليها وحدها – أن تأخذ الإنسان من اهتماماته الدنيوية أو أن تجعل الحياة كلها لهذا الجانب من جوانب الإسلام. مع أن سعيد النورسى كان فى مطلع حياته من المنادين بضرورة إحكام موضوعات الطبيعة والكيمياء والعلوم الخ... وضرورة إدخالها فى المدارس الشرعية..

إن سعيد النورسى قد أبقى فى أشد ساعات الهيمنة العسكرية الكمالية الغشيمة على الإيمان الإسلامى فى صدور مجموعات كثيرة ولولاه لاكتسحها التيار. ودور اتباعه اليوم هو أن يطوروا فى فكره، وفى استثمار هذا الفكر فى مجال العمل.

الشهيد سيد قطب

ولد الشهيد سيد قطب فى أكتوبر سنة 1906 (وهو الشهر والسنة التى ولد فيها الإمام الشهيد حسن البنا) وتدرج فى الدراسة حتى دخل دار العلوم سنة 33 واشتغل بالتدريس ثم تدرج فى بعض وظائف وزارة المعارف العمومية وأوفد إلى الولايات المتحدة الخ...

كان سيد قطب "درعميا" عريقاً معنى بالنقد الأدبى وكتب دراسات عديدة وقدم شخصيات أصبح لها شأن فى الأدب مثل نجيب محفوظ وغيره وكان بهذه الصفة قريباً من الأستاذ العقاد بحيث اعتبر أكبر أنصاره. ودخل فى مبارزة فكرية على صفحات مجلة الرسالة مع الأستاذ سعيد العريان الذى كان أكبر أنصار الأستاذ مصطفى صادق

الرافعى والذى يمثل الاتجاه الإسلامى ولكن الله تعالى أراد لسيد قطب أن يتحول شيئاً فشيئاً من المدرسة العقادية إلى المدرسة الإسلامية وكان مدخله هو الإعجاز البيانى للقرآن فأصدر عدد من الكتب مثل مشاهد القيامة "والتصوير الفنى فى القرآن" كما أصدر "العدالة الاجتماعية" وشيئاً فشيئاً أصبحت المسافة بينه وبين الإخوان قريبة وانتهت بانضمامه إليها سنة 1951 بعد أن أصبح داعية إسلامياً له فكر خاص بدأ يتبلور ويكسب ذيوعا فى أوساط الإخوان فى فترة الفراغ الأيدلوجى التى أعقبت استشهاد حسن البنا، وبدأ فى تفسير القرآن الذى حمل اسم "فى ظلال القرآن" وكانت تنشره له أولاً بأول بعض الصحف الإسلامية.

كان سيد قطب على معرفة بالكثير من ضباط حركة 23 يوليو وكانوا يجتمعون فى بيته، ولذلك فإنه ناصر الحركة عندما قامت وتوقع منها خيراً كثيرا" ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد جرت مناوشات كان فى أصلها الصراع على السلطة، احتدمت وتحولت إلى عداوة مريرة عقب حادث المنشية الغامض الذى استدرج فيه بعض أعضاء النظام الخاص للإخوان المسلمين لمحاولة اغتيال عبد الناصر، وقبض على الإخوان بما فيهم سيد قطب وأثرت هذه الأحداث، أعنى اتجاهه الإسلامى وانضمامه للإخوان وما كان قد تسلل إلى فكرة من آراء المودودى التى تعرف عليها الإخوان فى أواخر الأربعينات، وما تعرض له من مضايقة فى السجن، والفراغ الأيدلوجى لدى الإخوان أدت هذه العوامل مجتمعه لأن يبدع نظرية فى الفكر الإسلامى والدعوة الإسلامية تماثل تمام المماثلة نظرية المودودى وتقوم على أركان ثلاثة هى: العبودية لله، وجاهلية العصر الحديث والحاكمية الإلهية، وأخذت الشعار لها والتعبير عنها فى "الحاكمية الإلهية". وفى الملابسات التى كانت تمر بها مصر والأزمة المستحكمة ما بين عبد الناصر والإخوان كان شعار "الحاكمية الإلهية" يبدو جذابا كما بدى للخوارج عند احتدام العداوة ما بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وأخذ يجتذب عدداً كبيراً من الشباب ذوى الاتجاه الإسلامى، ومن بين صفوف الإخوان أيضاً.

والنقد الرئيسى لفكرة "الحاكمية الإلهية" هو إنها تجريد للإسلام من مضمونه العملى وإغفال ارتباطه بالإنسان الذى انزل من أجله إغفالاً مطلقاً كإنسان وكخليفة لله على الأرض.

وعند التحليل العملى لهذا الشعار الجذاب.. ما هى الحاكمية الإلهية على وجه التحديد لا نجد حلاً إلا ما قدمه سيد قطب نفسه فى كتابه "معالم فى الطريق".

"ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مانعا فهو محدد بشطر الشهادة الثانى "محمد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول الله من النصوص فى الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجئ دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة فى منهج الله ذاته، لا وفق الأهواء والرغبة ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. {59 النساء}..

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك – ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة – فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله.. إلا أن تكون الحاكمية العليا لله، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى البشر". انتهى..

فإذا كان هذا دين الله ومنهجه فى الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أى تجديد.

بل من الفقهاء من عرضوا القضية بأفضل هذا..

والنتيجة العملية: أن ليس فى كل الحماسة والعاطفة والثورة أى إضافة أو تجديد على المذهب الإسلامى التقليدى.

وإذا كان الخوارج الذين أطلق عليهم القراء – لمواظبتهم على قراءة القرآن، ومواصلة الصلاة – انساقوا لقتل أحد الصحابة وبقر بطن زوجته.. فى الوقت الذى تورعوا فيه عن أكل رطبة ساقطة من نخلة!!! بدعوى هذه القالة فليس من العجب أنها دفعت مهووسا بها لأن يطلق مسدسه فى عين أحد الشيوخ الإجلاء...

أما الإنسان الذى أنزل الإسلام من أجله.. فلا كلمة.

وأما العقل والعلم فلا كلمة إلا ما رد به ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين:

مجتمع إسلامى.. ومجتمع جاهلى..

ولا توسط بينهما:

وكل المجتمعات الحديثة – إسلامية وغير إسلامية – جاهلية.

لأن المجتمعات الإسلامية لا تحقق عمادى دعوته: الحاكمية الإلهية.. والعبودية لله.

فهى جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام..

إن هذه الأحكام الساذجة.. المتعسفة.. ليس لها نصيب من الحقيقة والواقع. لأن المجتمعات الإسلامية.. وإن تخلفت فعلاً عن إتباع كثير من التوجيهات الإسلامية الرئيسية – فلا يمكن الإدعاء إنها جاهلية.. ولا يمكن القول إنها كافرة.. ولا يمكن أن نجردها من الإسلام.

ولا يخالجنا أقل ريب فى أن دعوى: "الحاكمية الإلهية".. "الجاهلية"..

"العبودية لله" بمثل ما عرضها سيد قطب إنما هى صورة من صور الانحراف فى الدعوات الإسلامية.

إن الإسلام على نقيض ما يصورونه: فسيح، ومرن، ويقوم فيما يقوم عليه على العقل، ويستصحب فيما يستصحبه الشعب فضلاً عن أنه إنما أنزل للإنسان..

وأى دعوة إسلامية تتجاهل العقل والشعب والإنسان والحرية فإنها تعمل لحساب الجهل وتقع تحت رحمة الغباء والاستغلال.

ولكن الأمر ليس بأمانينا..

وقد أراد الله لسيد قطب أن يظفر بتاج الشهادة..

لقد كان طبيعيا أن تضل هذه الفكرة الساذجة – رغم جاذبيتها – مجموعات من الشباب تأخذ بها وتعمل لها وتظن أنها تعمل فى سبيل الله فى حين أن ما تعمله قد يدخل فى باب الجريمة وليس فى باب القربى إلى الله. وأنهم لم يجددوا فى الفكر الإسلامى وإنما انحرفوا به إلى المتاهات الضالة.

ولكن هى مأساة التاريخ، وما حدث اليوم هو صورة طبق الأصل لمأساة "الحاكمية الإلهية" عندما نادى بها الخوارج أول مرة، وأضاعوا على علىّ بن أبى طالب نصر صفين، ثم قتلوه فانفسح المجال أمام معاوية لينهى الخلافة وليدخل الحكم السلطوى الوراثى المستبد.

الدكتور حسن الترابى

اعتبر الدكتور حسن الترابى حينا من أبرز الشخصيات الواعدة فى التجديد الإسلامى. فهو من السودان المعروف بإسلامه الخالص، وشعبه الطيب وقد تربى فى أفضل مدرسة تربوية إسلامية هى الإخوان المسلمين فأحكم تنظيماتها وبرز فيها وتزود بثقافة أوروبية فى إنجلترا وفرنسا ونال درجة الدكتوراه، ولكنه كان أكثر ذكاءً – وكذلك أكثر طموحاً – من الإخوان فأنشق عنهم وألف تنظيمه الخاص واكتسح هذا التنظيم المجتمع السودانى المسلم، ولكن اقتران الذكاء بالطموح يؤدى فى كثير من الحالات إلى الكوارث ما لم يضبط بمعايير الشرع وضوابط الحكمة. وهذا فيما يبدو ما لم يلتزم بها الدكتور الترابى وبعد حياة عاصفة، ومشاركة كبيرة فى حكم النميرى وصل فيها إلى منصب النائب العام ونظم فيها المسيرة المليونية التى كشفت لنميرى عن خطورته شب بينهما شقاق عنيف ولجأ الترابى الذى كان بالإضافة إلى علمه بتنظيم الإخوان عليما بأساليب الحزب الشيوعى السودانى الذى كان يعد من أكبر الأحزاب الشيوعية فى المنطقة. إلى سلسلة من التكتيكات السياسية وصلت إلى القمة عندما اتفق مع مجموعة من الضباط الذين كان قد استمالهم لدعوته للثورة على حكم الصادق المهدى الذى كان يحكم بطريقة الديمقراطية الحزبية واتقن الترابى خطته بصورة لم يكن ميكيافلى نفسه ليخرجها بصورة أكثر إحكاماً فقام الانقلاب وفيض على الترابى فيمن قيض عليه من الزعماء (باتفاق سابق وكجزء من الخطة الميكيافيلية) وبعد فترة أطلق سراحه وقام تعاون وثيق ما بينه وبين قائد الثورة. واعتبر الترابى المنظر الفكرى والأب الروحى للعهد ولكن ذلك الذكاء والطموح أوجدا من الشقاق بينه وبين قائد الانقلاب ورئيس الدولة مثل ما أوجده ما بينه وبين الإخوان وبينه وبين نميرى وقام عداء حاد وخصومة عنيفة ما بين القائد "الشرعى" للحكومة وما بين فيلسوفها ومنظرها يشبه ما قام بين "تروتسكى" وستالين وكان الترابى خلال تمكنه من السلطة قد دعم تنظيمه الشعبى الخاص بحيث استعصى على رئيس الدولة أن يقتلعه واحتفظ الترابى بصفة مكنته من التفاوض مع عدوه اللدود جارانج "زعيم حركة الانشقاق والذى كانت تدعمه الولايات المتحدة وإسرائيل واعتبره كل وطنى سودانى عدواً للسودان. ونصب الترابى نفسه كتائبه

لحربه، ولكن السياسة لا عهد لها ولا إيمان وهكذا مد يده ليد خصومه فى الوقت الذى كانت حكومته تحاربه..

لا يتسع المجال للحديث فى هذه المأساة التى مزقت السودان وشقت وحدته إن ما نريد منها هو العظة، وأنها تجربة أخرى فاشلة من تجارب مشروع "الدولة الإسلامية" أو "المشروع الحضارى للدولة الإسلامية" فلم تقم دولة الترابى بمحو الأمية أو تحقيق العدالة أو إنصاف الفقراء أو تعميم الحرية، لقد كانت حكما عسكريا غشوماً أضافت إلى السودان ما لم يعهده فى أى حكم سابق التعذيب و"بيوت الأشباح".

ما يثير الانتباه أن الترابى على ثقافته وخبراته لم يقدم فكراً تجديديا إسلاميا أصيلاً يتناسب مع ذلك فقد أصدر كتابا كبيراً عن "الإيمان" وأرخ لحركة الدعوة الإسلامية فى السودان وصدرت كتيبات عديدة تلخص بعض محاضراته، منها كتيب عن تجديد أصول الفقه فى قرابة 80 صفحة تضمن إشارات بارعة، منها الأثر السيئ للمنطق الأرسطى على الفقه الإسلامى". ولكن كان ينتظر من فيلسوف التجديد الإسلامى أن يقدم مشروعاً متكاملاً مؤصلاً ولعله كان قديراً على ذلك لولا أنه شغل وقته كله فى المناورات السياسية. وأنه لم يرب اتباعه تربية تحررية وإنما تربية شيخ الطريقة لمريديه. ولفت نظرى أن كتاباته لا تدل أقل دلالة على أثر الحضارة والثقافة الحديثة عليه، أو أنه يستلهمها ويستفيد منها رغم دراساته فى إنجلترا وفرنسا التى يغلب أنها مرت على فكره كما يمر الماء على صفوان ينزلق عليه ولا يترك أثراً..

إنها قصة مأساوية مؤلمة تضاف إلى مصارع الإسلاميين الذين استهدفوا الحكم لقد خسرته الدعوة ولم تكسبه السياسة، وجنى على وطنه.

قاسم أميـن

رائد تحرير المرأة، والرجل الوحيد فى مصر الذى تبنى قضيتها وجعلها قضيته وأفرد لها كتابين هما "تحرير المرأة" الذى صدر سنة 1899 و"المرأة الجديدة" الذى صدر بعد ذلك بعامين ينتمى إلى أسرة كردية استوطنت مصد وبعد دراسة فى مدرسة الحقوق أوفد إلى مونيليه فى فرنسا وعاد إلى مصر ليشغل عدداً من المناصب القضائية.

كان قاسم أمين من أخلص أتباع الشيخ محمد عبده شأنه فى هذا شأن سعد زغلول وحافظ إبراهيم ورشيد رضا ممن كان يطلق عليهم "حزب الإمام" وكان قد تأثر بدرجة تقدم المرأة الفرنسية عندما كان فى فرنسا وأراد للمرأة المسلمة أن تتحرر من أسوأ ما فرضته عهود التخلف عليها من نقاب كثيف، وحرمان من التعليم وإبعاد لها عن الحياة.. كان قاسم أمين خاصة فى كتابه الأول تحرير المرأة لا يريد أكثر من منحها التعليم وأن تلتزم بحجاب لا يكشف إلا الوجه واليدين وأن تمنح لها فرص العمل. ومع تواضع هذه المطالب فقد أثار الكتاب ضجة كبيرة، وقاطعت قاسم أمين معظم الهيئات بما فى ذلك القصر الخديوى ولم يثبت معه إلا القليل. وكان فى كتاب "المرأة الجديدة" أكثر جرأة مما يوضح أن الثورة عليه لم توهن من عزيمته..

ولا شك فى صدق وإخلاص قاسم أمين، وقد عرف عنه الأدب والحياء والعفاف وصدق الوطنية. وكان من عمد "الجامعة المصرية" القديمة.

ومن حق قاسم أمين أن يشغل مكانا متقدماً فى ركب التجديد الإسلامى. لأنه كان الرائد فى تحرير المرأة المسلمة من غشاوات الجهالة والتقليد التى فرضت عليها باسم الإسلام وشلت قدراتها وحريتها وحقها فى الحياة الكريمة.

وكان قاسم أمين وطنياً صادقاً، وله مواقف مأثورة وهو صاحب الكلمة "رأيت قلب مصر يتحرك فى مناسبتين. دنشواى وجنازة مصطفى كامل.

الأستاذ إبراهيم الوزير

ينتمى الأستاذ إبراهيم الوزير إلى أسرة بن الوزير الذى أشرنا إليه بين المجددين فى الفصل الأول من هذا الكتاب وهو بن على بن الوزير شهيد ثورة الميثاق التى نشبت باليمن سنة 1968 وأرادت تحرير اليمن من حكم الإمام يحيى حميد الدين المغلق وكان على بن الوزير هو أقوى شخصية فيها. فلما فشلت الثورة قبض عليه وعلى كل آل الوزير وقتل الرجال البالغون، بينما زج بأطفالهم – ومنهم إبراهيم – فى السجون حتى أراد الله أن يفرج عنه، فيسافر إلى مصر ثم انتهى به المطاف إلى الولايات المتحدة وجدة فى السعودية. وفى سنة 1960 أسس الأستاذ إبراهيم "اتحاد القوى الشعبية" يهدف إلى أن يقوم الحكم على الشورى والتعاون، وأن يعمل لتعزيز كرامة الإنسان وإشاعة الأمن والأمان وتحقيق الحرية فى الفكر والحوار مع الآخر والانفتاح على العالم..

وللحزب صحيفة أسبوعية هى "الشورى" وكذلك "صوت الشورى" والأولى اخبارية عامة والثانية ثقافية وهما معا من أفضل صحف المعارضة فى اليمن وقد صادرتها السلطات لمصادرة الدولة. لصدق وصراحة معارضتها للحكم العسكرى فى اليمن.

وما يجعل للأستاذ إبراهيم الوزير حقاً بين المجددين هو فهمه المتحرر للإسلام، وإيمانه بالحرية والعدل، والشورى والتعاون وتقديسه لقضية الإنسان وعمله لتأصيل ذلك على أسس من المذهب الزيدى بوجه خاص، وقد صور ذلك فى عدد من الكتب مثل "على مشارف القرن الخامس عشر" و"الإمام الشافعى" و"منهج الدعوة فى العهد المكى" الخ...

الشيخ سيد سابق وكتابه "فقه السُنة":

كان الشيخ سيد سابق من الرعيل الأول من الأزهريين الذين التحقوا بالإخوان ونالوا ثقة المرشد العام بحيث ضمه إلى "النظام الخاص" وأصبح بمثابة "المفتى" له.

وكان من الأمور التى أزعجت الإمام البنا رحمه الله أول عهده بالدعوة الخلافات المذهبية التى وصلت لأن يكون لكل مذهب جماعة خاصة فى المسجد، ولأن يثور النزاع بين الذين يرسلون أيديهم فى الصلاة ولا يقبضونها على صدورهم أو يجهرون بالبسملة إلى آخر ما عرض له الإمام الشهيد فى مذكراته، ولذلك عُنى بالقضاء على

هذه الخلافات المذهبية، بأن يقفز فوقها إلى "فقه السُنة" وعهد إلى الشيخ سيد سابق بوضع كتاب باسم "فقه السُنة" وكان الشيخ هو ابن بجدتها، وخير من يقوم بها. فوضع كتابه وكتب له الإمام الشهيد مقدمته، وبورك فى هذا الكتاب ورزق شهرة مدوية بحيث كاد أن يوجد فى كل بيت مسلم تقى، وقام الكتاب بمهمته ووجد فيه من اقتنوه خير مرجع يريحهم من الخلافات المذهبية ويضعهم أمام عمل الرسول حتى وأن أخذ الشيخ بما قرره علماء الحديث من مراتب الصحة التى تحتاج إلى نظر لأن نطاق السلفية التى هيمنت على الفكر الدينى – بما فيه الإخوان – ما كان ليسمح بمراجعة فى هذا الشأن..

كانت تلك ولا ريب خطوة متقدمة وتعد مساهمة – ولو محدودة – فى التجديد وأتصور أن لو طال بالإمام الشهيد عمر لكلل عمله بكتاب عن "فقه القرآن" وكان هذا يمثل قمة التجديد، ولو بالنسبة لمرحلة السلفية الميسرة التى جعلها الأستاذ البنا "منهج حياة".

وكان بينى وبين الشيخ سيد رحمه الله مودة تصل إلى الصداقة. وكان زميلى فى جلسات قبل حل الإخوان الأول. كما كان جليسى فى معتقل الطور وأذكر أنه قال لى ليلة إن قلبه منقبض فهونت عليه، وافتقدته فى الصباح فقيل لى "لقد أخذوه فى موهن من الليل" وكانت تلك هى أيام التحقيق فى مقتل رئيس الوزراء النقراشى الذى أصدر قرار الحل وقتله أحد أعضاء النظام الخاص فى ردهة وزارة الداخلية بعد أن أرتدى زى ضابط. واتضح فيما بعد أن الشيخ قد أفتاهم بشرعية هذا العمل وعندما قبض عليه هللت الجرائد بالقبض على "مفتى الدماء" ولكن الله تعالى أنقذه فى المحاكمة فخرج بريئاً.. وذهب بعد ذلك إلى السعودية حيث كان محل التقدير.

الشيخ محمد الغزالى السقا

كان الشيخ محمد الغزالى من أوائل المجموعة الأزهرية التى انضمت إلى الإخـوان أول عهـدها، وقد كتب فى صـحفها الأولى ولعل ذلك يعـود إلى 1936، وكـان موهوبا ككاتب إسلامى صـحفى، وكخطيب يعلم ويقـدم أفكـاراً. كما كـان سـيال القلم وأصـدر عــدداً كبــيراً من الكتب الإســلامية كلها ذات فكر متفتح، يرتفع عن مســتوى ما يكتبه الفقهاء التقليديون.

وخلال نظر قضية مقتل د. فرج فودة عام 93 استدرج الدفاع الشيخ الغزالى الذى طُلب شاهداً يسأله عمن ينكر الشريعة وهل يعد مفارقا للجماعة ومرتداً عن الإسـلام. فأجاب بالإيجاب فسألة الدفاع وما حكم هذا المرتد شرعاً فأجاب الشـيخ يسـتتاب وإذا لم يرجع يقتل، هذا رأى الفقهاء. أما أنا فأرى أنه يجـوز للحـاكم إيداعه السـجن. ومـرة أخرى سأله الدفاع عما إذا كان أحد الأفراد قام بقتل هذا المرتد فقال إنه يكون مفتاتـاً على السلطة فسأله الدفاع هل هنـاك عقوبة على هـذا الافتيـات فقـال "لا أعلم له آية

عقوبة فى الإسلام" وكانت هذه الشهادة بمثابة تبرئة لقاتل فـرج فـودة وأثـارت العديد من الأقاويل على صفحات الصحف[18].

وفى السنوات الأخيرة من عمله، وبتأثير إعمال الفكـر، وتطـور الـدعوة الإسـلامية تنبه إلى خطأ الاعتمـاد على الأحـاديث الضـعيفة وجعلها أصـولاً لمبـادئ عديـدة وانتقد عدداً من الأحاديث التى كانت محل القبول، وبهذه الخطوة، أثار الشيخ الغـزالى فكـرة إعادة النظر فى الحديث ومنزلة السُنة من القرآن الخ... بشـكل جـاوز النهج التقليـدى وأثار عليه ذلك ثائرة "حشوية" المحـدثين وصـدرت فى السـعودية وغيرها بضـعة كتب فى الرد عليه والتنديد به، ومع أنه لم يتعمق ولا أتسع له العمر للمواصلة. فـإن صـدور ذلك منه كان له أثر كبير، لأن من الصـعب اتهـام الشـيخ بما اتهم به كل الـذين تنـاولوا هـذا الموضـوع. لقد كـان له من سـابقته وكفاحه ما ينزله منزله الاحـترام.. وهـذا فى نظرى هو ما يجعله يسـتحق مكانـاً بين المجـددين، وأن كـانت كتاباته كلها وتكـاد تصل للخمسين ذات اتجاه تجديدى.

محمد أسد

محمد أسد – ليبولد فـايس قبل إسـلامه يمثل لنا إضـافة فريـدة فى تجديد الفكر الإسلامى فهذا النمساوى اليهـودى الـذى ألم بثقافـات عصـره وزاد عليها حسه الـدينى اليهودى وخبراته فى معترك الحيـاة الـتى كـان آخرها العمل كمنـدوب صـحفى لإحـدى الصحف الألمانية الكبرى يمثل لنا الطرف المقابل للمسلمين الذين انبهـروا بالحضـارة الأوروبية. إن ليبولد فايس أعجب حتى حد الانبهار بالحضارة الإسلامية بحيث كـان قبل أن يعلن إسـلامه "مسـلما دون أن يعـرف" وقد جعل ثقافته الأوروبيـة، وخبراتـه، فى خدمة الإسلام وكان من الأوروبيين القلائل الناقدين للحضارة الأوروبية الذين يرون أنها رغم كل أمجادها العلمية والمادية أهملت قوى الوجدان والضمير التى لا تبلغ كمالها إلا عندما تكـون موصـولة بالله ومن هنا فإنه فى الـوقت الـذى أفـاد من ثقافاته الأوروبية وأحسن فهم الإسلام، فإنه حذر المسـلمين من الاسـتهواء بالحضـارة الأوروبية وكشف لهم عن جوانب الزيف فيها. وقد كان هدفه الأسمى هو تقـديم الإسـلام كمنهج حيـاة – وهـذا هو ما حاوله فى الفـترة نفسـها حسن البنا – ولكن حسن البنا استشـهد وهو فى أوج الشباب بينما أنسأ الله تعالى لمحمد أسد فى العمر..

واعتقد أن محمد أسد هو أفضل مجــدد فى مجــال الفكر الإســلامى أظهره العصر الحديث لأن تجديـده اتسم بالصـدق والأصـالة، ولأنه بفضل ثقافته الأوروبية استكشف سر الإســـــلام وروحه ونظامه الفـــــــردى والاجتماعى. وقد كان الوحيد الذى أحكم العربية، بل إنه عاشها بين الأعـراب ما بين نجد والمدينة ومكة وجدة، ولهذا كان أقدر من يقدم تفسيراً لمعانى القـرآن بالإنجليزية قدمه باسم "رســـالة القـــرآن" فى مجلد ضـــخم. كما أن روايته التاريخية الطويلة "الطريق إلى مكة" تعد "ملحمة" أدبية تاريخية.

[18] **(18) لقد عالجنا هذا الموضوع بتفصيل فى كتابنا كلا ثم كلا. كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير الصفحات من ص71 إلى ص91**

ومن أفضل كتبه "الإسلام على مفترق الطـرق" الـذى كـان يدرسه فى الأربعينـات شباب الإخوان المسلمين – وكذلك كتاب "منهـاج الإسـلام فى الحكم"، وقد تنبه إقبـال إلى نبوغه وأقنعه بـأن يكف عن التجـوال ويشـارك فى بنـاء باكسـتان الوليـدة فأمضى سنوات عديدة فيها، ولكن باكستان كانت قد وقعت فى أيدى الساسة المحترفين، فلم يستفيدوا من توجيهات أسد التى كانت وحدها – لأننا نستبعد التوجيهات التى قدمها أبو الأعلى المودودى – يمكن أن تحقق لباكستان وجوداً إسلامياً حقيقياً.

واعتقد أن المجتمع الإسلامى لم يسـتفد من كتابـات أسد بالدرجة الواجبـة، مع أن وضـعه فى قضـية التجديد كـان وضـعاً فريـداً، ولم يوجد من يقـوم به من بعـده أو من يماثله فيه.

الشيخ محمود شلتوت

كان الشيخ شلتوت من أكثر شيوخ الأزهر اجتهاداً وإعمـالاً لفكـره. وقد كشف عن نبوغه عنـدما كـان وكيلاً لكلية الشـريعة عـام 37 وتقـدم إلى مـؤتمر القـانون الـدولى المقـارن الـذى عقد فى لاهـاى (هولنـدا) ببحث عن "المسـئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية" أثار دهشة واهتمام المجتمعين وكان من نتائجه أن أصدر المــؤتمر قرارات باعتبار الشريعة الإسلامية من أهم مصادر التشريع العام وأنها صـالحة للتطـور واعتبارها قائمة بذاتها.

وفى سنة 1960 نشر الشيخ شلتوت فى مجلة الأزهر رأيه عن الربح الــذى تقدمه مصلحة البريد للمودعين فى صناديق توفيرها وهو أنه حلال "ذلك أن المال المــودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه وإنما تقــدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعاً مختاراً ملتمسا قبول الخ...

على أن الشيخ لم يقتصر على فائدة صـناديق التوفـير فى مصـلحة البريـد، بل إنه تحدث عن فوائد البنوك بما يوحى بأنها ليست هى المقصـودة من الربا المحـرم. وقيل إن الشــيخ قد رجع عن آرائــه، ولكن مــدير مكتبه الأســتاذ أحمد نصـار أنكر أن يكــون الشيخ قد رجع عن آرائه. وقد طبعت فى كتابات فى أخريات حياته.

على أن الفتـوى الـتى فـاقت هـذه الفتـاوى كلها فى جـدتها وأصـالتها هى بلا شك الفتوى التى أصدرها بأن المذهب الأثنا عشرى (الجعفرى) مذهب يجوز التعبد به أسوة ببقية المذاهب المتبعة والمقررة، وكـان الشـيخ قد ناصر فى القـاهرة مكتب التقـريب بين المـذاهب الإسـلامية الـذى أسسه فى ثلاثينـات القـرن الماضى السـيد تقى الـدين القمى، وأيـده مع الشـيخ شـلتوت جماعة من الشـيوخ مثل الشـيخ عبد المجيد سـليم ومحمد على علوية، والشيخ مصطفى عبد الرازق ومثل الإمام حسن البنا الخ...

وكـانت هـذه الفتـوى من أهم الـدواعى الـتى أدت إلى التقـريب بين شـقى الأمة الإسلامية السُنة والشيعة، وأوجدت جسراً للتلاقى والتفاهم المشترك بدلاً من العداوة والانقسام.

ويمكن القول إن الشيخ محمود شلتوت يعد من أنبغ تلاميذ محمد عبده، وأنه وصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه شـــيخ أزهـــرى ثقافته أزهرية خالصـــة، ولو نهل من الثقافة الأوروبية فربما وصل إلى ما يماثل مستوى الشيخ محمد عبده.

روجيه "رجاء" جارودى

هذا مفكر من "الوزن الثقيل" وهو فى هـذا يختلف عن محمد أسد الـذى كـان يلم بالثقافات التى يلم بها المثقف الأوربى النمطى، إلا أنه ليس الأستاذ المبرز، أو المفكر الذى يمضى كل سنوات عمره فى الفكر والفلسفة.. كما كان جارودى، وكان جـارودى فرنســيا نمطيــا، وماركســيا أيضــاً ووصل إلى عضــوية اللجنة المركزية فى الحــزب الشيوعى، وكان يمكن أن يصل إلى رآستها لولا أنه فى هذه اللحظة بالذات بدأ يتراجع عن الماركسية، ثم أخذ هـذا الانسـحاب يتسع ليصل فى النهاية إلى أن يعلن إسـلامه.. وأن يصـبح أكـبر ناقد للحضـارة الأوروبيـة، وأكـبر من يكشف إفلاس السياسة العالمية التى تقودها أمريكا..

ولهذا الانتقال بعض المناسبات الشخصية التى جعلته يعيد النظر فى الفلسفة التى أمضى حياته فى دراســـتها، وفى الفكر الماركسى الـــذى مارسه ولعله يـــدين بحياته للإسلام. فقد كان مع مجموعة من الفرنسيين الثائرين على حكم "فيشى" فـاعتقلوهم فى معتقل فى الجزائر، وهناك قاموا بمظاهرة أغضبت قومندان المعتقل الذى أنذرهم مشدداً بالعودة إلى الزنازين وإلا فسـيطلق عليهم النـار. ولما رفضـوا أمر القومنـدان جنوده الجزائريين بإطلاق النار، ولكنهم رفضوا رغم ثـورة قائـدهم. وقـال أحـدهم فيما بعد لجارودى "أن إطلاق النار على أعزل يخالف آداب الإسلام".

تلك الحادثة أيقظت جذراً كـان كامنـاً فى نفسه ولعله "النقيض الجـدلى" لما كـان يـدعو إليـه، أيقظ فى نفسه الإنسـان الكـونى، الإنسـان الـذى يكـون له من عقيدته ما يرفعه فوق النظم والأوضاع ورأى أن هذا لا يوجد إلا فى الأديان، وإلا فى الإسلام بوجه خاص.. فنـام جـارودى العملى/ المـادى ليتيقظ جـارودى النفسى والوجـدانى وسـاعده على هذا الانتقال ملكة فنية كانت مغروسة فيه. وهكـذا وشـيئاً فشـيئاً أصـبح جـارودى داعيا للحــوار بين الحضــارات، وأصــبح مؤمنا أن الأديــان كلها ذات أصل واحــد، وأن الحضارات أيضاً كلها انتهت فيما وصلت إليه الحضارة، وبوجه خاص الحضارة الإسلامية الـتى قـدمت إلى أوروبا فى قرونها الوسـطى ما انتشـلها من وهـدتها وما هـداها إلى التقدم وما كان أساساً فكرياً وعملياً لنهضتها، وكما أنه فى فترة كان مدينا بحياته إلى الجزائـريين، فإنه أعـاد هـذا الجميل عنـدما جـاء هـداً "الغـريب" على حد قـول محمد البخاوى ليعرف الجزائريين على ثقافتهم الوطنية التى حرمها عليهم الاستعمار.

وكـان لإسـلام جـارودى ضـجة كبـيرة، واعتـبر انتصـاراً للإسـلام. ولكن الحقيقة أن العـالم الإسـلامى لم يسـتفد من فكر جـارودى لأنه كـان يتحـدث إليه بلغة فرنسـية، وبأسلوب وأمثال كلها فرنسية/ أوروبية. ولأن مثاله الأعلى وجده فى أبيـات إبن عـربى الخالدة.

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
فقد صار قلبى قابلاً كل صـورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبــان
وبيت لأوثـان وكعبـة طائـف ... وأمواج توراة ومصحف قـرآن
أدين بديـن الحب أنى توجهت ... ركائبه، فالحب ديـنى وإيمـانى

ولم ير جارودى أن إسلامه يحـول بينه وبين المسـيحية، بل وبين بعض الإسـهامات البارزة للماركسية.

أراد جارودى عالما يكون من "الله أكبر".. أكبر من المال، ومن الثراء، ومن النفوذ ومن السلطة، ومن الله تنبثق القيم والمثل العليا التى تهدى البشرية.

لم يكن هذا الهدف بالهدف الذى يروق المؤسسة الدينيـة، ولا الفقهـاء التقليـديين، لـذلك لم يحـدث تلاقى حقيقى بين جـارودى وبين الفقهـاء، بل حـدث جفـاء زاد فيه ما تنوقل من أنه أعترف أنه لا يرى بأسا بأن يشرب كأساً من الخمر.

إنه لمن الطــبيعى أن يعجز الفقهــاء التقليــديون النقليــون عن تقبل مثل هــذا أو التفريق ما بين فكر الداعية. ومـدى التزامه الشخصى بـالطقوس والشـعائر، فـالمفكر عادة رجل حـر، وروح الحرية تحلق فوقـه.. ولا يسـتبعد أن تبعـده شـيئاً عن الطقـوس المقررة. لأن المهم هو فكره لا سـلوكه الشخصى قد يستسـلم لبعض الضـرورات. إن الأنبياء وحدهم هم الذين يتوحد سلوكهم ودعوتهم بحيث يكونون قدوة أما غـيرهم فـإن الســلوك لــديهم يتفــاوت صــعوداً وهبوطا ولا يكــون علينا أن نحاســبهم عليه لأنهم كمفكرين – إنما يهمنا ما يقدمونه من فكر، أما سلوكهم الشخصى فهذا أمر بينهم وبين الله الذى يعلم من خفايا النفوس ما لا نعلمه..

لم يستفد التجديد الإسـلامى من فكر جـارودى لأن حديثه لم يكن ليفهمه تمامـاً إلا من لديه "خلفية" من الثقافة الأوروبية، وهـؤلاء عـادة ممن يعزفـون عن الإسـلام ولأن اجتهاداته أسـقطت من اعتبارها كل المــذهبيات والجزئيــات مع أنه أفضل من عــرى الحضارة الأوروبية، وأفضل من عرف المسلمين بأن هـذه الحضـارة ليست هى القـوة التى لا تقهر، ولا المثل الأعلى الذى يفوق أى مثل آخر. وكان من شـأن هـذا أن يقـوى عزائم المسلمين ويبعد عنهم "الـوهن" كما عـرى إسـرائيل وكشف زيفهـا، مما عرضه للمحاكمة أمام محكمة فرنسية أدانته.

لقد أختار روجيه جارودى لنفسه بعد إسلامه اسم "رجاء" بـدلاً من "روجيـه" ولعله كان ملهما، فإن فكرة رجاء ترنو إلى المستقبل. فـإذا لم يسـتفد منه الجيل المعاصـر، فسيكون له – مع ارتفاع المستويات الثقافية للمسلمين – يـوم، وسـيؤدى دوراً عنـدما يزداد المسلمون فهماً لدينهم.

الأمير شكيب أرسلان .

الأمير شكيب أرسلان الذى أطلق عليه "أمير البيان" ولد بقرية الشـويفات اللبنانية عــام 1296 هــ 1869 ميلادية تعلم القــراءة وحفظ بعض القــرآن ثم التحق بمدرسة

الحكمة المارونية ثم انتقل إلى المدرسة السـلطانية وفيها درس الفقه على يد الإمـام محمد عبـده الـذى كـان منفيا فى سـوريا وألتقى بالسـيد جمـال الـدين الأفغـانى فى الأسـتانة وسـافر إلى بـاريس حيث ألتقى بشـوقى وعقد معه صـداقه وثيقة وهو الـذى اقترح عليه أن يكون اسم ديوانه "الشوقيات" واستقر حينا بتركيا، وكان من المجموعة التى تناصر قضية الجامعة الإسلامية وبقاء العلاقة مع تركيا. وتعرف على قـادة الاتحـاد والترقى ولكن سياستهم العنصرية وخاصة جرائم جمـال باشا فى سـوريا أفقدته الأمل فيهم. فعاش ما بين الحربين متنقلاً فى الـدول الأوروبية وخاصة جـنيف وسـاهم بقلمه واتصالاته فى الحركات الاستقلالية والنهضوية فى العالم العـربى وحـرمت عليه فرنسا زيـارة موطنـه. كما قـام خلال هـذه الحقبة بزيـارة الأنـدلس والصـلاة فى مسـاجدها القديمة التى حولت إلى كاتدرائية ووضع مادة كتابه "الحلل السندسية" فى ثلاثة أجزاء واشترك فى وفد الصلح ما بين بن سعود والإمام يحيى ملك اليمن وفى عـام 37 وبعد إحـدى وعشـرين سـنة عـاد إلى وطنه حيث عينته الحكومة السـورية رئيسا للمجمع العلمى العربى بدمشق وتوفى فى بيروت سنة 1946.

وتضم كتبه "تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا – الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسـية فى ثلاثة أجـزاء لمـاذا تـأخر المسـلمون". وديوانه وكتـاب شوقى أو صداقه أربعين سنة، وكتابه "رشيد رضا وأخوة أربعين سنة".

يعود نصيب شـكيب أرسـلان فى التجديد الإسـلامى أنه وهو الـدرزى كـان مسـلماً أفضل من المسلمين النمطيين. وكتابه لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم كان مثـاراً لمناقشات عديدة. كما أن إضافاته إلى كتاب "حاضر العالم الإسلامى" هـذه الإضـافات الـتى زادت على الأصل قـدمت مـادة ممتـازة فى مختلف مجـالات المعرفة الإسـلامية وقد تضمنت من المعلومات التى حصلها ببحثه أو نتيجة لاتصالاته ما يجعل هـذا الكتـاب مرجعـاً لازمـاً لكل من يعـنى بحركة التجديد الإسـلامى وقد كـان كتـاب لمـاذا تـأخر المسـلمون من الكتب الـتى أثـرت فى الفكر الإسـلامى. أما كتابـاه عن شـوقى وعن السـيد رشـيد رضا فلا يمكن فهم شـوقى أو رشـيد رضا تمامـاً دونهمـا. وبوجه خـاص الثانى الذى ارتبط شـكيب أرسـلان به بلحمة عاطفية قويـة، فضـلاً عن أنهما أبنـاء بلد واحد وأنهما داعيان لقضية واحدة..

كـان شـكيب أرسـلان كـنزاً من المعلومـات الـتى حصل عليها من مصر والشـام وجـــنيف وفرنسا وتركيا وبفضل اتصـــالاته الوثيقة ومن حسن الحظ أن معظم هـــذه المعلومات وصلت البنا وأفادت فى قضية التجديد.

مالك بن نبى

هذا المفكر الجزائرى الذى ولد 1905 فى إحدى قرى الجزائر من أبوين مكافحين حرصـــاً رغم فاقتهما على تعليمه وعنـــدما أراد أن يكمل دراســـته العامة ســـافر إلى باريس، طالباً فقيراً رأى على واجهة محل إعلان عن تقديم وجبات بواقع أربع فرنكات للوجبة، فلم يتردد فى الدخول وأكتشف أن هـذا المطعم يتبع هيئة مسـيحية وأن عليه

أن ينضم إليها، وقبل هـو، وقبلـوه هم مع أنه مسـلم وأفادته رفقته تلك فى تفهم بعض الجوانب الحسنة فى المسيحية، كما تعرف أيضاً على شخصـيات يهودية أعطته فكـرة عن مفاتيح الشخصية اليهودية. وصـدم مالك عنـدما رفضـوا أن يـدرس الهندسة وكـان عليه أن يقنع باللاسـلكى، ولكن كـان من حسن حظه أن وفق إلى زوجة فرنسـية أسلمت وآمنت به.

عكف مالك على دراسة الإسلام فى ضوء ثقافاته وخبراته، ولم يكن لديه التأصـيل الذى يفترض تـوافره فيمن يتصـدى لهـذه المهمة بل إنه لم يكن يعـرف العربية عنـدما ذهب إلى القـاهرة فى عـام 1956 وهو فى الواحـدة والخمسـين وقد أتقنها بعد بل واختير عضواً فى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر..

وقد نلمس أثراً لـذلك فى كتابه "الظـاهرة القرآنيـة" الـذى كتبه بالفرنسـية فهو لا يورد كلمة من الكلمات التقليدية فى أى كتاب عن القرآن.

وفى إحـدى المناسـبات ألقى محاضـرة على مجموعة من الفرنسـيين "لمـاذا أنا مسلم" كانت شديدة العاطفية فتأثر بها معظمهم ولكن أحدهم قال له:

- **لماذا نلتفت للماضى فى الوقت الذى يهمنا هو المستقبل.**
- ومع أن هذه الملاحظة لمست فيه وتراً حساساً فقد انـدفع وكأنه ريح عاصـفة، وجاء فى كلمته **أن الروح تصنع المادة.**

وعانقه صالح بن يوسف الذى كان حاضراً إعجابا بهذه الكلمة.

واندمج مالك بن نـبى فى نشـاط حقبة كـانت حافلة بالأحـداث أو بشخصـيات مثل هتلر وغانـدى ومصـالى الحـاج مؤسس نجم شـمال أفريقيا كما اشـترك مع شـكيب أرسلان فى جنيف للعمل جاهداً لتكـوين نـواة وحـدة عربية من الشـباب النابـه، وكـان مالك بن نـبى هو الـذى يمثل الجزائـر، بينما كـان فريد زين الـدين (درزى يمثل سـوريا وعلال الفاسى وبلفريج يمثلان مراكش).

وكـانت القـاهرة هى مسـتقره، فهو لم يسـترح للعمل فى الجزائر وسط التيـارات السياسـية المتعارضـة، تركها وهو يحس إنها "أرض عاقـة" ووصل إلى القـاهرة 1956 وهو فى الواحـدة والخمسـين من عمـره فعينه السـادات وكـان وقتئذ الأمين العـام للمـؤتمر الإسـلامى مستشـاراً، وبـدأ يتقن العربيـة، وكـان قد وضع كتابه "الظـاهرة القرآنية" بالفرنسية، فترجمه له الأستاذ عبد الصبور شاهين ولكنه عاد إلى الجزائر بعد اسـتقلالها. وعين مـديراً للجامعة ونظم نـدوة للشـباب يقصـدها كل شـباب الشـمال الأفريقى وشارك فى المؤتمرات الإسلامية.

إن ما اسـهم به مالك بن نـبى فى التجديد الإسـلامى هو ما قدمه عن "شـروط النهضة" وفكرته عن الحضارة وفكرة "الكومنولث الإسلامى" وهى البديل الحديث عن الخلافة القديمة كما أن كتابه عن شـروط النهضة يمكن أن يعد محاولة لتأصـيل الحضارة، وإن كانت المعالجة عامة والمعادلة التى وضعها جاءت فى أسـلوبها العـربى ركيكة إنسان + تراب + وقت = حضارة. وكان يمكن صياغتها كالآتى:

إنسان + تاريخ + زمان = حضارة. وحتى عندئذ فهناك عوامل عديـدة ترتفق علي هذه المعادلة حتى تثمر الحضارة، وكـان رأى مالك بن نـبى فى قضـية المـرأة منصـفاً إلى حد كبـــير فهو لا يناصر النزعة الأوروبية كاملة ولكنه كـــذلك لا يتقبل الصـــورة التقليدية للمرأة فى الفكر الإسلامى الشائع من إيجاب للحجاب وتحريم للاختلاط، وإن كان قد أقر بعجزه عن تقديم الحل وارتأى أن تعالج بصورة جماعية فى مـؤتمر تعقـده نساء الإسلام. لأن قلم كاتب فى مقال أو كتاب يعجز عن البت فيها.

أما كتابه "الظاهرة القرآنية" فيعد فريداً فى المعالجات القرآنية، ولم يتضمن شيئاً من سقط المتاع التقليدى المقدس مثل الناسخ والمنسوخ وأسباب الـنزول الخ... وقد أراد به أن يثبت أن القرآن "ظاهرة كونيـة" وفند دعـاوى تـأثره بالمسـيحية أو اليهودية كما تضمن بحوثاً هامة عن الدين بصفة عامة.

محمد مصطفى المراغى

ولد بمديرية سوهاج سنة (1219هـ - 1881م) درس بـالأزهر وحصل على العالمية وهو فى سن ثلاثة وعشرين سنة وكان نابغاً، وكان أول النـاجحين رغم أنه كـان مريضا بالحمى، وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده الذى سأله عن تعريف العلم فأجاب الشـيخ المراغى بالرد التقليدى فرد عليه الشيخ محمد عبده العلم هو ما ينفعك وينفع الناس.

ترقى الشيخ المراغى فأصـبح قاضى قضـاه السـودان ثم عـاد إلى مصر فعين فيها قاضى قضاة مصر.

ويذكر له فى التجديد أنه حرر القضاء الشرعى فى مصر من الالتزام بمـذهب واحد هو مـذهب أبى حنيفـة، إذ أجـاز الأخذ بأحكـام المـذاهب الأخـرى فأخذ بمـذهب مالك والشافعى فى الحالات التى وجد أن فيها تيسيراً وبـذلك فتح بـاب التلفيق فى القضـاء الشرعى على مصراعيه، كما يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى حتى نـزه الطلاق عن أن يكـون حلفا تلوكه ألسـنة العامة وأشـباه العامـة، ومنع وقـوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد أو فى مجلس واحد كما كان يذهب إليه ابن تيمية، وأمر بتشكيل لجنة للقيام بهذا الإصـلاح أطلق عليها – لجنة تنظيم الأحـوال الشخصـية – ومما قاله فى افتتـاح عملها "إن إصـلاح القـانون إصـلاح لنصف القضـاء، أما إصـلاح النصف الآخر فهو بيد القاضى نفســه، لأن عليه أن يفهم الوقـــائع أولاً كما هى، بعد تلمس أدلتها ونقـــدها والموازنة بينها". وكان يقول لأعضائها: ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمـان والمكـان، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضـعتم. وهـذا يدل على مبلغ ما وصل إليه الشيخ المـراغى من الاجتهـاد فى الـدين، وهو يحمد له إذا قيس إلى جمهرة علماء الأزهر، وإن كان يؤخذ عليه أنه يقف به عند حد ترجيح مـذهب على مـذهب لموافقته للزمـان والمكـان، ولو لم يكن من المـذاهب الـتى جمد عليها المتأخرون من الفقهاء، ولا يجاوز هـذا إلى اسـتنباط أحكـام جديـدة ليست فى مـذهب من المذاهب المشهورة، ولكن خرقه الإجماع على تحـريم تقليد غـير المـذاهب الأربعة

مما لا يستهان به، لأنه ذلل به الطريق لمن يخرج عليها باجتهاده لا بتقليد غيرها من المذاهب"[19]..

وكان الشيخ المراغى دور كبير فى إصلاح نظم التعليم بالأزهر..

مجددون من الشيعة

أشار كاتب من المعنيين بالدراسات الشيعية إلى زعماء قدموا إضافات بارزة فى الفكر الشيعى مثل السيد محمد باقر الصدر مؤلف الكتابين الهامين "اقتصادنا وفلسفتنا فى ستينات القرن العشرين" وكذلك كتاب "البنك اللاربوى" سنة 1972 وهى كتابات لها أصالتها وموضوعاتها هامة وذات أولوية. ومثل السيد مرتضى المطهرى (وكل منهما نال شرف الشهادة) الذى يعد فكره أقرب الأفكار الشيعية إلى فكر على شريعتى، إذ هو يحاول أن يقرب ما بين الفكر الشيعى ومتطلبات العصر. وقدم عدداً من الكتب الهامة مثل "الإسلام وإيران عطاء وإسهام" ومثل "الدوافع نحو المادية" ومثل كتابين عن المرأة "الحجاب" "ونظام حقوق المرأة فى الإسلام".

فى الوقت الذى نعترف فعلاً بأثر هذين العالمين الجليلين على الفكر الشيعى ومحاولاتهما النهضة بالفكر الإسلامى بحيث يستطيع مجابهة مشكلات العصر. نقول مع هذا فنحن نؤثر أن نشير إلى فكر السيد محمد مهدى شمس الدين لأنه فيما نرى أكثر الكتاب الشيعيين ولوجاً فى قضية "عصرنة الإسلام" وأن أراءه فى هذا تماثل آراءنا إلى حد كبير، وأنها خضعت لعملية مراجعات منه نفسه فقد عارض العلمانية بشدة فى كتابه "العلمانية وهل تصلح حلاً لمشاكل لبنان" ولكنه عاد وتقبلها، فقد ظهر له "بحسب المبادئ العامة للشريعة أن الحضارة الإسلامية يمكن أن تنشئ مجتمعات مدنية، وبتعديل بسيط يمكن أن نسميها علمانية. وفى نفس الوقت تكون دينية أو مبنية على الشريعة. فإذا كان مفهوم المجتمع المدنى يعنى أن المجتمع يكون قادراً على بناء مفاهيم ومقولات فى تنظيم السلطة وتداولها **وفى إدارة الشأن العام وفقا للمعطيات الموضوعية البحتة، فإن المجتمع فى الإسلام يمكن أن يكون علمانياً أو مدنياً وفى الوقت نفسه مستنداً إلى الشريعة..** من هنا اعتبر أن المعركة حول مدنية الدولة الإسلامية ودينية الدولة الإسلامى هى معركة أشباح. يمكن أن نتصور ونرسم مخططاً لدولة إسلامية لا تفترق إطلاقاً عن أى دولة مدنية حديثة. فلنسمها علمانية، مع التحفظ على الخلفية الفلسفية للتشريع. يمكن أن نبنى مؤسسات المجتمع الحديث انطلاقا من حاجاته مع الحفاظ على السمات العامة التى تميز المسلم عن غيره. وخصوصية السمات الثقافية موجودة فى كل حضارة، ولدى كل جماعة فضلاً عن المجتمعات المختلفة. إن التجربة التاريخية الإسلامية تقف شاهداً على ما استنتجناه فى كلامنا من زاوية المنهج الأصولى الفقهى"[20].

---

19 **(19) المجددون فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى – 548.**

20 **(20) انظر "من التراث للحداثة" بقلم الأستاذ زكى الميلاد المركز الثقافى – الدار البيضاء المغرب – ص214.**

ومن المحتمل أن تعـود هـذه المرونة إلى أنه يتحـدث عن الوضع اللبنـانى المعقد والمتعدد الـولاءات، كما أنه تحـول من الانتصـار لمفهـوم الدولة إلى الانتصـار لمفهـوم الأمـة. فهو فى كتـاب "نظـام الحكم والإدارة فى الإسـلام" الصـادر فى 1955 ينتصر لمفهوم الدولة، ويتحدث عن حتمية الحكومة الإسلامية، ويبرهن بـأن الإسـلام مشـروع دولة وحكم ونظـام. أما فى كتابه "فى الاجتمـاع السياسى الإسـلامى" الصـادر فى 1992 فإنهينتصر لمفهـوم الأمة ويربط ما بين الإسـلام والأمة وليس الإسـلام والدولة كما هو منهج الإسلاميين الآخـرين. وليس هنـاك تلازم أو تـراتب حسب رأيه بين الحكم واستمرارية الإسلام، فقد لا يكون الإسلام فى الحكم، لكنه يكـون مسـتمراً فى الأمـة، وهذا هو الأساس. وأن الضرورة عنده هى فى وجود نظـام حكم، وهى ضـرورة فطرية وعامة يقتضيها الاجتماع الإنسانى، وليس بالضرورة أن يكون هذا النظام إسلاميا لـذلك فهو يناقش ما يطلق عليه بالمسلمة الفكرية عند الإسلاميين حول أن نظام الحكم لابد وأن يكـون إسـلاميا، وحسب قوله "يقـوم هـذا المنهج لـدى الإسـلاميين على مسـلمة فكرية تعتبر عنـدهم بديهيـة، وهى أن المسـلمين فى المجـال الوطـنى لابد وأن يكـون نظـام حكمهم إسـلاميا. بينما المسـلمة البديهية وفقـاً لهـذا " [illegible] مسـلم، على المسـتوى الوطـنى أو القـومى يجب بالضـرورة أن يكـون له نظـام حكم وحكومة يحفظانه، ويضمنان سلامته وتقدمه. أما أن يكون هذا النظـام وهـذه الحكومة إسـلاميين، فقضـية غـير مسـلمة وغـير بديهية كما هو الشـأن فى أى مجتمع سياسى معاصر خارج العالم الإسلامى"[21].

ومن الواضح تماماً الاتفاق بين ما ذهب إليه السـيد مهـدى شـمس الـدين وما ذهبنا إليه فى كتاب "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" ويغلب أن يكون هذا توارد خواطر نتيجة لانقطـاع التواصل الثقـافى ما بين الـدول العربيـة، ولعل كلا منا لم يطلع على ما كتبه الآخر ولعل الإضافة الهامة التى قدمناها هى مبدأ أن السلطة تفسد الأيدلوجيا (أو العقيـدة) مما جعلنا نمد آثـار تطـبيق ذلك على المسـيحية والاشـتراكية وليس الإسـلام فحسب..

ويحدث مثل هذا الاتفاق فى قضية المرأة، فـأن السـيد مهـدى شـمس الـدين يـرى أهلية المرأة لتولية الوظائف وأن "ما تسالم عليه الفقهاء من عدم مشـروعية تصـديها وتوليتها للسلطة دعوى ليس عليها دليل معتـبر" ويأمل أن يكـون هـذا الطـرح "حـافزاً للفقهاء على إعادة النظر والبحث فى بعض المسـلمات الفقهية بإعـادة النظر والبحث فى أدلتهـا. وفى طرائق الاسـتدلال وعـدم الاسترسـال فى الاتكـال على فهم فقهائنا القدماء لهذه الأدلة، وخاصة فيما يعود إلى دعاوى الإجماع، حيث يرى أنه ينبغى تقصيها لمعرفة حقيقتها".

---

[21] **(21) انظر المرجع السابق ص217.**

وأخيراً فأنه أثار الشكوك حول عدم إمكانية الإجماع وهى التى جعلتنا نستبعده كأصل من الأصول الأربعة وتحل محله العرف (انظر الجزء الثالث من كتاب نحو فقه جديد)..

ونحن نؤمن أن جزءاً كبيراً من هذه الروح التجديدية المنطلقة إنما يعود إلى المناخ الخاص بلبنان وما يتسم من انطلاق وتحررية فضلاً عن وضعه الخاص كشعب متعدد الأعراق والديانات وهو ما يبين انعكاس "المكان" على الرأى الفقهى.

ولا يجوز أن ننسى الإضافة التى قدمها **الإمام موسى الصدر – أو الإمام المغيب** – إلى الفكر الإسلامى وهى إبرازه التعددية فى الشرائع من داخل إطار وحدة الدين وتنبيهه المستمر والمركز على إن الإنسان هو محور الأديان وكما قال فى محاضرة فى جمعية الكبوشيين فى بيروت.

نحمدك اللهم ونشكرك ربنا إله إبراهيم وإسماعيل. إله موسى وعيسى ومحمد رب المستضعفين وإله الخلق أجمعين..

الحمد الله الذى يؤمن الخائفين، وينجى الصالحين، ويرفع المستضعفين، ويضع المستكبرين، ويهلك ملوكا ويستخلف آخرين.

وها نحن نجتمع بين يديك فى بيت من بيوت تنسب إليك، وفى أوقات الصيام من أجلك.

اجتمعنا من أجل الإنسان الذى كانت من أجله الأديان، وكانت واحدة آنذاك، يبشر بعضها ببعض، ويصدق أحدها الآخر، فأخرج الله الناس بها من الظلمات إلى النور بعد أن أنقذهم بها من الخلافات الكثيرة الساحقة والمفرقة، وعلمهم السلوك فى سبيل الله.

كانت الأديان واحدة حيث كانت فى خدمة الهدف الواحد دعوة إلى الله وخدمة للإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة.

ثم اختلفت عندما اتجهت إلى خدمة نفسها أيضاً، ثم تعاظم اهتمامها بنفسها حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف واشتد وازدادت محنة الإنسان وآلامه.

كانت الأديان واحدة تهفو إلى غاية واحدة حرب على آلهة الأرض والطغاة، ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة. ولما انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون وجدوا أن الطغاة غيروا اللباس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدأوا يحكمونهم باسم الأديان، ويحملون سيفها، فكانت المحنة المتعاظمة للمضطهدين، وكانت محنة الأديان والخلافات فيما بينها، ولا خلاف فى مصالح المستغلين.

كانت الأديان واحدة، لأن المبدء الذى هو الله واحد، والهدف الذى هو الإنسان واحد. والمصير الذى هو هذا الكون واحد. وعندما نسينا الهدف وابتعدنا عن خدمة

الإنسان، نبذنا الله وابتعد عنا فأصـبحنا خرقا وطرائق فـددا، وألقى بأسـنا بيننا فاختلفنا ووزعنا الكون الواحد، وخـدمنا المصـالح الخاصـة، وعبـدنا آلهة من دون اللـه، وسـحقنا الإنسان فتمزق.

والآن نعود إلى الطريق، نعود إلى الإنسان المعذب لكى ننجو من عذاب الله.

نلتقى لخدمة الإنسان المستضعف المسحوق والممـزق لكى نلتقى فى كل شـىء، ولكى نلتقى فى الله فتكون الأديان واحدة.

وفى هذه الساعة، فى الكنيسـة، فى أيـام الصـيام خلال موعظة دينية وبـدعوة من المسـؤولين الملـتزمين أجد نفسى فى وسط الطريق إلى جـانبكم أجد نفسى واعظا متعظا، قائلاً ومستمعا. أقول بلسانى واستمع بجنانى الخ...

لقد حاولنا فى هــذا الفصل ذكر معظم الــذين قــدموا إضــافة ممــيزة فى قضــية التجديد ولكننا لا نــدعى إننا قد ذكرناهم جميعاً فلا جدال فى أن هناك آخرين أسهموا وقدموا ولكن لم يتيسر لنا وسائل التعـرف عليهم بحيث نفيهم حقهم فى التسجيل.. كما رأينا أن الحـديث عن قـادة مثل السنوسى فى ليبيا والمهــدى فى الســودان قد لا يكــون فى صــميم التجديد الفكــرى للإســلام وأن كــان له دوره فى النهضة بالمجتمعات الإسلامية..

الفصل الخامس
لماذا تعثرت جهود الإصلاح فى العصر الحديث

كان المجددون المحدثون أسعد حظا من أسلافهم، ولكن لم يخل الأمر من عقابيل وقيود وصعوبات فقد تضخم الفقه العبادى خلال القرون التى انتهت بظهور العصور الحديثة واكتسب أئمة الفقه والحديث والتفسير قداسة وحصانة.. وأصبح الحلف بالبخارى لا يقل عن الحلف بالقرآن. وعادت الخرافات التى تصطحب بجهل الجماهير وظلم الحكام وهما طرفان ظللا المجتمع فى الدول الإسلامية وانتشرت الطرق الصوفية – وهى التنظيم الجماهيرى الوحيد الذى عرفة المجتمع الإسلامى – وسادت خرافاتها وكراماتها المزعومة والعالم الوهمى الذى فرضته فراراً من الواقع المظلم وصعب هذا كله من مهمة المجددين..

أما نظم الحكم فكانت تسير فى أذيال النظم القديمة ولا تعرف شيئاً عن التطور الذى ساد العالم وما انتهت إليه أوروبا من تقدم وعلوم واختراعات واكتشافات. وكل من يقرأ خطابات السلطان سليمان القانونى الذى يعد من أفضل سلاطين الترك إلى ملك فرنسا يرى أن السلطان العثمانى يسرد ألقابه ويخاطب الملك الفرنسى باستعلاء، ومن يراجع ما قاله مراد بك كبير المماليك للقنصل الفرنسى غداة وصول نابليون وتهديده أنهم سيمزقونهم بسيوفهم وستطأهم خيولهم وأن من الخير أن يعود ويمكن أن يقدموا له شيئاً... يعرف أن حكام هذا العصر المغلق كانوا يعيشون فى الماضى البعيد أيام انتصر المسلمون على الصليبيين لأن الجميع كانوا يحاربون بأسلحة واحدة سيفا لسيف ورمحا لرمح وفاتهم أن أوروبا توصلت إلى البنادق والمدافع والأساطيل. وعندما بدأ الاستعمار جولته، وأودى بهؤلاء الحكام فإنه فرض نفسه على بلاد الإسلام، وحاول بكل الطرق أن يقتلعها من جذورها، وان يفرق وحدتها، وأن يوهن من مقوماتها الخ... فإذا كان المجددون فى بعض الدول استراحوا من الحكام الجهلة الظلمة فإنهم وقعوا فى براثن الاستعمار المتوحش وكان عليهم أن يقاوموا قوى العصر...

هيمنة السلفية:

آل هذا التراث إلى العصر الحديث حاملاً اسم "السلفية" والسلفية كلمة مقدسة عند معظم الدعاة الإسلاميين المعاصرين وعند الدعوات الإسلامية، وهى فى بلاد كالمغرب لها مهابة واحترام تجعل الاقتراب منها محفوفاً بالخطر، وقد كانت هى التعبير الذى اختارته الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث للتعبير عن "هويتها". ولم يأت هذا من فراغ، وإنما هو يصور الأغوار الخفية لنفسية هذه الدعوات التى جعلتها تؤثر هذه الصفة وتفضلها على ما سواها مما يكون بالقطع أفضل كأن تكون "قرآنية" أو "محمدية" لأن هذه الدعوات وهى تمثل عالم التقليد أرادت من أعماقها أن ترفع

خسيسة هذا التقليد بإضفاء صفة لها تقديرها. لأن الأسلاف كان لهم من الأمجاد ما يؤثر تأثيراً طيباً، فى النفوس..

وليس فى تعبير الأسلاف ما يحدد – على وجه القطع – من هم الأسلاف، ولكن يغلب على الظن أنهم يبدأون بأئمة المذاهب الأربعة – وبوجه خاص بآخر هؤلاء الأئمة وأكثرهم تخصصاً فى الحديث النبوى وهو الإمام أحمد بن حنبل الذى أكسبه موقفه الثابت إزاء فتنة خلق القرآن شهرة شعبية عريضة. واكتسبت السلفية دفعة جديدة من القوة بظهور ابن تيميه فى القرن الثامن وكفاحه فى مقاومة الكثير من البدع والغشاوات والانحرافات التى تعرضت لها مسيرة الفكر الإسلامى، وفى العصر الحديث اكتسبت دفعة أخرى عندما تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب شيخ نجد مع أميرها الأمير سعود، ونتيجة لهذا التحالف اكتسبت الدعوة الوهابية قوة وبسطت نفوذها على الحجاز، بما فيه الحرمين الشريفين وأصبح لها دولة ترفع رايتها وتنشر مذهبها، وكانت الحجاز عندما بدأت الدعوة الوهابية فقيرة غاية الفقر، فلم يمتد نفوذها إلى ما سواها ولكن هذا الوضع تغير بعد أن اكتشف البترول إذ أصبحت دولة غنية، لا سيما بعد حرب 73 التى رفعت أسعار البترول أضعافا مضاعفة ومكنت "السعودية" من الاستحواز على ثروات طائلة أنفقت جزءاً منها على نشر فكرها، باعتباره الفكر الإسلامى الأصيل – طريق رابطة العالم الإسلامى التى قامت ببناء المساجد فى الدول الأوروبية والأسيوية وتزويدها بالأئمة والخطباء، والوعاظ والكتب مما أدى إلى نشر فكرها، بالإضافة إلى تأثر الأعداد الكبيرة من المصريين والسودانيين الخ... الذين هاجروا إلى السعودية فترة الرواج البترولى للعمل فى مشاريع التوسع بالفكر الوهابى. وهكذا تيقظت السلفية بعد أن هجعت من القرن الثامن الهجرى (أيام ابن تيميه) حتى العصر الحديث..

هذا عن الناحية التاريخية للسلفية، أما عن خصائصها الفكرية المذهبية فيمكن إجمالها فى:

أولاً: الإيمان بالمذاهب الأربعة والالتزام باتباعها تقليداً..

ثانيا: الالتزام بما جاء فى التفاسير المعتمدة لفهم القرآن واستمداد أحكامه ويتبع هذا الالتزام بالنسخ، وأسباب النزول وبقية ما يسمونه علوم القرآن.

ثالثا: الأخذ بالمعايير التى وضعها المحدثون فى مجالات الرواية والدراية وعلل الرجال والجرح والتعديل والإيمان بصحة ما جاء فى الصحيحين على الأقل.

رابعا: الالتزام بسيرة السلف الصالح فى خلائقهم وحياتهم وتقديرهم واعتبارهم مثلاً عليا والأخذ بأحكامهم إن لم يكن على سبيل التشريع فعلى سبيل الأسوة الحسنة.

وهذه الخصيصة هى من أقوى خصائص السلفية وأكثرها تأثيراً، وقد وصل توقير الأسلاف، خاصة إذا كانوا من الصحابة أو كبار التابعين درجة القداسة، وكأن صحبتهم طالت أو قصرت. أعطتهم نوعاً من العصمة التى تنسب إلى الأنبياء. وقد نرى مثالاً

عملياً و"رسميا" فى تحريم إبراز كبار الصحابة فى عمل سينمائى فإذا كان مبرر المنع مستساغاً للأنبياء فإنه لا يستساغ أبداً بالنسبة للصحابة كباراً أو صغاراً، وقد كانوا شخصيات عامة أدوا أدواراً هامة جداً وبعضها أدى لتقدم الأمة بينما انتكس البعض الآخر بها، وهذا تاريخ لا يمكن تجاهله ولا المجاملة فيه.

وعندما كنت فى مايو 2004 ألقى محاضرة فى جامعة فرانكفورت عن الخلفاء وانتقدت سياسة عثمان بن عفان وأنه لم يسلك مسلك سابقيه – أبى بكر وعمر – وكان فى الصف الأول من المستمعين إمام مسجد فرانكفورت عاتبنى بشدة بعد المحاضرة يا أستاذ جمال عثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة وقال فيه الرسول "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم وزوجه إبنتيه الخ... وعبثاً حاولت أن أوضح له أن ما قاله الرسول صحيح ولكنه لا يمنع من عدم توفر الكفاية الإدارية، إما بحكم السن أو بحكم حاشيته الخ...

وقد استطاعت السلفية أن تقصى الفلسفة التى حاولت أن تجدد فى الفكر الإسلامى بطريقة أو أخرى، وقهرت تلك الملل والنحل التى شاعت فى العصر العباسى وأشرنا إليها فى فصل سابق وانفردت بالهيمنة على الفكر الإسلامى متسلحة بحديث "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار" ومتدرعة بدرع "من أحدث فى أمرنا هذا شيئا فهو رد" فضلاً عن أحاديث عديدة عن فصل السلف عن الخلف. ثم جاءت قرون التقليد فزادت من قبضتها وعمقت من هيمنتها بحيث غلبت على كل حركات التجديد الحديثة.

وكانت هذه السلفية من القوى التى حالت دون أن يصل التجديد إلى قلب المشكلة، وقلب المشكلة هو أن السلفية كائنة ما كانت ورغم كل رومانتيكيتها وعاطفيتها، فإنها لا تصلح لهذا العصر ولا يكون فى الدعوة للتمسك بها إلا إبقاءً للمسلمين فى التخلف وتعويقا لهم عن اقتحام عالم العصر ومجابهة مشاكله والتعايش معه.. ولعل أكثر السلفيين رشداً هو أبو الحسن الندوى الذى كان يرى بعينه وعقله معجزات العصر، ولكن كان قلبه مع السلفية وكانت قدماه غائصة فيها فلم يقم بمثل الخطوة التى خطاها السيد أحمد خان والسيد أمير على" وبصفة عامة كل "المدنيين" من المفكرين الإسلاميين وهكذا فإن السلفية فى الوقت الذى عززت فيه جهود السلفيين وأكسبتهم نفوذاً فإنها عوقت جهود المدنيين الذين كانوا يريدون تجاوز السلفية، ومبادئها التى أشرنا إليها.

وهذه المبادئ هى ما لا تحيد عنه السلفية حتى أكثرها توسعاً ومرونة، بما فى ذلك الإخوان المسلمون، ولم يستطع مصلح – باستثناء الأفغانى وعبده وإقبال – أن يجاوزوها، لأن تجاوزها – فيما ترى السلفية – يعنى مخالفة أصل من أصول الدين المقررة والمجمع عليها، وإذا كان هناك تجاوز فى إطارها، فهو أن البعض حاول أن يمط إطارها أو يمنحه قدراً من المرونة، كما فعل الإمام حسن البنا، ولكن البعض يؤثرون الالتزام بالحدود المقررة حتى لا يقعوا فى الحمى المحرم، فمن جاوره يوشك

أن يقع فيـــه، ولو أجـــاز أحد لنفسه مجاوزتها ولو فى ناحية واحـــدة فلن يســـلم من المؤاخذة وستوجه إليه الاتهامـات القارصة الـتى تخرجه من مجـال الـدعوة الإسـلامية وتقذف به إلى مهاوى "العلمانية" أو الانحراف الخ...

وللســلفية أبعــاد أخــرى لعل أبرزها أنها "ماضــوية" فهى تنظر إلى الماضى وتريد إعادة هذا الماضى مرة أخرى. وهذا التصور بالإضافة إلى أنه مستحيل فإنه يتنــافى مع الرؤية المســتقبلية الـتى يجب أن تكـون هـدف كل من يعمل فى المجـال الاجتمـاعى، خاصة فى عصر أصبح التقدم فيه حثيثا، أو حتى مجنوناً بحيث يعجز الناس عن ملاحقته وبحيث تقاس الفجـوة بين العـاملين بمـدى سـرعة تقـدمهم حـتى نقل الفجـوة ما بين السابقين السابقين، ومن هم أقل منهم سبقا. فى هذا العصر تـأتى السـلفية فتمسـكنا فى الواقع ثم تريد أن تعيدنا إلى الوراء، أو أن تجعل الوراء أماماً.. وهذا ما يعد فضيحة بكل المقـاييس ويجب أن لا نستسـلم لهـا.. لأن الاستسـلام لها لا يعـنى إلا الانتحـار أو النزول إلى درك التبعية المهين.

إن السلفية تظهر لنا الأسلاف كأنهم ملائكة يمشون على الأرض، وإذا كـان هـذا هو حال بعضـهم، فمن المؤكد أنه ليس حـال الأغلبية العظمى الـتى لها قصـورها البشـرى "وخلق الإنسان ضعيفاً"..

وهنـاك نقص آخر فى السـلفية هو أنها ذاتية وليست موضـوعية. بمعـنى أنها تـدور حول أشخاص وأفراد سواء من الصـحابة أو التـابعين أو تـابعى التـابعين فى حين يـدور الإسلام حول قيم من عدل ومساواة وتقوى وإيثار وأن هـذه القيم من الله تعـالى بينها فى وحيه إلى الرسول الـذى رغم منزلته العظمى فإنه رسـول مهمته أن يبلغ ما أنـزل إليه. ولم يطلق الإسلام على المؤمـنين لقب محمـديين – رغم أن هـذا شـرف – ولكنه أطلق عليهم المسـلمين وذلك لأن التمحـور حـول الأفـراد حـتى عنـدما يكـون لصـالح أعمالهم فهنـاك خـوف أن ينتقل إلى نـوع من التـوثين لهم وهو أمر تقطع به الشـواهد والأمثال.

وتكتسب السلفية قوتها من عاطفيتها فهى تملك رصـيداً ضـخماً يمكن أن نسـحب منه لإضرام الشحنة العاطفية. ونجد أبرز تمثيل لها فى الهند، فى مدارس ديوبوند التى عماد الدراسة فيها الأحاديث وروايات الأسلاف، وفى مدرسة "الكهنو" ونـدوة العلمـاء، الـتى كـان أبو الحسن النـدوى خـير مثـال لها وأكثرها رشـداً وقد أشـرنا إليه بنـوع من الإســهاب لأنه يمثل لنا أفضل تصــور للســلفية، ولما يحوطها من رعاية وتقــدير على امتداد العالم الإسـلامى بأسـره. وحـاول كثـير من الكتـاب والفقهـاء المحـدثين "مـط" وتوسيع إطار السلفية، ولكن يحول دون ذلك ضوابط السلفية.

ولا ينقص دعــاة السـلفية الإخلاص، ولكن الإخلاص يجب أن يكـون لقضـية سـليمة وليس لقضية عفا عليها الزمان..

فى هذا المناخ ظهر جمال الأفغانى الذى بدأ اليقظة فـأيقظت صـيحاته النيـام وبـدأ الشرق يفتح عيونه على العالم الجديد وبدأ يتعـرف على ما فى الاسـتعمار من شـرور، وفى الـوقت نفسه على ما لـدى دول الاسـتعمار من قـوى، ولم يكن من الممكن أن

يـزرع الأفغـانى نبتتـه، وأن يحصد منها فى الـوقت نفسـه. ولكن المؤكد أن الأفغـانى غرس نبتته بصـورة يمكن أن تكـون البداية الممكنة للتجديد لأنها كـانت هجوما كاسـحا على الاستعمار من الخارج والاستبداد فى الداخل، وتعميقاً للإيمان بإمكان اقتلاع هذين لو اتحد المسلمون وآمنوا بقيم الحرية والعدل اللتين هما جوهر الإسـلام فأحيا العـزائم الميتة وأزال الصـدأ المـتراكم على العقـول.. ولكن ما كـان يمكنه أن يغـرس.. ويحصد فى الوقت نفسه، بل حـتى الجـانب السـلبى – أى إزالة الحكم الاسـتبدادى من الـدول الإسلامية، وهو بالطبع أهون من إقامة النظام المنشود. هذا الجانب السـلبى لم يحققه فى وقته تمامـاً وإن ظهـرت أراهيص ذلـك. لقد جعل الأفغـانى – وتلك ميزته على كل المجددين الإسلاميين – **الإصلاح السياسى هو مدخله، فلا تجديد إسـلامى فى نظام مستبد أو استعمار محتل".. وكان يمكن أن يجدد فى مجال الفقـه، فلم يكن هذا صعبا عليه،** ولكنه كان سياسياً مطبوعاً فاستهدف التجديد السياسى على أسس ثورية، ودون خلط له بأحكام الفقه التى كـان يمكن أن تفسـده، ومن أجل هـذا فإنه لم يكن يفـتى، ولا يـؤم الجماعة فى الصـلاة ولا يخطب الجمعـة... بل إنه لم يكن يصلى إلا الصلوات المكتوبة.

عجز النخبة فى الدول الإسلامية ومحدودية إسهامها:

وطـوت الأحـداث والتطـورات الجولة الأولى للمجـددين فى العصر الحـديث الـتى ضمت الأفغانى ومحمد عبده، ورشيد رضا، فى أواخرها ودخلت فى طـور جديد عنـدما ظفرت بعض الدول بنصيب من الاستقلال وتحررت من الاستعمار واضـطر حكامها لأن يتقبلــوا نصــيباً من الحريــات الديمقراطية ظهر أن العقبة فى طريق التجديد هى أن النخبة المثقفة والتى يطلق عليها اختصـاراً واصـطلاحاً "الانتلجنسـيا الـتى افـترض أنها القوامة على الثقافة وبالتــالى التجديد الإســلامى، تلقت علومها وثقافاتها فى الــدول الأوروبية، ولم يكن لـديها أسـاس إسـلامى يعصـمها من الاستسـلام للانبهـار بالحضـارة الأوروبيــة. ومن لم يــذهب منهم فى بعثــات فإنه تلقى العلــوم على أيــدى أســاتذة أوروبيين، أو مصـريين درسـوا على أيـدى الأوروبـيين والحصـيلة أن النخبة المثقفة فى الـدول الإسـلامية (مصر – سـوريا – العـراق – الجزائر الخ...) عجـزت عن أن تقـوم بدورها فى النهضة بالثقافة الإسـلامية. وكل الفـرق بينها أن بعضـهم كـان يمثل الثقافة اللاتينية والبعض الآخر الـذى درس فى إنجلـترا يمثل الثقافة السكسـونية ووجد الجميع أن ثقـافتهم لا تمكنهم من التعـرف، فضـلاً عن إحكـام الثقافة الإسـلامية، بل إنها تكـاد تكون مجافية للإسلام، فلم يستطيعوا حتى لو أرادوا القيام بدور فى هذا المجال..

وهذا لا ينفى رد الدكتور زكى نجيب محمود فى سنواته الأخيرة أن يحقق نوعــاً من التلاقى ما بين الإسلام وحضارة العصر فى بعض كتبه.

كما أن عدداً من أبـرز هـذه النخبة قـام بـدور فى التجديد بطريقته الخاصة ومعظم هؤلاء كانوا من الذين أصابتهم "صـدمة الانبهـار" بأوروبا فى شـبابهم، ولكنهم مع تقـدم السن ونضج الفكر والإلمام بالأبعاد الخاصة بالبلاد العربية وزيادة تعرفهم على الإسـلام تخلصوا من تبعيتهم للغـرب وأخـذوا يقـدمون إضـافتهم، ولعل أبـرز هـؤلاء هو الـدكتور

محمد حسين هيكل الذى أصدر كتاب "حيـاة محمـد" فعـرف المسـلمين على الطريقة الحديثة فى كتابة التاريخ التى تختلف عن الطريقة القديمة، واتبعه بكتـاب عن عمر بن الخطاب وثالث عن "منزل الوحى" كما أن الكـاتب المسـرحى الـدكتور توفيق الحكيم الـذى أظهر فى فـترة مبكـرة من حياته ميلاً للإســلام (ربما كـرد فعل لقراءته رواية فولتير عن الرسول الـتى هـاجم الرسـول فيها بطريقة نابية بعيـدة كل البعد عن حرية الفكر المزعومة). أصدر كتاب محمد الذى استخدم فيه الحوار ولكنه التزم بـالنص كما حاول فى "التعادلية" إيجاد تعادل ما بين الإسلام والعصر.. وفى سنواته الأخـيرة، حـرر سلسلة من المقالات فى الأهرام تحت عنوان جانبى "من كانت فى يده فسيلة وقامت القيامة، فليغرسها" وأثارت مقالاته التى كانت تحت عنوان "حديث مع الله" ضـجة من الشيوخ وحوار بينه وبين الشيخ الشعراوى.

واكتسب العقـاد شـهرته الشـعبية من إسـلامياته، أو عبقرياته الـتى سـار فيها على فكرته عن أثر الأفراد والعباقرة، وما يتطلبه هـذا من تحليل لشخصـياتهم، وقبلهم كـان طه حسين قد كتب "على هامش السيرة" و"الشيخان" و"الفتنة الكبرى"..

ولا يجـوز أن ننسى العمل الكبـير الـذى قـام به الأسـتاذ أحمد أمين عنـدما أصـدر موسـوعته الـتى تقصى فيها فجر الإسـلام، ثم ضـحاه، ثم ظهـره وأجمل فيها المعرفة الإسلامية فيسر على الكتاب المحدثين الإلمام بها.

وأصـدر الأسـتاذ عبد الحميد جـوده السـحار موسـوعة عن التـاريخ الإسـلامى تحت عنوان "محمد والذين معه" كما أصدر كتباً أخرى عن الإسلام والأديان.

ويلحظ هنا أن هذه المساهمة فى التجديد اقتصرت على التاريخ، وهو المجال الذى كان يمكن لهذه النخبة المثقفة أن تصول فيه وتجول، ولكنه لم يقـرب أو يمس الحـرم المقـدس، حـرم الفقـه، والتفسـير، والحـديث، ولم يتعـرض لعـالم الفقهـاء القـدامى وأحكـامهم أولاً لأن هــذه النخبة لم تكن مؤهلة له وثانيا لأنه سـيجر عليها عديــداً من المتاعب أقلها معارضة المؤسسة الدينية القوية.

وأسـهم الأسـتاذ محمد فريد وجـدى بكتابـات إسـلامية عديـدة، بل إنه وضع دائـرة معارف إسلامية وأصدر الأسـتاذ محب الـدين الخطيب مجلته الفتح وأشـرف على طبع ونشر عـدد من الكتب الإسـلامية وفى عشـرينات القـرن الماضى كـون مجموعة من الشخصيات ذات الاتجاه الإسلامى وعلى رأسـهم النـائب البرلمـانى عبد الحميد سـعيد والدبلوماسى أحمد تيمور وغيرهم جمعية الشبان المسلمين.

وأظهر شعراء إسلاميون مثل شـوقى وحافظ الـذى وضع "عمريـة" اسـتعرض فيها التـاريخ الإسـلامى فى أزهى فتراته بشـعر بلغ الغاية من الإجـادة ومن الصـدق الفـنى وهناك شعراء كثيرون منسيون قد نذكر منهم الشاعر أحمد نسيم.

ومن الصعب استقصاء أسماء الذين أسـهموا بدرجة أو أخـرى فى قضـية التجديد – لأننا لم نقصد تقصيهم على وجه التعيين – ولكن ذكر أبرزهم – مع الاعتراف بما لا يـبرأ منه إنسان من قصور أو نسيان..

وهـذه الجهـود على قيمتها وأهميتها لم تنجح فى إيجـاد تجديد جـذرى أو دفع قضـية التجديد لأنها لم تتعـرض للأصـول الإسـلامية المقـررة فأصـبحت الثقافة الـتى قـدموها مجرد معرفة لا يمكن أن يقـوم عليها فى التجديـد. لأنه – كما يحـدث – عنـدما يتحـدث أحد الكتاب عن تحرير المرأة فإنه يذكر الآيات، والمبادئ الـتى وضـعها الإسـلام بالفعل لتحرير المرأة، ولكن يكون من السـهل على المعارضـين أن يـردوا بأحـاديث أكـثر مما جاء به من آيات توجب التقييد وتفسيرات للآيات القرآنية على لسـان كبـار المفسـرين والصحابة تعطى معنى يناقض ما ذهب إليه. من أجل هذا كانت هذه الإصـلاحات معلقة فى الهواء عاجزة عن أن تقيم دعواها على أساس أصولى يتعرض للمعارضات فيفندها لأن هذا سيقذف به فى خضم الفقه، وهو لا يحسنه.

وبصرف النظر عن أثر "التغريب" فى صـرف النخبة المثقفة عن الإسـلام – فيجب أن نعلم أن الجامعات لم تعد منابر الحقيقة، أو منابع المعرفة، إنها أجهزة تقدم صنوفاً من المعرفة لسد حاجة المجتمع إليها من هندسة أو كهرباء أو تعليم، أو صحة أو قضـاء الخ... كما أن أسلوب الدراسة الجـامعى ليس هو الأسـلوب الأمثل لأنه يطـوع العقـول "ويقولب" الفكر حول مذاهب وأساتذة، والجامعة فى هذا لا تفضل المعهد الأزهـرى أو الحـوزة الإيرانية فكل منهما يلف حـول أسـتاذ أو فقيه أو منظر يتخـذه مرجعا ويتخذ مذهبه منهجا فهى الطريقة المشيخية ولكن بأسماء وشخصـيات أوروبية وما يتبعها من اصطناع لأحد المنـاهج دون الأخـرى والالـتزام بقواعـده وهـذا أيضـاً يماثل تمامـاً تقليد الفقهاء للمذاهب المقررة وعـدم الحيد عنها أو الاجتهـاد إلا فى الفـروع، ومن هنا فـإن حظ الإبداع ضئيل لدى خـريجى الجامعـة، وقد أفسـدت "الأكاديميـة" كتابـاتهم فجعلتها تقليـداً واتباعـاً لأسـتاذ معين، وتُعد هـذه الكتب "أكاديميـة" بقـدر ما يكـون فيها من استشـهادات ونقـول من "المراجـع" الأصـلية، وبقـدر ما تتبع الضـوابط الـتى وضـعوها وألزموا طلبتهم بها..

بالإضافة إلى هذه العوامل التى جعلت الانتلجنسيا عازفة عن دخول مجـال التجديد الإسلامى، فهناك عامل آخر ساعد على ذلك هو اصطناع الدولة لهم وخصـهم بمناصب الإعلام والصـحافة والإذاعة الخ... ومن الطـبيعى أن يحجم المثقفـون الـذين يشـغلون هذه المناصب عن دخول مجال التجديد بما يعنيه من نقد للقـديم المقـرر وأخذ بالجديد المبتكر لأنه سيخالف سياسة الدولة وسيثير ثائرة المؤسسة الدينية.

وعندما حاول عبد الناصر أن يطبق الشعار الديماجوجى التعليم كالماء والهواء، وهو شعار ضال مضل، فإنه فتح أبواب التعليم من الابتدائى حـتى الجامعة للجميـع، دون أن يكون هناك مبانى مدرسـية، أو مراجع علمية أو أسـاتذة أكفـاء فانحط مسـتوى التعليم وأصبح فى هيئة تدريس الجامعة من لا تزيد معرفته عن معرفة طالب الثانوى قديماً..

وأخيراً فإن الكثيرين من الانتلجنسيا هم ممن يميلون للمذاهب السياسية اليسارية، أو القومية وبهذا يوجد لديهم عامل عزوف إيجابى عن الدين كلـه، كما أن دين بعضـهم ليس هو الإسلام سواء كانوا مصريين أو لبنانيين وإن كان عددهم قليلاً ولكن لهم نفـوذ كبير على أجهزة الإعلام والصحافة والنشر.

ولهـذه الأسـباب لم تـدخل الأنتلجنسـيا مجـال التجديد الإسـلامى، وأنفسح المجـال للمؤسسة الدينية.

* * *

المؤسسة الدينية:

هل حال المؤسسة الدينية أفضل من الانتلجنسيا وأقدر على التجديد...

إنها – بالتأكيد – لا تستطيع التجديـد، ولا تريد التجديد إذا اسـتطاعته، بل هى تقـاوم بقوة كل محاولات التجديد..

أما أنها لا تستطيع التجديـد، فـذلك لأن كل ثقافتها هى ثقافة تقليدية محافظة تـرى فى كل جديد بدعـة، وكل بدعة ضـلالة وكل ضـلالة فى النـار وقد تعلمت هـذا صـغاراً وتعلمه كبـاراً وهم لا يلمـون بالثقافـات الأوروبية أو الحديثة فلا يمكن أن يسـتوعبوا تجديداً.. أو يتوصلوا إليه. ولكنهم حتى لو اسـتطاعوه فـإنهم لا يريدونه لأن التجديد لابد أن يمس وضع المؤسسة الدينية والقائمين عليها والتـابعين لها وهم بـالطبع لا يريـدون أى مساس، وفى هذا السبيل فإنهم لا يريدون التجديد فحسـب، بل هم أيضـاً يـدفعون بكل قـوة كل من يقـترح تجديـداً. وتمتلأ كتابـاتهم بالنقد لكل من يتـدخل من غـير الأزهريين ولم يخلص من هذا شيوخ مثل الشـيخ محمد الغـزالى فكلهم ينـدبون الحظ السيئ للدين الـذى جعله دون كل المهن كلاءً مباحـاً يدخله كل من يريـد، فى حين أنه ما من محامى يتكلم عن الطب ولا من طبيب يتحـدث عن القـانون الخ... ولكن الـدين يتكلم فيه الجميع: محامون ومحاسـبون ومهندسـون وأطبـاء وهم يضـيقون كل الضـيق بهـذا ويريـدون أن لا يقـرب الـدين إلا أهله كما هـو الشـأن فى كل المهن وأنـهم هم "المختصون" المؤهلون لهـذا لأن الله تـعالى خـصهم فقـال ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. {43 النحل} وقال: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِـرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَـعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. {122 التوبة}.. حـتى وإن كانت هـذه الآيـات لا تعـنيهم على وجه التحديـد. فالآية الأولى موجهة إلى أهل الكتـاب والثانية عامة لا تخص طائفة ولكنهم استولوا عليهما و"لبسوهما"! وكان جـديراً بهم أن يسـعدوا باهتمـام المثقفين بـأمر الإسـلام وأن يـدلوا بـدلوهم مما ينم عن تقـديرهم له ومحاولتهم الإصلاح أو التجديد، وكـأن عليهم – لو كـانوا فعلاً أهل الـذكر – أن يصـححوا لهم أخطاءهم إذا أخطـأوا أو يـذكروهم إن نسـوا ولم يكن هـذا لينقص من قـدرهم، بل يزيـده. وما كـان هـؤلاء ليرفضـون ما يقـدم إليهم إذا كـان صـحيحاً. ولكن بـدلاً من أن تتحقق مثل هذه المساجلات غلبت على المؤسسة الدينية نزعة احتكارية ضـيقة تجعلها تحكم "بالهويـة" وعلى كل من لا ينتمى إليهم بأنه غـير أهل للحـديث عن الإسـلام وأنه غير مختص..

ووراء هـذه الـروح إنهم هم وحـدهم ورثة الـتراث المجيد للمعرفة الإسـلامية من حـديث أو تفسـير أو فقه وأن عليهم الحفـاظ عليه وعـدم تغيـيره أو تبديله أو السـماح لغيرهم بالولوج إليه.

ولهذا فإن الأزهر يخرج كل عام عشرات الألوف لا ينبغ منهم إلا النـذر القليـل. ولم يكن من كبار دعاة التجديد الإسلامى أحد دخل الأزهر باستثناء محمد عبده الذى فعلـوا به الأفاعيل وقال إنه أمضى عشر سنوات (وفى رواية عشـرين سـنة) ينظف ذهنه من وساخات الأزهر! وقال فى أبيات نسبت إليه ..

ولكنه ديــن أريـد صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم!!

* * *

وهكذا لم يستطع المجـددون فى العصر الحـديث أن يحققـوا الإصـلاح أو أن يحلـوا المعادلة الصعبة فالذين لديهم الثقافة الحديثة غير مـؤهلين، والقـادرون على الإصـلاح، تسد فى وجوههم الأبـواب والـذين يـرون أنهم أهل الـذكر هم أشد النـاس عزوفـاً عن التجديد بل ومحاربة له..

* * *

تيارات مضادة:

بالإضــافة إلى ما سـبق، فقد نشـأت فى الحقبة الأخـيرة عوامل مضــادة للتجديد الإسـلامى. إن استشـهاد حسن البنا كـان نهاية مرحلة من التجديد الإسـلامى رزقت تواصلاً وتكاملاً كان يمكن أن يسير ويتطور. ولكن استشـهاد الإمـام البنا قطعها ووقف بهـا، ثم جـدت عوامل مضـادة بعضـها من مصر والبعض الآخر من الهند والسـعودية انتكست بمسيرة التجديد الإسلامى وانحرفت بها إلى طـرق مسـدودة، أو أدت بها إلى مزالق خطرة..

جـاء العامل الأول من الهنـد. فعنـدما أعلنت بريطانيا أنها سـترحل وسـتعطى الهند استقلالها، ظهرت قضية سياسة الحكم فى الهند المستقلة الـتى كـان ثلثا سـكانها من الهندوس وثلثها من المسلمين وكان بين الهنـدوس والمسـلمين عـداء تـاريخى منذ أن فتح المسلمون الهند وغرسوا فيها الإسلام وظهـرت إمبراطورية المغـول الـتى ضـمت عدداً من الأباطرة المسالمين للهندوس مثل السلطان أكبر، ولكنها ضمت أيضـاً عـدداً أعلن عليهم الحرب مثل السلطان أورانجـزيب.. ولما دخل الإنجلـيز تلاعبـوا بـالفريقين وأجروا نوعاً من موازنة القوى بينهما حتى لا يتفرد فريق بالغلبة والسيطرة، فاحتفظوا للمسلمين بالحرية الدينية، وإن كانوا قد حـابوا وخصـوهم بالمناصب خاصة بعد الثـورة التى أعلنها المسلمون على الإنجليز وكادت تأتى على احتلالهم، وعنـدما قـرر الإنجلـيز الانسـحاب اعتقـدت اكثريه المسـلمين أن الأغلبية الهندوسـية لن تسـمح للمسـلمين بالحرية الدينية ولا بأن ينالوا فى الهند المستقلة ما يؤهله وضعهم ونشأت فكرة تكوين دولة إسلامية من المناطق الهندية التى تسـكنها أغلبية إسـلامية وكـان على رأس هـذا الفريق سياسى محـترف ومحنك هو محمد على جنه الـذى أسس هيئة باسم "الرابطة الإسـلامية" لتتـولى هـذه الـدعوة كما رزقت تأييد الشـاعر الفيلسـوف محمد إقبـال.. ووجدت أقلية تناصر الوحدة وترى أن حجم المسلمين الكبير سيحول دون أن يضــطهد الهندوس المسلمين. وكان على رأس هـذه المجموعة أبو الكلام آزاد الـذى كـان يـأتى فى حزب المـؤتمر الهنـدى بعد غانـدى ونهـرو مباشـرة، وكـان عالما إسـلاميا متضـلعا.

وفيما بين هذين التياريين ظهر مفكر إسلامى كان عليه – أمام هذه التطورات – أن يقدم التنظير للدولة الإسلامية التى ستحمل اسم باكستان والتى يفترض أن مبرر قيامها الأول هو المقوم الإسلامى هذا المفكر هو أبو الأعلى المودودى الذى أخذ يبلور فكرة، أو نظرية متكاملة عن الدولة الإسلامية، ومن المهم أن نذكر أن فكرته، حتى وإن كان لها الكيان النظرى المستقل فإن الدوافع العملية التى أدت إليها، والعوامل التى أثرت عليها كان تكوين الدولة الوليدة، وسنرى أن كل العوامل التى انتكست بالتجديد الإسلامى، إنما جاء انتكاسها لارتباطها بصورة ما بالسلطة، المهم أن المودودى تمكن فى النهاية من تقديم نظرية "الحكومة الإسلامية" ولما كان كاتباً محترفا، وموهوبا فى التبسيط والشرح المعزز بأمثلة فإن فكرته لاقت رواجا وانتقلت من الهند (فيما بعد باكستان) إلى مصر حيث وجدت مجموعة من شباب الإخوان المسلمين رأوا فى فكره ما يملأ الفراغ الأيدلوجى الذى أصيب به الإخوان بعد فقدهم مرشدهم الأول وأخذت هذه المجموعة دكانا فى شارع الحلمية بمقربة دار الإخوان المسلمين وترجمت رسالتين من رسائل أبو على المودودى التى قدم فيها نظريته عن الدولة الإسلامية.

ومن المحتمل أن هذا الاتجاه لم يكن ليكسب الجولة لولا أن ظهر العامل الثانى الموالى له فى مصر نتيجة للشقاق التاريخى المشئوم ما بين عبد الناصر وجماعة الإخوان وهو انشقاق كان له آثار وخيمة على مستقبل مصر، والدعوة الإسلامية، ونظام عبد الناصر نفسه.

وتعود أسباب هذا الانشقاق من جانب عبد الناصر إلى رغبته فى الاستئثار بالسلطة وضيقه بما سماه "وصاية" من حلفائه الإخوان المسلمين ولم يكن فى الحقيقة إلا مطالبة بالشورى وعدم الاستئثار بإصدار القرار. كما كان الانشقاق يعود من جانب الإخوان إلى عوامل بعضها ليس بعيداً عن السلطة، بقدر ما كان البعض الآخر متصلاً بالمبادئ واحتدمت العداوة واستطاع عبد الناصر وهو الحاكم بأمره، أن يزج بالإخوان المسلمين، بعشرات الألوف إلى السجون خاصة فى عام 65 وأن يسلط عليهم زبانية السجن الحربى لممارسة أخس صور التعذيب..

كان رد الفعل الفورى أن آمن بعض الشباب الذين اعتقلوا مع الإخوان أن حكومة تمارس هذا النوع من التعذيب ليست مسلمة، ونشأت من أعماق السجن الحربى وكرد فعل للتعذيب فكرة التكفير فكأن عبد الناصر قد أوجد بسياسته الخصم اللدود له ومكنه من "التوصل" إلى تبرير "أصولى" للثورة عليه..

وعندما أفرج عن أبرز هذه العناصر الشاب "شكرى مصطفى" أسس هذا الجماعة التى أطلق عليها جماعة المسلمين، وأطلقت عليها الصحافة المصرية "جماعة التكفير والهجرة" وكانت أولى هيئات "الرافضة الجديدة" كما أطلقنا عليها.

فى هذه الفترة كان فكر سيد قطب يتطور نتيجة إيغاله فى الدراسة الإسلامية، وسجنه، وما تعرض له من التعذيب انتهى بإعدامه.. كان سيد قطب يسير فى المسار

الذى سار فيه المودودى، ولأسـباب متقاربة من ناحية إنها تتعلق بالسـلطة وانتهى فكر سيد قطب إلى تنظير يماثل تماماً تنظير المودودى ربما أيضـاً لإطلاعه عليه وتـأثره به ولتشـابه فى الشخصـيات، وفى عوامل ذات النظـام السياسى الـتى أثـرت على كل منهما وعندما ظهرت بـوادر هـذا الفكر فى بعض أوسـاط الإخـوان كتب الأسـتاذ حسن الهضيبى – المرشد الثانى – كتابه "دعاة لا قضـاه" الـذى فند فيه دعـاوى سـيد قطب، وكبح جماح اندفاعه وغلوه. ولكن التيـار كـان يناصر سـيد قطب لأن سياسة الاضـطهاد الوحشية جعلته البديل الطبيعى أى كرد فعل له الطبيعة والخصائص نفسها التى أخذها الفعل وكانت كلها سيئة لأنها تتمحور حول السلطة..

وهكـذا فـإن تيـار التجديد الإسـلامى الـذى كـان مثل نهر يتـدفق، ولكن فى هـدوء، ويسـير فى مجـرى واحد له منبعـه، وله مصـبه، أنـدفع إلى شـلالات هـادرة ومنزلقـات خطيرة، وتورط فى أعمال إرهابية كان أبرزها اغتيال السادات بطريقة فاقت خيال أى مخرج سينمائى وأعطت التنظيم الذى قام به – تنظيم الجهاد – شهرة مدوية..

ومن السعودية ظهر عامل ثالث. إن حرب 73 قفزت بأسـعار البـترول من 3 دولار للبرميل إلى 40 دولار، وأنهـال تيـار ذهـبى على السـعودية، وأصـبحت سـماؤها تمطر دولارات ودفع هذا بالسعودية إلى صدارة الدول الإسلامية خاصة وأن مصر كانت تعانى مصاعب اقتصادية واضـطراب سياسـى. واسـتطاعت السـعودية بعد فـترة أن تخصص هامشـاً من أموالها للإنفـاق على الـدعوة الإسـلامية طريق الرابطة الإسـلامية الـتى أصبحت الممول الأول للهيئات الإسلامية فى أوروبا وعن هذا الطريق بثت فكـراً وهابيا سـلفيا جامـداً ومتخلفـاً، فـزادت البلبلة والتخلف فى تيـار التجديد الإسـلامى، وجعل التجديد الإسلامى ينكص على عقبيه ويتعلق بماضى سلفى، وحاضر قبلى.

لقد أثـرت هـذه العوامـل، وكلها لها طـابع سياسى سـلطوى، على تيـار التجديد الإسلامى ونقلته من مجراه الآمن إلى سبل خطره، تـؤدى به آونة إلى أزقة مسـدودة، وتعرضه آونة أخـرى لمزالق خطـيرة.. أو تـدفع به إلى الممارسـات الـتى ينسـاق إليها التشدد والغلو.. وأصبح من العسير أن يعود التجديد الإسلامى إلى مجراه القديم فضـلاً عن فشل التجارب والمحاولات التى كـانت أشـبه بمقـامرات أو مغـامرات لإيجـاد دولة إسلامية تحكم بما أنزل الله.

وكأن هذا كله لم يكن كافيا، لقد دخلت أمريكا الحلبة بعد حوادث 11 سبتمبر الـتى اتهمت تنظيما إسـلاميا يـدعى القاعـدة – فشـنت حملة ظالمة على الإسـلام واتخـذت صـنوفاً من التقييد والحرمـان من الحقـوق للجاليـات الإسـلامية فى أمريكا وللهيئـات وتضـمنت المطالبة بتنقية العقيـدة واسـتبعاد كل ما يحض على العنف أو عـداوة غـير المسلمين من المناهج الخ...

ومع أن هذه الدعوة لا تختلف فى مضمونها عن أى دعـوة لإعـادة الفهم الإسـلامى إلى قيم الحرية والعدالة والمعرفة والخير الـتى تمثل روح الإسـلام، وأن هـذه الـدعوة

هى نفسها دعوة المجددين من جمال الأفغانى حتى حسن البنا بل إننا أنفسنا كنا دعاة لها عنـدما أصـدرنا كتابنا ديمقراطية جديـدة سـنة 1946 وضـمناه فصـلاً بعنـوان "فهم جديد للدين". فإن صدورها من الولايـات المتحـدة نصـيرة إسـرائيل فى كل سياسـاتها الوحشية ألقت عليها بغشـاوات من الشـكوك وجعل الشـبهات تحيط بهـا، وبكل الـذين يناصرونها، وبدلاً من أن تكون دافعاً للعمل، فإنها أصابت جهود العـاملين برشـاش من أوزارها ضـاعفته الـدعايات المضـادة وحملة الكراهية العارمة للولايـات المتحـدة، ومن يناصرها.

* * *

لقد عـوقت مضى عجلة التجديد العوامل المضـادة، الـتى ضـمت هيمنة السـلفية، وعجز النخبة ثم أخـيراً سياسة عبد الناصـر، وما قـام به من مقـامرات ومغـامرات سياسية فاشـلة أدت إلى وقـوع نكبة 67، والخط السياسى الـذى وضـعه فى مقاومة الاتجاه الإسلامى والذى اتبعته نظم الحكم العربية فى العـراق وسـوريا وليبيـا، وأصـبح للأسف الشديد أحد معالم السياسة العربية المعاصرة فحـدث للإخـوان المسـلمين فى سـوريا والعـراق وليبيا مثل ما حـدث للإخـوان فى مصـر، ولم تتعظ مصر أو تفهم المدلول الحقيقى لهزيمة 67 ألا وهو فشل الناصرية وحتى شخص كالسادات كـان فى أعماقه ضد سياسة عبد الناصـر، فإنه وجد نفسه يسـير على خط عبد الناصـر، ومع أنه اصـطنع حينا ما الجماعة الإسـلامية ليضـرب بها الناصـريين والشـيوعيين، فـإن هـذه السياسة فى الوقت الذى لم تفد التيـار الإسـلامى المعتـدل، تيـار الإخـوان المسـلمين الذى ظل محظوراً فإنه دفع بهـذه الجماعـات إلى الصـدارة ودفع السـادات حياته ثمنا للعفريت الذى أخرجه من القمقم.

لقد جمح الزمـان بـدعوة التجديد الإسـلامى إلى المتاهـات والطـرق المسـدودة، والعنف والعمل السرى وليس فى هذا كله فائدة أو قيمة، وأصبح لازماً أن يجد التجديد الإسـلامى "رؤيـة" جديـدة تخرجه من مأزقه الـذى أدت إليه الأخطـاء المتراكمة والانحرافات والتورطات، رؤية تخلص من هـذا كلـه، وتكـون جديـدة تمامـاً ولـديها من العمق والشـمول ما يجعلها تجابه تحـديات العصر وهـذا هو ما تحاوله دعـوة الإحيـاء الإسلامى.

الباب الثانى
دعوة الإحياء الإسلامى
تعيد تأسيس منظومة الثقافة الإسلامية

الفصل السادس
لماذا تأخر التجديد الجذرى المنشود

دارت تساؤلات بين النـاس، لمـاذا لم يقم فى الإسـلام مجـدد جـذرى عظيم يـؤدى للإسلام ما أداه مارتن لوثر للمسيحية، كما قد يثور تساؤل أكثر سـذاجة لمـاذا لا يقـوم عندنا لاهوت إسـلامى للتحرير بشـبة لاهـوت التحرير المسـيحى الـذى ظهر فى أمريكا الجنوبية بوجه خاص وانصف المحرومين.

للوهلة الأولى تبـــدو هـــذه تســـاؤلات ســـائغة، ولكن إنعـــام النظر فيها يوضح أن المقارنــات الاجتماعية الحضــارية مســألة معقــدة مركبة قلما يمكن أن يســرى عليها قياس لأن كل حالة لها أسباب خاصة وملابسات معينة لا تتكرر فى الحالة الثانية.

ومعـروف أن عـدداً من المصـلحين المسـيحيين ظهـروا قبل مـارتن لـوثر، وكـان بعضهم أكثر تمكنا من لوثر، ولكن جهودهم جميعاً بـاءت بالفشل وسـبق معظمهم إلى المحرقة بتهمة الإلحاد.

كان لابد لكى تنجح حركة مارتن لوثر أن يصل فساد الكنيسة الكاثوليكية، واستعلاء البابا إلى درجة ترفضـها كل قـوى الشـعب، فعند ما ظهر مـارتن لـوثر كـانت "صـكوك الغفـران" عملة رائجة تحقق تمـويلاً للكنيسة وأى شـىء أربح من أن يـدفع شـخص ما بضعة دنانير ليكسب العفو عما اقترف من جرائم. وكان اسـتعلاء البابا وسـيطرته على الملــوك وصل إلى درجة إذلال الإمــبراطور هــنرى الرابع عنــدما أصــدر ضــده قــرار الحرمان، فاضطره للذهاب إليه (أى إلى البابا) فى قرية كانوسا سنة 1067 والوقـوف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالدخول والعفو عنه.

وفى الســنة الســابقة على حادثة كانوبا – أى ســنة 1066 أصــدر البابا أنوســنت الثالث إعلانا:

- البابا هو الذى يصدر القوانين الجديدة.
- كل أمراء الأرض يقبلون قدميه.
- البابا مقدس، إنه لا يذنب ولا يأثم.
- ليس لأحد أن يحاكم البابا.
- كل فرد يحتمى بالبابا لا يمكن الحكم عليه.
- البابا لا يخطئ ولا يمكن أن يخطئ.

فهذا الفساد والاستعلاء مكنا لوثر من أن يقوم بحركته ومع هذا فقد كـان يمكن أن يسـاق إلى المحرقة ويلحق بسـابقيه من المصـلحين لـولا أن الملـوك الـذين ضـاقوا بسيطرة البابا حموه.

وما كانت الكنيسة لتصل إلى هذه الدرجة من الطغيان لولا أنه منصـوص عليها فى الإنجيـل، وأن "الرسـل" والحـواريين كـانوا بمثابة الأنبيـاء وقد منحـوا قـدرة القيـام بـالمعجزات.. وفى أوروبا كـان كل الشـعب يطلق على الكنيسة "أمنا الكنيسـة" لأن الكنيسة هى الـتى تعمد الأبنـاء بعد ولادتهم، وبهـذه المعمودية يـدخلون النصـرانية وإلا لاعتبروا وثنـيين، كما كـانت تـواريخ ميلادهم تقيد فى دفـاتر "الأبرشـية" وهى التقسـيم الكنيسى الذى سـبق التنظيم الإدارى وعنـدما يـتزوجون فـإنهم يـتزوجون فى الكنيسة وبممارسة كاهن يقوم بكل طقوس الزواج، الذى يعد من أسـرار الكنيسة وبـدون هـذا يمكن أن لا يعد زواجاً، ولكن زنا، وأخيراً فإنهم عندما يموتون فـإنهم يـدفنون فى ردهة الكنيسة أو المقبرة الملحقة بها وفيما بين الـولادة والوفـاة فـإنهم فى حيـاتهم الروحية يخضعون تماماً لتوجيه الكنيسة وبين آونة وأخـرى "يعترفون" أمامها.

عندما نعلم هذا كله فإن التساؤل لماذا لم يقم فى الإسلام مارتن لوثر يفقد معنـاه تماماً، ذلك أن ليس فى الإسلام بابا يـولى ويعـزل ويحـرم الملـوك وليس فى الإسـلام كنيسة تعمد، وتـزوج، وتـدفن النـاس وإذا لم يكن هنـاك بابا ولا كنيسة ففيم إذن يقـوم الإصلاح.

ولم يحدث فى أى فترة من تاريخ الإسلام أن ظهر ما ظهر فى أوروبا فى قرونها الوسطى من تدهور وسقوط واستغلال الدين وسيطرة الخرافة.

وأكثر سذاجة من يتساءل عن عدم قيام لاهوت تحرير إسلامى، فالإسلام ليس فيه لاهـوت أصـلاً ولا يمكن أن يكـون فيه لاهـوت. وإنما التصق اللاهـوت بالمسـيحية نتيجة لمبدأ التثليث وما أوجده من خلافات بين كنائس أدى إلى تكوين المجامع "المسكونية" وكانت مداولاتها هى لحمة وسـدى اللاهـوت – واللاهـوت فى المسـيحية هو الـذى أخر قيامها بدورها التحريرى. وإلا فـإن المسـيحية الحقـه، مسـيحية عيسى الناصـرى – هى رسالة تحرير فاقت غيرها لأنها قامت على المحبة وعلى المواسـاة فى شـئون الـرزق والدنيا وعندما عوق اللاهوت مضيها فى رسالتها التحريرية اسـتعانوا بالماركسـية لبنـاء ما ادعوه لاهوت التحرير. ولا يمكن أن يكون فى اللاهوت تحرير كما لا يمكن أن يكـون فى الماركسية أيضا تحرير وإنما التحرير هو فى المسيحية الحقه.

على أن هذا – على صحته – لا يعنى أنه ليس هناك حاجة إلى مصلح مجـدد جـذرى يقدم للإسلام ما قدمه مارتن لوثر للمسيحية.

إذا كان الإسلام لم ينص أصـوليا على الكنيسة فـإن ضـرورات التخصص وهو نسق ونمط لابد أن يظهر عندما تأخذ قضية معا شكلاً عاماً متشعبا.. وفى الفـترة النبوية لم يكن هناك حاجة إلى هذا التخصص لأن قضايا الحياة كـانت سـاذجة بحيث لا يـدع حاجة لتخصص ولكن الصـورة اختلفت عنـدما تحـولت الخلافة إلى إمبراطورية شاسـعة تضم

شـعوبا مختلفة بحضـارات وثقافـات وعـادات وتقاليد مختلفة ولا يتيسر لها فهم اللغة العربية الرفيعة فى القـرآن أو الحـديث فكـان لابد أن "يتخصـص" فريق من العلمـاء لدراسة قضايا الفقه، وأن يعكف هؤلاء على ذلك حتى يصبح ذلك هو عملهم الرئيسـى، أو حـتى مهنتهم، وبهـذه الطريقة أى بحكم التخصص – ظهـرت مجموعة الفقهـاء الـتى كـونت فيما بينهـا، وفى مرحلة لاحقه "المؤسسة الدينيـة" وكـان لابد أن يسـرى إليها عدوى "المؤسسـاتية" أى الرغبة فى الاحتكـار والتطـور من دعـاة للـدين، إلى ممثلين للدين ثم إلى إنهم أنفسهم الدين.

حدث هذا فى الإسلام، ولكن لم يحدث بناء على نص دينى محدد سواء فى القرآن الكريم أو الرسول، لأن ما جاء من نصوص مثل]فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْـذَرُونَ[. {122 التوبـة}.. أو]فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ[. {7 الأنبياء}.. هى نصـوص عامة بمعـنى أن كل من تتهيأ له معرفة وإحكام أصول الدين فإنه يمكن أن يـدخل فى هـذا النص أو من أهل الذكر ولهذا فإنها رغم إنها هيمنت، فإن هيمنتها كانت بحكم التفوق الفنى والعملى وما لديهم من ملكات ومهارات.

وليس هذا التطور إلا جانبـاً صـغيراً من عملية التحـول الكـبرى الـتى حـدثت خلال القـرون الثلاثة الأولى من الهجـرة عنـدما تمكنت مجموعـات من مختلف مـدن العـالم الإسـلامى أن تضع منظومة المعرفة الإسـلامية، وأن نقسـمها إلى حـديث نبـوى، وإلى تفسير للقرآن، وإلى فقه، ثم فى مرحلة تالية إلى توحيد أو علم كلام.

ويمكن القطع بان معظم أفـراد المجموعة الـتى قـامت بهـذا العمل خلال القـرون الثلاثة الأولى من الهجرة كانوا نابغين، مخلصين، عاملين بـدأب وإخلاص، وأنهم فى كل جهودهم كانوا يريدون خدمة الإسلام ولم شعثه وضم أشتاته والتقرب إلى الله بهذا..

وكان كل قرن يلى القرون الثلاثة الأولى يقدم إضافة حتى وإن لم تكن فى أصـالة التأسيس الأولى ولم يعدم العالم الإسلامى مجـددين حـتى فى أحلك سـاعاته وأشـدها تدهوراً لأن العالم الإسلامى كان من السـعة بحيث لا يمكن أن يلحقه التـدهور كله فى وقت واحد. وإلقاء نظرة على ما أوردناهم من المجددين سواء فى العصـور القديمة أو الحديثة بينت ذلك. وكان كل فريق يضـفى على سـابقه قداسة كـادت تصل إلى تـوثين بعد إغلاق باب الاجتهاد وتوالى القرون على التقليد...

وقد فتُن المسـلمون بهـذه المنظومة المعرفية الـتى وضـعت خلال القـرون الثلاثة الهجرية، ثم زادت شيئاً فشيئاً حتى أصبح الفقه قلعة ممردة وحـتى أصـبح المسـلمون يرون فيها تاريخهم وتراثهم ومدخلهم ومخرجهم. وثمرة نبوغ، وإيمان، وتواصل معرفى وكـانت فى وقتها أفضل ما يمكن أن يتحقـق، وكـانت سـابقاً بمراحل لكل الصـور التشريعية التى وجدت فى العالم القديم كالقانون الرومانى، أو ما سبقه من قوانين.

هذا علماً بأننا لا ندخل فيها إنجازات العلماء المسلمين فى مجـالات الفلك والطب والحسـاب والهندسة الخ... ففى هـذه كلها ظهر علمـاء كـانت كتبهم تـدرس فى

الجامعـات الأوروبية حـتى القـرن الخـامس عشـر، كما ألهمت الكثـيرين من العلمـاء الأوروبيين ما توصـلوا إليه من اكتشـافات أو اختراعـات فنحن لا نتعـرض لهـذا الجـانب وإنما نعالج موضـوعات الحـديث والقـرآن والفقـه. باعتبارها الممثلة على وجه التعـيين للإسلام.

ولكن لما كانت هذه المنظومة – خاصة فى الفقه – قد وضعت دون أى تصـنيف أو تبويب، فضلاً عن أنها أصـبحت موزعة على أربعة مـذاهب فـإن هـذا جعل الإفـادة منها أمراً عسيراً، ولما حـدثت التطـورات الحديثة ظهر تخلفها وأصـبحت الحاجة ماسة إلى إصلاح وحدث هذا الإصلاح فى تركيا، التى كـانت تـرأس العـالم الإسـلامى عـام 1869 عنـدما وضـعت "مجلة الأحكـام العدليـه" وهى أول محاولة لتنسـيق وتصـنيف الفقه الحنفى طبقـاً للموضـوعات المعروفة فى القـوانين الحديثة وعلى أسـاس مـواد. وقد بدأت ببيان القواعد الفقهية وهى تضم من المادة (2 إلى المـادة 100)[22] أجملت فيها القواعد التى تلحظ عند استنباط الأحكام ثم بعد ذلك تتوالى المواد حتى المادة 1850 طبقاً لموضوعات البيوع، وما يتعلق بهـا، والكفالة والـرهن والحجر والإكـراه والشـفعة الخ...

كانت هذه أول محاولة لوضع المادة الفقهية التى خلفها لنا الفقهاء فى شكل مـواد قانونية مصنفة، وكان يمكن أن تحل كثيراً من مشاكل الفقه الإسلامى لولا أنها وضعت على أساس المذهب الحنفى الـذى كـان مـذهب الدولة العثمانية ثم جـاء محمد قـدرى باشا، وهو تلميذ نابغ من تلامذة رفاعة رافع الطهطاوى فأصدر ثلاثة كتب هى:

1. مرشد الحـيران إلى معرفة أحـوال الإنسـان وهو نسـخة مصـرية من مجلة الأحكام العدلية التركية يضم المواد القانونية فى 1045 مادة وقد صدر سـنة 1338 هجرية.

2. الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية.

3. قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف.

وكان لقدرى قاعدة من الثقافة الإسلامية الرصينة امتزجت بها فنـون واشـتات من الثقافات الأوروبية، والقانونية بوجه خاص قـانون نـابليون الـذى ترجمه رفاعة وقـدرى، وأطلق عليه (الكود) وكان أساساً للقوانين المدنية المصرية.

كانت هـذه محـاولات لتصـنيف مـادة الفقه القـديم وترتيبها وإعـادة صـياغة كلماتها الفنية واستبعاد كل الشروح المطولة ومناقشة الأقوال المختلفة الـتى جعلت من كتب الفقه مجلدات من المجـادلات. ولكن لم تكن لها أى قيمة عملية لأن الدولة فى تركيـا، وفى مصر كانت قد اطرحت فكرة تقنين الفقه حـتى بعد أن صـنف وأخـذت بـالقوانين الأوروبية (فرنسية – بلجيكية الخ...).

من هـذا العـرض يتضح أنه وإن كـان تطـور الفكر الإسـلامى قد انحـرف فى وقت مبكر عما كان عليه أيام الرسول، وأن هـذا الانحـراف مضى قـدما، ثم تجمد بعد ذلـك،

---

[22] **(22) المادة الأولى كانت عن تعريف الفقه وتقسيمه ونصها "الفقه علم بالمسائل الشرعية العملية".**

وأوجد المؤسسة الدينية إلا أن هـــذا لم يصل إلى الدرجة الـــتى وصل إليها فســـاد واستعلاء الكنيسة الكاثوليكية أيام لوثر وأدى هذا إلى ظهور دعـاة تجديد فى محـاولات جزئية، كما أن ظروف المجتمعات الإسلامية السياسية كانت تحول دون أن يظفر هــذا المصلح بالحماية أو القبول اللذين وجدهما لوثر وحالا بينه وبين المحرقة.

على أن هــذه الظـــروف تغـــيرت بعد أحـــداث سـبتمبر 2001 إذ أصـبحت تتطلب التجديد الجـذرى وأصـبح هـذا التجديد يظفر بقبـول دولى – خـارجى وداخلى وحدث هـذا فى الـوقت الـذى كـانت دعـوة الإحياء الإسلامى قد أتمت نظريتها التى بـدأتها من خمســين عاما وهكـذا أصــبح المنــاخ مواتيا لتجديد جـذرى شـامل يفـوق ما قـام به لـوثر، لأنه يتضـمن إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية التى قام عليها الفقه والحديث والتفسير منذ ألف عام.

وهـذا هو ما تقـوم به دعـوة الإحيـاء وما ستضع الفصول التالية قواعده وأحكامه..

الفصل السابع
لماذا يكون علينا إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية

كانت منظومة المعرفة الإسلامية بفروعها الثلاثة: التفسير والحديث والفقه – ولا تزال محل إعجاب كل الأجيال الإسلامية (بما فيها الجيل الحاضر) بحيث لم تجد هذه الأجيال غضاضة فى أن تقف عند ما وقف عليه الأسلاف الذين وضعوها خلال القرون الثلاثة للهجرة، وما تلاها، ولم يجدوا حرجا فى إغلاق باب الاجتهاد كأنها قد حققت الغاية التى ليس بعدها غاية ولم يتصوروا إمكانية إبداع مذهب سُنى خاص أو إيجاد طريقة لتفسير القرآن غير التى قدمها المفسرون من ابن عباس ومن بعده أو إيجاد طريقة للتثبت من قيمة الحديث غير التى وضعها بن حنبل ويحيى بن معين الخ...

وقد قلنا – ونكرر ذلك – إننا لا ننكر أن هذه المنظومة كانت عملاً رائعاً، وإنجازاً من أعظم الإنجازات الحضارية فى تاريخ البشرية. وأن الذين وضعوها كانوا عباقرة ونابغين وأرادوا بها القربى إلى الله وخدمة الإسلام.

ولكن..

إن الدراسة العميقة للإسلام جعلتنا نكتشف إن هذه المنظومة – رغم مزاياها – لم تخل من مآخذ وأن بعض هذه المآخذ جعلتها تذهب ليس فحسب إلى خلاف ما ذهب إليه القرآن، بل فى بعض الحالات تتناقض معه، فضلاً عن إنها وضعت من ألف عام. وهذا وذاك يجعلها غير صالحة الآن – حتى وإن كانت صالحة قديما – ويتعين علينا إعادة التأسيس.

نعلم بالطبع إن هذه نتيجة خطيرة، ودعوى عريضة، ستثير ذهول كل مشايخنا وستجعل المؤسسة الدينية تقف برجلها وخيلها وقفه رجل واحد ضد هذه الدعوى ودفعها بأنها ضالة مضلة.

إن هذا لا يجعلنا نتردد، فقد ظلت البشرية تعبد أوثانا آلاف السنين، وعندما جاءهم رسول بالتوحيد تملكهم العجب من هذا الذى يريد أن يجعل الإلهة إلها واحداً "إن هذا لشىء عجاب".

أما ما هى هذه المآخذ التى اكتشفناها فسنشير إليها باختصار فيما يلى. وسيأتى الشرح بعد ذلك..

أولاً: إن هذه المنظومة لم تستوعب الإسلام ككل، ولم تنطلق من نقطة الانطلاق التى أرادها الإسلام لتبلغ الغاية التى أرادها.. وبذلك خالفت الظهور الأول للإسلام الذى ساد الحقبة النبوية وصدر الخلافة الراشدة، وإن كنا نعترف أن هذا الحقبة لفظت أنفاسها الأخيرة عام 40 هجرية عندما حول معاوية بن أبى سفيان الخلافة إلى مُلك عضوض. إن قصر هذا المدة لا ينفى أنها الأصل الذى يتعين العودة إليه. وقد حدث هذا بالصورة وللأسباب التى سنعرض لها بالتفصيل فى هذا الباب.

ثانياً: إن قـوى التحـول ظهـرت بـدءاً من 40 هجرية عملت خلال القـرون الثلاثة للهجرة التى وضع الأسلاف منظومتهم فيها على تحويل المجتمع الإسـلامى من مجتمع نبـوى عاصـمته المدينة المنـورة إلى مجتمع إمـبراطورى عاصـمته بغـداد بحيث وجد الأسلاف المؤسسون أنفسهم منساقين بإرادتهم أو رغم أنوفهم، لأن يضعوا منظومتهم تلك تعبيراً عن مقتضـيات المرحلة الإمبراطورية وأن يصـدروا "أحكامـاً سـلطانية" بعد أن تلاشت آخر أطياف العهد النبـوى بعد وفـاة آخر الصـحابة مع المائة الهجرية الأولى، بل ومـوت كبـار التـابعين وظهـور تـابعى التـابعين الـذين تولـوا بالفعل وضع هـذه المنظومة..

ثالثاً: إن قوى التحـول الـتى أشـرنا إليها فى الفقـرة السـابقة اصـطحبت بعوامل خارجية دفعتها وغـذتها وطعمتها بعناصر غـير إسـلامية من أفكـار فلسـفية أو رواسب فارسية مما ضاعف فى ابتعاد المنظومة عن الأصل القرآنى/ النبوى.

رابعاً: مع أن الأصـول الـتى وضع عليها الأسـلاف المؤسسـون منظـومتهم كـانت القرآن والسُنة إلا أنهم غفلوا بتأثير تأخرهم عن العهد النبـوى وخضـوعهم الشـعورى أو اللاشـعورى لمقتضـيات المرحلة الإمبراطوريـة، عن التعـرف على كيد ظهر فى عهد الرسول للنيل من الإسلام ودق عليهم تبينه، فادخلوه فيما تقبلـوا من دلائل وبنـوا عليه أحكامهم. مع مخالفته للقرآن والسُنة.

خامساً: إننا لو افترضنا السلامة الموضوعية فى هذا التراث فـإن وضـعه من ألف عام يجعله غير صـالح للتعامل مع العصر الحـالى، إننا لا نلبس فـترة رجولتنا شـبابنا ما كنا نلبسه عنـــدما كنا أطفـــالاً، والشـــأن فى الأمم هو الشـــأن فى الأفـــراد فلا يمكن لمنظومة وضعت من ألف عام أن تتعامل مع العصر لقد كانت صالحة عنـدما وضـعت، ولكنها الآن متخلفة وتجر إلى التخلف كل من يتعلق بهـا. إننا لا نسـتطيع أن نعيش فى القرن الثالث الهجرى وفى الوقت نفسه فى القرن الثالث عشر فهذه كلها اسـتحالات يأباها التطور وترفضها السنن التى وضعها الله تعـالى للمجتمعـات دع عنك ما اتصـفت به الفترة المعاصرة من سباق حثثت للتحديث، وجعل الناس يلهثون فى محاولة للحاق ومع شروق شمس كل يوم يظهر مئات الاكتشافات والاختراعات والتحسينات.

هـذه المآخذ الـتى فرضـتها الضـرورات التاريخية على منظومة المعرفة الإسـلامية هى من الجســامة والجذرية بحيث لا يســتقيم معها أى تعــديل أو تطــوير أو تنقيه أو اجتهاد. ولا يكون مناص من إعادة التأسيس.

وفيما يلى تفصيل ما أجملناه...

المأخذ الأول

مما يثير الدهشة أن أحداً لا يسأل نفسه لماذا هو مسلم، وهل كان يمكن أن يكون بوذيا مثلاً، وما هى العناصر المعينة الـتى تجعله يـؤمن بدينه الخ... إن أحـداً لا يسـأل نفسـه، وقد تقبل الجميع الـدين كمسـألة وراثية فهو مسـلم كما هو مصـرى، وكما هو أسمر أو أبيض الخ... وهى أمور يتقبلها المرء ولا يجعلها موضوعاً للفكر أو التساؤل..

نحن نختلف...

نحن نرى أن الإيمان بالأديان هو قمة الالتزام الفكـرى ومن ثم فلا يمكن أن يكـون إلا بعد تفكير، واقتناع تام. وفى هذا السبيل كان علينا أن نعيد استكشاف الإسـلام وأن نرجع إلى الوقائع التاريخية، وإلى النصوص القرآنيـة، وإلى شـواهد الحـال فى المجتمع النبوى حتى لا يضل استكشافنا..

كانت النتيجة مذهلة..

لقد اكتشـفنا إن الإسـلام فى حقيقته ثـورة تحرير وأن الرسـول قائد جمـاهير وإن الإسلام حقق أعظم وأنجح ثـورة فى التـاريخ، وأن هـذه الثـورة اسـتهدفت "الإنسـان" الذى أنزل الإسلام لتحريره من الإصر والأغلال التى كانت عليه ولتخرجه من الظلمات إلى النـــور، ولتؤكد بطريقة عملية ما أراده الله تعـــالى من إكـــرام الإنســـان عنـــدما استخلفه على الأرض..

والحقيقة أن الإسـلام ليس هو الوحيد الـذى قـام بـذلك، إن كل الأديـان السـماوية إرادته وميزة الإسلام أنه أكثرها نصوعاً وبعـداً عن اللاهـوت أو العنصـرية الـتى شـابت الأديان الأخرى..

واستقراء التاريخ يؤكد هذه الحقيقة..

إن وقائع التاريخ تحدثنا عن اليهود الـذين ضـاق بهم المصـريون فاسـتخدموهم فى الأعمـال الشـاقة. واستسـلم اليهـود فما كـان يمكن أن يفعلـوا شـيئاً أمـام الجـبروت الفرعـــونى حـــتى ظهر فيهم موسى يحمل رســـالة اليهوديـــة، فاســـتطاع أن يتصـــدى للجبروت الفرعونى وأن يخرج باليهود من مصر "بيت العبودية"..

ويحدثنا التـاريخ عن روما عنـدما بسـطت سـلطاتها على الأرض المعروفة وهيمنت بسـيفها القصـير، وقانونها وطرقاتها ووسـائلها الإدارية على العـالم أجمـع، وأقـامت حضارة تقـوم على الـرق، وعلى سـيادة روما واسـتتباع كل شـعوب الأرض.. هل كـان يمكن أن تقف أى قوة أمام هذا الجـبروت؟ بلى لقد ظهر رسـول فى الناصـرة يـركب الحمار، وقد يسير فى طرقـات الناصـرة حافيـا، ويتبعه مجموعة من صـيادى الأسـماك جعلهم صـيادين للنـاس، اسـتطاع هـذا الرسـول الـذى جـاء بشـرعة المحبة أن يصـدع الإمبراطورية وأن يسقط شرعتها القائمة على القوة، والاسترقاق والاستغلال..

وفى جزيرة العرب النائية القاحلة البعيدة وسط قبائل تجعل فخرها يسبق جواد أو وضع قصـيدة وتجعل من الغـارة على جـيرانهم، عنـدما تشح السـماء مـورداً مشـروعاً للـرزق جـاء الرسـول العـربى فوحد هـذه القبائل وجعلها أمة واحـدة ووضع فى يـدها "الكتـاب والمـيزان" لتجـدد شـباب الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسـية اللـتين قاما على الطبقية والـرق، وليوجد مجتمعـات تقـوم على المسـاواة لا فخر فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى..

أليست هذه وقائع تاريخية! لماذا عـنيت الأديـان من يومها الأول بالجمـاهير.. لمـاذا أوجدت قادة من نوع يختلف عن الأباطرة والملـوك الـذين يسـتعلون فى الأرض، وهل

كانت هناك من قوة أخرى يمكن أن تنهض بهذه الرسالة، ومن أين تـأتت هـذه الطبيعة ومن أى أصل تستلهم دعوتها.. لقد كانت الأديان وحدها دون أى قوى أخـرى هى الـتى قامت بهذا واستلهمت أهدافها من الله وسارت طبقا لقيادة الأنبياء..

إذا تساءلنا لماذا عنيت الأديان بهذا لوجدنا أن الإجابة هى – ما أشرنا إليه آنفا – أن الأديـان إنما قـامت لتعزيز كرامة الإنسـان وأنه ما من قـوة كـان يمكن أن تقـوم بهـذه المهمة فى هذه العهود السحيقة غيرها..

هذه هى وقائع التاريخ. وللمزيد من التثبت والبحث عن السبب الـذى جعل الأديـان تنهج هـذا المنهج رجعنا إلى نصـوص القـرآن الـتى تقـدم الأسـاس "الأصـولى" لـذلك.. فوجدنا أن القرآن يقدم أجمل تصوير للإنسان. فقد خلقه الله فى أحسن تقويم – على صـــورته كما فى اليهودية والمســيحية – ولكى يكـــون خليفة لله على الأرض كما فى الإسلام. وجعل مادته الأولى من الطين إشارة إلى الأرض الـتى سـيعيش عليها ويـدفن فيها.. ونفث فيه من نفسه نفثة أعطته قبسا الاهيا يتجلى فى العقل والضـمير والإرادة ثم اسكنه الجنة يستمتع فيها بما يشاء بعد أن أسعده وآنسه بصحبة المـرأة ولكن هـذه الحياة السـماوية لم تسـتمر لأن الله تعـالى قـدر للإنسـان أن يعيش على الأرض. وهنا ظهر الشيطان الذى يغوى الإنسان ويستسلم له فى لحظـات ضـعفه الطينيـة. ويكـون فى هذا نهاية لهذه الحياة فى الجنة وبداية للانتقال إلى الأرض.

لم ينتقل الإنسان إلى الأرض مغضوبا عليه ملعونا لأنه عرف خطأه فتاب وتاب الله عليه. ولكن الله تعالى أنزله إلى الأرض ليكون خليفة له، وليعمر هـذا الكـوكب الجميل وكان قد أعـده لـذلك عنـدما علمه الأسـماء كلها – أى مفـاتيح العلـوم – وعنـدما حمله الأمانة التى عجزت عنها السـموات والأرض والجبـال – أمانة الإرادة وعنـدما أسـجد له الملائكة. فأى إكرام وتقدير يماثل هذا الأكرام. أن يسجد له الملائكة، وأن يجعله خليفة له على الأرض.

وهناك إشارة أخرى إلى أن الإسلام هو دين الإنسان تلك هى القاعدة المقــررة إن الإسلام دين "الفطرة" وأن كل واحد يولد عليه وليس لهذا من معنى إلا أن الإسلام هو دين الإنسان – كما جبله الله.

إن آيات القرآن الكريم الـتى تثبت التصـوير الـذى عرضـناه لا تعوزنـا، وهى كثـيرة ومكــررة فى ســور عديــدة وحســبك منها الآيــات من 30 إلى 34 من ســورة البقــرة، والآيـات 11 إلى 18 من سـورة الأعـراف، والآيـات من 61 إلى 65 من سـورة الإسـراء والآية 50 من سورة الكهف والآية 115 و116 من سورة طه. ويضاف إليها آيات عديـدة عن تكريم بنى آدم وتفضيلهم وتسـخير قـوى الطبيعة والأشـجار والأنعـام وأى نصـوص أعذب أو أجمل من.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(**43**) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾. {الأحزاب 44}..

أو :

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. {المائدة 119}..

أن تعبير ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. الذى تكرر فى آيات التوبة (100) والبينة (8) والمجادلة (22) فيه إكرام أى إكرام للإنسان..

ولكى تكون الصورة متكاملة فهناك آيات عديدة تقرر حرية الفكر والاعتقاد وآيات عديدة تنص على كرامة الإنسان وأن عرضه وماله مضمون وآيات عديدة تحرم اكتناز الأموال وترف المترفين.

وفى دين يقوم على التوحيد الصارم لا يكون هناك إكرام للإنسان أكثر من أن يكون خليفة الله على الأرض.

قد يقول قائل هذه كلها افتراضات دينية قد لا تمثل حقيقة عملية، والذى يمثل الحقيقة العلمية هى ما ذهب إليه دارون من تطور الأنواع وأن الإنسان نشأ من علقه تطورت عبر ملايين السنين إلى مختلف صور الأنواع قبل أن تنتهى بأن تأخذ صورتها الماثلة، ونحن لا ندخل فى جدل مع هذه الفكرة لأن الإسلام قد لمسها عندما جعل أصل الإنسان من طين لازب، ولأن الشاهد **الذى نريد إبرازه هو أن التصوير الإسلامى للإنسان هو أجمل وأسمى تصوير بصرف النظر عن الاجتهادات العلمية.. وأن تصوير الإسلام لا يقتصر على "خلق الإنسان" ولكن أيضاً على تكريمه، وتعليمه الأسماء.. ومنحه حرية الإرادة واعتباره خليفة الله فى الأرض. من هذه النواحى الغائية – أى التى تهدف كلها لغاية واحدة يعد التصوير القرآنى أجمل من التصوير العشوائى لنظرية دارون والتى ليس فيها أى غائية.**

فإذا قال قائل هذه كلها مجرد أحاديث وأقوال والمهم هو الفعل والتطبيق العملى، فهذا ما يرد عليه الاستقصاء التالى للأوضاع التى سادت المجتمع النبوى والفترة القصيرة التالية له..

نجد إن الرسول ما أن دخل المدينة حتى حرر وثيقة يجعل بها المهاجرين، والأنصار وحلفاء الأنصار من اليهود **"أمة واحدة دون الناس"** لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وهم يتناصرون بالمعروف".. أى أن الرسول أعطى المواطنة كما نقول إلى كل من يتخذون من هذا المكان وطنا بصرف النظر عن الدين..

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار وهى أخوة ظلت أواصرها قائمة طوال حياتهم..

وبنى المسجد باعتباره مجمع المسلمين يدخله الجميع رجالاً ونساءً ويتبادلون فيه الرأى والمشورة.

وفى مجتمع المدينة كانت المساواة هى القانون الأساسى، ولا فخر لعربى على عجمى إلا بالتقوى وقد عرض الرسول نفسه للقصاص لمن يرى أن له حقاً.. وأراد عمر بن الخطاب أن يقتص من جبلة بن الأيهم لما ضرب إعرابيا وطأ مئزره فحطم أنفه واستغرب جبلة وقال تقصه منى وأنا ملك وهو سوقه" فقال عمر الإسلام سوى بينكما..

وحفظ لنا التاريخ أقوال تعبر عن فهم الصحابة للإسلام.

فعندما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً من اضطهاد قريش وأرسلت قريش فى أثرهم وفداً يتعقبهم ويطلب إرجاعهم سأل النجاشى رئيس المجموعة الإسلامية – جعفر بن أبى طالب عن الإسلام فقال:

أيها الملك "كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف..

"فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

"وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء.

"ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

"وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله.

فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا إلا نظلم عندك".

ونجد خطبة الوداع التى حرم الرسول فيها الأموال والأعراض والحقوق، وأوصى بالنساء والعبيد ووضع كل آثار الجاهلية من ربا أو ثأر.

وحفظ لنا التاريخ خطبة أبى بكر – خطبة العرش كما يقولون – التى عرض فيها همته لحقوقه وواجباته" وأشرنا إليها فى أكثر من موضع من هذا الكتاب، وهى تمثل أفضل دستور ديمقراطى.

وهناك كلمة القائد الإسلامى ربعى بن عامر أحد قادة القادسية عندما أوفد إلى رستم وقال له "إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

فى مجتمع المدينة نجد الإسلام وقد نهضَ بالمرأة وساواها فى الحقوق والواجبات ونهى الرجال والنساء ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. ولم يفضل الرجال إلا بدرجة هى القوامة المنزلية مقابل الكدح فى العمل، والإنفاق على البيت.

نجد العبد يأكل مما يأكل السيد، ويلبس مثل ما يلبس السيد حتى ليصعب التمييز بين العبد والسيد.

بل نجد أن نقلة علم الفقهاء الفقه والحديث هم الموالى مثل نافع مولى بن عمر وعكرمة مولى بن عباس فضلاً عن خمسة من ستة هم فقهاء الأمصار الإسلامية.

وقد اعتبر الرسول أن لطم السيد للعبد ذنب يوجب تحريره وهناك حالات عديدة تثبت ذلك.

نجد المساواة التى تجعل أحد الولاة عندما طلبه الخليفة عمر بن الخطاب يولى على قومه مولى له وعندما استغرب عمر بن الخطاب ذلك أجابه بأنه حافظ للقرآن عالم بالفقه، زال استغراب عمر.

إن أبرز القيم التى كانت مطبقة بالفعل فى مجتمع المدينة كانت المساواة والعدل وهما ملاك المجتمع الإنسانى.

وكان مجتمع المدينة مجتمعاً بعيـداً عن أى تعقيد فكـرى وكـان أفـراده يثقـون فى فطرتهم وملكهم العقلية ويأتمنون قلوبهم فيما يشير عليهم فلما ألح عمر بن الخطـاب على أبى بكر فى جمع القـرآن وتـردد أبو بكر لم يقل عمر إلا "هو والله خـير" وعنـدما ارتأى على بن أبى طالب تضمين الصناع قـال "لا يصـلحهم إلا هـذه وعنـدما نظم عمر صلاة التراويح بعد أن كـانوا يصـلونها أوزاعـا. وأطلع على المسـلمين وهم يصـلون فى صـفين صف للرجـال وصف للنسـاء قـال "نعم البدعـة" لقد كـان يعلم إنها بدعة وأن الرسـول لم يسـنها، وأن أبا بكر أبقى النـاس على ما كـانوا عليه أيـام الرسـول. ولكن عمر اجتهد ورأى إنها بدعة حسنة ولم يقفه القول الذائع "كل بدعة ضـلالة وكل ضـلالة فى النار" أو "من أحدث فى أمرنا هذا شيئاً فهو رد".

وقدم الشيخ محمد عبـده ملاحظة هامة عن ما قـال "وبعد وضع قاعـدة الشـورى، فوض الشـارع الأمر فى جزيئـات الأحكـام إلى أولى الأمر من العلمـاء والحكـام الـذى يجب شرعاً أن يكونوا من أهل العلم والعدل، يقررون بالمشـاورة ما هو الأصـلح للأمة بحسب الزمـان. وكـان الصـحابة عليهم الرضـوان يفهمـون هـذا من غـير نص عليه من النـبى عليه السـلام، كما يعلم من الحـديث الشـريف... بل نقل أنهم كـانوا، إذا رأوا المصلحة فى شىء يحكمون به وإن خالف السُـنة المتبعـة، كـأنهم يـرون أن الأصل هو الأخذ بما فيه المصلحة، لا بجزئيات الأحكام وفروعها".

وتحدث ولى الدين الدهلوى عن صورة الفقه فى عهد رسول الله تعـالى "إعلم أن رسول الله لم يكن الفقه فى زمانه الشريف مدوناً، ولم يكن البحث فى الأحكام يومئذ مثل بحث هؤلاء الفقهاء حيث يـبينون بأقصى جهـدهم الأركـان والشـروط والآداب، كل شىء ممتـازاً عن الآخر بدليلـه، ويفرضـون الصـور من صـنائعهم، ويتكلمـون على تلك الصور المفروضة، ويحدون ما يقبل الحد، ويحصرون ما يقبل الحصر إلى غير ذلك..

أما رسول الله فكان يتوضأ فيرى أصحابه وضوءه فيأخذون به من غير أن يـبين أن هذا ركن وذلك أدب. وكان يصلى فيرون صلاته، فيصـلون كما رأوه يصـلى، وحج فرمق الناس حجه، ففعلوا كما فعل. وهذا كان غالب حاله ولم يبين أن فروض الوضـوء سـتة أو أربعة، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حـتى يحكم عليه بالصـحة أو الفساد إلا ما شاء الله وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء.

وبالجملة فهـذه كـانت عادته الكريمة فـرأى كل صـحابى ما يسـره الله لـه، من عباداته وفتـاواه وأقضـيته فحفظها وعقلها وعـرف كل شـىء وجهـاً من قبل حقـوق القـرائن به فحمل بعضـها على الإباحة وبعضـها على الاسـتحباب وبعضـها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده، ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والثلج من غير التفات إلى طرق الاسـتدلال. كما تـرى الأعـراب يفهمـون مقصـود الكلام فيما بينهم، وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويح والإيماء من حيث لا يشعرون".

* * *

وهكذا نرى أن وقائع التاريخ تثبت أن الأديـان فى نشـأتها الأولى إنما كـانت ثـورات تحرير استهدفت إنقاذ الجماهير المسحوقة العـاجزة وإعـادة الكرامة والعدالة والحرية وقاد هذه الثورات قـادة من نـوع جديد هم الأنبيـاء وهم لا يطلبـون أجـراً ولا يحرصـون على منصب ولا يستعلون فى الأرض.

حــدث هــذا بالنسـبة لليهودية الــتى انقــذت اليهــود والمسـيحية الــتى أنقــذت المستضــعفين وللإســلام الــذى وحد القبائل وجعلها رسل حضــارة تحمل الكتــاب والميزان.

ثم نجد ثانيا النصوص التى لا عداد لها فى القـرآن الكـريم عن كرامة الإنسـان وأن الإسلام إنما نزل لتعزيز هذه الكرامة الـتى أرادها الله له عنـدما اسـتخلفه على الأرض وسخر له كل قواها وحمى القرآن هذه الكرامة بتحقيق حرية الاعتقـاد ليكـون ضـميره حراً، وحرم كل اعتداء على جسده – باختصار هو دين الفطرة – أى دين الإنسان.

لم يكن مجتمع "ولعل كلمة مجتمع أدق من كلمة دولة" لأن ما أسسه الرسول فى المدينة لم يكن دولة قدر ما كان مجتمعاً"[23]. مجتمعا ملائكيا خلا من الخطأ.

إن الرسول نفسه لم يـدع لنفسه العصـمة إلا فيما كلف بتبليغه عن الله – أما فيما عدا هذا فقد رأى أن الناس أعلم بدنياهم، وأنه بشر مثلهم، وأن البعض قد يكـون الجن بحجته فيقضى له لأنه لا يعلم السرائر وقد صحح الوحى له الكثـير من اجتهاداتـه، فـإذا كان هذا هو حال الرسول فما بالك بحالة عامة الناس.

لم يكن مجتمع المدينة ملائكيا، ولكن هذا لا ينفى – بل هو يثبت – أنه كان مجتمعـاً إنسانياً بصورة لم تسبق.

فى مجتمع المدينة كان الرسول يعرض نفسه للقصاص وعاش كفافاً ولما مات آل كل ما ترك للمسلمين لأن الأنبياء لا تورث، وكان الخليفة يقول "إن أخطأت فقومونى، وأنه لا طاعة له إذا عصى الله، وكان الناس يجابهون الخليفة بـأنهم يقومونه بسـيوفهم إذا انحرف وكان هو يقول "لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم تقبلها".

فى أى نظام وجد هذا..

أن لدينا كل النظم. لم يكن هذا فى الديمقراطية الأثينية، ولم يكن فى روما عندما كانت جمهورية لا تزال تحتفظ بتقاليد الحرية، ولا فى أى دستور حديث..

فى مجتمع المدينة كان الخليفة يـرى نفسه مسـئولاً إذا عـثرت بغله بـالعراق، ولم يكن له حرس وكـان يجـول بالأسـواق وينـام فى المسـجد، ولا يتقاضى إلا ما يتقاضـاه الوسط من الناس.

فى مجتمع المدينة عندما تكاثرت الأموال عقب الفتوحـات وضع عمر بن الخطـاب ديوان العطاء الذى كان لكل فرد حق فيه، ولما علم أن بعض الأمهات يسرعن بفطـام أبنائهن حتى يستحقون العطاء، أمر بـأن يكـون العطـاء لكل مولـود. لقد اسـتلفت هـذا

[23] **(23) أنظر كتابنا الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة "الباب الأول".**

النظام انتباه طه حسين ورآه فريداً بين كل نظم "التأمينات" التى تأخذ بها الــدول فى العصر الحديث.

فى مجتمع المدينة كـان إيمـان الفـرد بالقـانون يجعله يسـعى للقاضى ليوقع عليه العقوبة أو "ليطهـره" من أوزار الجريمــة، لأن العقـاب مكفـر، وكـان إيمـان القاضى بالإنسان يجعله يرده بكل الطرق، حتى ليلقنه الأفكار.

فى أى نظام قضائى تلاقى الإيمان بالقانون والإيمان بالإنسان كهذه الصورة..

فى مجتمع المدينة كان كل فرد آمن تمامــاً من أن يقضى عليه أو يسـجن، بسـبب بسيط هو أنه لم يكن بالمدينة بوليس ولا سجن..

كان مجتمع المدينة قفزة فـوق التطـور وحقق سـابقة فريـدة فى التـاريخ لتطـبيق "اليوتوبيا" التى تمناها الفلاسفة، ولا يضيرنا أن لا نجد إشارة إليها فى كتابات الغربــيين الـذين يخـتزلون الحضـارة ما بين أثينا ورومـا، وأن كـان يحز فى أنفسـنا أن يشـاركهم المؤرخون العرب والمسلمون..

لقد أوجد مجتمع المدينة مجتمع الإنســان حــتى وإن لم يحمل اســمه لأن للأديــان طريقتها وتعبيراتهـا. المهم أنه أوجد إنسـاناً مطمئنا راضـيا تكفل له الرعاية وحكومة لا تعرف جبروتا أو سلطوية تحكم بالقانون تحت رقابة الشعب الذى يحاسبها ويقومها.

وتحقق هــذا منذ ألف وأربعمائــة عــام وبصــورة أفضل مما بلغتها الصــور الحديثة للتقدم الديمقراطى فى الغرب.

أما أن هذه التجربة الفريدة لم يطل بها الأمد، فهذا صحيح – ولكنها حدثت بالفعل، ولا أحد يتصور أن تعود بهذا الشكل، وقصارى الأمل أن تكون صــورتها – وذكراها حائلة دون الوقوع فى أسوأ وصمات وموبقات التطور. أن نعود إلى منابع الإســلام الصــافية: القــرآن والرســول وأن نســتثمر كل إمكانيــات العصر فى ســبيل ذلك وحــافزا على الوصول قدر الطاقة إليها، فإذا كان هذا لم يتحقـق، فـذلك لأن ظـروف التطـور حـالت دون ذلك، ولأن الطبيعة الإمبراطورية للدولة الإسـلامية الـتى وضع فى ظلها الأسـلاف منظومة المعرفة الإسلامية فرضت نفسها بغشومة بحيث جاءت أحكام هذه المنظومة تبعا لمقتضياتها، وليس تبعا للقرآن والرسول.

ونحن اليــوم وقد انتفت الضــرورة الــتى تحكمت فى منظومة المعرفة الإســلامية قديماً وتفتحت أبواب الحرية والمعرفة نستطيع أن نوجد مجتمعــاً أقــرب ما يمكن إلى مجتمع المدينة.

المأخذ الثانى

قوى التحول تفرض

الطبيعة الإمبراطورية تفرض نفسها على منظومة المعرفية الإسلامية

إذا كان الأباء المؤسسون لم ينطلقوا فى منظومتهم المعرفية من الهدف الذى أراده الإسلام، أعنى الإنسان، فإن هذا إنما يعود إلى أن قوى التحول التى ظهرت فى النصف الثانى من خلافة عثمان.. وأخذت شكلها المؤسسى عام 40 عندما حول معاوية بن أبى سفيان الخلافة إلى المُلك العضوض ونقل العاصمة من المدينة التى كانت لا تزال تحتفظ بنبض ورائحة، وأثر وذكريات الرسول والمجتمع الذى أقامه إلى دمشق وهى عاصمة البيزنطيين وما حفلت به هذه الحقبة من أحداث مأساوية مروعة أنهت تماماً المرحلة النبوية مرحلة الرسول وأبى بكر وعمر وعلى ومجتمع المدينة الآمن المطمئن وبدأت المرحلة الإمبراطورية وظهر فيها أمثال معاوية، وزياد، ويزيد وعبد الملك بن مروان والحجاج وأبو مسلم والسفاح وأبو جعفر المنصور وكل هؤلاء جبابرة أقاموا ملكهم على القوة الباطشة، وبعد أن شنوا حروبا على معارضيهم سألت فيها الدماء أنهاراً.

لكى نلم بمدى ضخامة ومأساوية التحول فلنا أن نتصور عثمان وهو جالس ومصحفه بين يديه والسيوف تتناشه وزوجته تدافع عنه باليدين حتى تقطع السيوف أناملها ثم نتصور كيف حال لدد الخصومة دون أن يدفن الدفنة المناسبة بالخليفة وإنما حمل جثمانه على لوح خشبى وساروا به فى ظلمة الليل ومعهم أبنته عائشة تحمل مصباحاً فى حق حتى أتو به جسر كوكب فحفروا له حفره فدفنوه، ولم يلحدوا وحثوا عليه التراب وكان بعض الثوار يريدون رجمه ودفنه فى مقابر اليهود بسلع.

لكى نقدر عظم وفداحة هذا التحول علينا أن نتصور أم المؤمنين عائشة فى هودجها تتوجه إليه الرماح والسهام بينما تدافع عنها ألوف الأيدى التى تنقطع حوله حتى أصبح أشبه بالقنفذ..

لكى نقدر النقلة البعيدة التى أخذها التحول علينا أن نتصور المسلمين فى صفين.. عندما نهد الجيشان العظيمان اللذان هما كل جند الإسلام يحارب بعضهما بعضاً.

ألم يقل الرسول "لا تنقلبوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض".
أفليس هذا هو ما فعلوه؟ أفليس من الحق أنهم وفيهم البقية الباقية من الصحابة كانوا وقتئذ أقرب إلى الكفر منهم للإيمان..

علينا أيضاً أن نتصور الحكمين أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص وهما يتقارضان السباب فيقول أبو موسى "مالك عليك لعنة الله ما أنت إلا كمثل الكلب يلهث. ويرد عمرو بن العاص ولكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً"..

ألم يقل الرسول إن المؤمن ليس بسباب ولا طعان ولا لعان..

لنتأمل المفارقة التى أوجدتها قوى التحول فى أن يجابه أحد الخـوارج على بن أبى طـــالب وهو أتقى الأتقيـــاء وأول من آمن من الصـــبيان وزوج فاطمة induced ووالد الحسن والحسين فيقول له إنى لأتقرب إلى الله بدمك. ويمتدح آخر قاتله..

يا ضربه من تقى ما أراد بهــا إلا يبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكـره يـوما فأحســـبه أوفى البـرية عنـد الله ميزانا

لقد أشرنا فى صفحات سابقة إلى خطبة زياد بن أبيـه، وإلى خطبة الحجـاج، وإلى ما حـدث فى كـربلاء وغـزو المدينة واسـتباحتها وضـرب الكعبة بـالمنجنيق وإلى وصـية الإمام إبراهيم إلى أبى مسلم وهى كلها تنضح بأسوأ صور الطغيان والجبروت، وتحدثنا فى مســتهل هــذا الفصل عن مــدى ودلالة ما ختمت به الخلافة من مشــاهد درامية – مأساوية كادت أن تجعل المسلمين كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض. فإذا كان هذا قد حدث ولم يبعد العهد بالرسول فلنا أن نتصور الشقة البعيدة الـتى قطعها مـرور مـائتى سـنة على هـذه الأحـداث مـات فيها كل الصـحابة، وكل التـابعين، ولم يبق إلا تـابعى التابعين الذين قاموا بوضع المنظومة المعرفية..

* * *

ولم يقف الأمر عند إنهـاء قـوى التحـول للمرحلة القرآنيـة/ النبوية الـتى عاشـتها المدينة وبلـورت إسـلام الإنسـان وأحلت محلها إسـلام السـلطان، إن عناصر أخـرى تدخلت وكانت تدفع قوى التحول وتعززها وتزودها بدماء جديدة.

لقد أشرنا عند الحديث عن أسباب تعثر جهود التجديد والإصلاح فى العصـور الأولى للإسلام إلى الأثر المشوش الذى أوجـده دخـول ملل ونحل شـاذة حملتها التحزبـات ما بين شيعة، وخوارج، ومرجئـة، ومعتزلة ولكل واحـدة متطرفوها الـذين جـاءوا بـدعاوى بعيدة عن الإسلام. لأن حملتها كـانوا من الفـرس أو الـروم أو الـديلم الخ... من الـذين دخلوا إلى الإسلام دون أن يتخلصوا من رواسـبهم الحضـارية القديمة وكـانوا هم تقريبا الـذين آلت إليهم الإمامة فى التفسـير، وفى الحـديث، وفى الفقه بل وفى اللغة الـتى كـان يفـترض أن يكونـوا بحكم عجمتهم أبعد النـاس عنهـا، ولا يتسع المجـال للحـديث بالتفصيل وحسبنا الإشـارة إلى إن الإمـام فى اللغة هو سـيبويه، وأن أول من كتب عن التفسير هو عبد الملك بن جريج، وهو ابن لاب من الروم كما ينم على ذلك اسمه، وأن خمسة من الفقهاء الستة كانوا من الموالى، وأن أبا حنيفـة، وهو أبـرز إمـام من الفقه يعود إلى أصل من المـوالى وأن حملة علم عبد الله بن عمر وابن عبـاس كانا مولاهما نافع وعكرمة.

وليس لدينا تحيز ضد الموالى من أى نوع. فقد كـانوا أكـثر من العـرب إقبـالاً على العلم وتحصـيلاً للمعرفـة، وإنما نقـول إنهم، وحـتى وإن لم يشـعروا – ظلـوا متـأثرين برواسب حضاراتهم القديمة فارسـية أو بيزنطية أو هنديـة، وأنهم فهمـوا النصـوص فى ضوء هذا التأثر خاصة وانهم كانوا أكثر تقبلاً للوضع الإمـبراطورى وإسـاغة له والتعامل معه لأنه يشبه إمبراطوريـاتهم القديمة بقـدر ما كـانوا على مبعـدة من طبيعة الإسـلام

الــتى اكتسب بعضــها من الصــحراء الحــرة الطليقــة، ومن مجتمعها الــذى لم يعــرف الأبــاطرة والقياصــرة. ولهــذا لم يجــدوا فى تقبل الأوضــاع الإمبراطورية أى ضــير أو مخالفة، بل رأوا أنها الوضع الطبيعى للأمور.

أضف إلى الملل والنحل والأجنــاس الوافــدة الفلســفة الــتى ظهــرت مع ترجمة كتابات أرسطو وكـانت تتفق مع توجهـات المرحلة الإمبراطورية ومع نفسـيات العناصر التى هيمنت على السياسة والحكم لأن هذه الفلسفة الأرسـطية كـانت تعـالج القضـايا معالجة نظرية عقلانية بعيدة كل البعد عن الحس الإنسانى والنبض الحيوى الذى تقــوم عليه حركات التحرير، وقد كان لمنطق أرسطو أثر كاسح على الفقه الإســلامى إذ نجد الاهتمــام كل الاهتمــام به والإيغــال كل الإيغــال فى عــالم الفقه وبالألفــاظ ودلالاتها واستقامة الكلمة ومعانى الحروف.. ثم نجد المنطق الأرسطى الشكلى وهو فى مجال الفكر، كالنحو فى مجـال اللغة يسـيطر على منـاخ العملية كلهـا. ونجد التفسـير يقــوم على عــزل كل آية عما سـبقها، أو ما لحقهـا، مما يكـون على حسـاب المعـنى العـام، ويجعل المعالجة تقتصر على الألفاظ والكلمات. وإذا كان هناك نظريـات تحكم الفقه – فهى بتعبــير الــدكتور على جمعه – مفــتى مصر وأحد فقهائها النــابغين "هى نظرية الحجيــة، نظرية الثبــوت"، نظرية الدلالــة، نظرية القطعية والظنيــة، نظرية الإلحــاق، نظرية الإفتاء"[24].. ونجد عناية قصوى فى "التعريف" بحيث يكـون جامعـاً مانعـا، ومن هنا فقد تتعـدد التعريفـات لأن أحـدها لم يسـتكمل كل الشـروط وكل كلمة لها معناها ففى الحكم يعرفونه بأنه "خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التمييز أو الوضــع" ويلحظ الــدكتور على جمعه أن بعض الأصــوليين يقولــون إنه "خطــاب الله المتعلق بأفعال العباد" بدلاً من المكلفين. ويرد على هـذا بـأن المكلفين أدق، فقد أراد الذين قالوا "العباد" أن يدخل فى خطاب الله ما يتعلق بأفعال غـير المكلفين كالبهـائم مثلاً، فلو أن بقرة أتلفت زرعاً لأحد الأشخاص فإن ضـمان هـذا الائتلاف على صـاحبها، ولكن الحكم لا يخاطب به البهيمة ولكن صاحبها فالمكلفون هم المخاطبون بكلام الله.

ويقولون إن خطاب الله إما أن يكون بالاقتضـاء (أى طلب) أو تخيـير (بين أمـرين) والاقتضاء إما أن يكون طلب فعل أو طلب ترك وكل منهما إما أن يكون جازما أو غــير جازم ولذلك أعطى الأصوليون لكل قسم من هذه الأقسام إسماً، فـالطلب الجـازم هو الواجب وطلب الترك الجازم هو الحرام أما الطلب غير الجازم فهو بالفعل يعد منــدوبا وبــالترك يعد مكروها والتخيــير هو المبــاح. وفى الــواجب أثمــاً لتركه وثوابا لفعله والمنــدوب فلا أثم لتركه ولأن هنــاك ثوابا لفعله أما الحــرام فهنــاك أثم لفعله وثــواب لتركه والمكره لا أثم فى فعله، ولكن فى تركه ثواب. أما المباح فلا أثم فيه ولا ثــواب، وقد وضــــعه الأصــــوليون فى الحكم التكليفى على ســــبيل التغلب لأنه متعلق بفعل المكلف.

---

[24] **(24) الطريق إلى التراث.. د. على جمعه نشر المعهد الإسلامى ص71.**

وهناك أيضاً الحكم الوضعى وهو يتعلق بملابسات الحكم وهو خمسة أقسـام تجمع المشهور وهى السبب، والشرط، والمانع والصـحة والفسـاد وقيل إنه وضـعى لأن الله تعالى قد وضع أشياء إزاء أخـرى "فمثلاً إذا كـان كـانت الشـمس تحت مسـتوى الأفق بنحو 180 درجة إذن للفجر ويجب علينا أن نقوم فنصلى الفجر.. وحركة الشمس هـذه هى علامة جعلت إزاء وجـوب الصـلاة، فـإن وجـدت وجد الوجـوب وإن لم تـوجب لم يوجب الوجوب وهذا ما يسميه الأصوليون "السبب" وعرفـوه بأنه ما يلـزم من وجـوده الوجوب ومن عدمه العـدم.. ولكن الأصـوليين وجـدوا إن هنـاك علامـات أخـرى تختلف علاقتها عن علاقة السبب، كالوضوء بالنسبة للصلاة فـإذا كنت متوضـئاً فليس ضـروريا أن أصـلى ولكن إن لم أكن متوضـئاً فلا يصح أن أصـلى. إذن فهـذا الفعل يسـتفاد من عدمه العدم، ولكن لا يستفاد من وجوده الوجوب. وأطلقوا على هذا شرطا.

أما "المانع" فقد وجدوا أنه علاقة إذا ما وجـدت امتنع الفعل وإذا لم توجد لم تـؤثر شيئاً فى الفعل لا وجوداً ولا عـدماً وكأنها عكس الشـرط وذلك مثل مـانع القـربى فى الـزواج فنفـترض أن رجلاً وامـرأة أزمعا الـزواج واتضح أن بينهما رضـاعا فوجـود هـذا الرضاع يؤدى إلى عدم الزواج، ولكن إذا لم يوجد هذا الرضاع فقد تتم الزيجة أو لا تتم أذن يلزم من وجود المـانع عـدم وجـود الفعـل، ولا يلـزم من عـدم وجـوده أى شـىء" انتهى[25].

ليس هذا الاستشهاد إلا غيض من فيض، وقطـرة من بحر مما تـذخر به كتب الفقه وقد أخـذناها فى أكـثر صـورها تبسـيطا مما قدمه أحد الـذين أوتـوا العلم الشـرعى التقليدى والثقافة الحديثة وهو الدكتور على جمعه، فهـذا الفقه يمثل الدقة المتأتية من تزاوج اللغة مع المنطق وما يمكن أن يكون أساساً يفخر به كل القـانونيين ولكن الأمر بالنسبة لأصول الفقه أعظم من القـانون. إن التشـريع يمثل "الدسـتور" بينما القـانون يعنى بتفاصيل الدستور. والتشريع يأتى من فلسـفة عامـة، أو نظرية متكاملـة، أو رؤية شاملة، أى موقف الإنسان من الكون والحياة، والوجود ولم يفت علماء المسلمين هذا المعنى فقد قـالوا للأسف الشـديد إن الـذى يجب علينا هو علم التوحيـد، والخلاصة أن المسـلمين أجـابوا أن الله سـبحانه وتعـالى هو الـذى خلقنـا، وإننا هنا نطبق شـريعته (أوامره ونواهيه) وإننا سوف نجمع ونعرض عليه ونعـود إليه فى نهاية المطـاف أى بعد الحياة الدنيا حياة آخـره، وهـذه الرؤية الكلية – فيما يـرى الـدكتور جمعه تـؤثر ولا شك حتى فى سلوك الإنسان اليومى، فى أفعاله.

نقول إن هذه ليست هى الرؤية الكلية التى كان يجب على علمـاء أصـول الفقه أو التوحيد أن يروها إن الرؤية هى ما قــدمنا من أن الإســلام إنما أنــزل لتــدعيم كرامة الإنسان ولإيجاد المجتمع الذى تتوفر الشروط التى تـؤدى لتحقيق هـذه الغاية وأن هـذا

---

[25] (25) الطريقة إلى التراث تأليف الدكتور على جمعة – نشر المعهد العالى للفكر الإسلامى ص17.

هو المضمون العملى لكـون الإنسـان خليفة الله تعـالى على الأرض. وأن هـذا الهـدف الأعظم من الأديـان يجب أن يلحظ عند وضع أى تشـريع أو تقـنين. فلا يوجد قيد على حرية الفكر لأن حرية الفكر هى ضـمان لصـيانة العقل والضـمير وهى كرامة النفس الإنسـانية، ولم تكن الآيـات الـتى تؤكد هـذا لتعـوز الفقهـاء فهى مكـررة. وبالمثل فـإن التحريم المؤكد للظلم والاستغلال وكل صور الإكراه والتسلط توجب انتفـاء أى قـانون يسـمح بهـذا وأن تكـون القـوانين فى كل ما يخص العلاقـات أى علاقـات الحـاكم بـالمحكوم، الرجل بـالمرأة، الرأسـمالى بالعامل الخ... قائمة على أسـاس العـدل وأن يكون الحكم قائماً على أساس الشـورى، وما يطلقـون عليها تجـوزا الديمقراطية لأنها هى وسيلة الحكم ووسيلة التوصل إلى القرارات، وهو ما يتفق مع حرية الفكر.

وفى قضـية العقل والنقل كـان يجب تقرير أن العقل هو أعظم ما يمـيز الإنسـان بدليل أنه كان المبرر الذى جعل الملائكة تسـجد للإنسـان ومن هنا فيجب تقرير المبـدأ أن كل ما يقضى به العقل يقضى به الشـرع، وأنه لا يمكن أن يكـون هنـاك تعـارض ما بين العقل والشرع، وإن كان من المعقول أن الـوحى يمكن أن يصل إلى ما يعجز عنه العقل بالنسبة لذات الله تعالى ولوجود العالم الآخر. وهذا لا يتضمن منافـاة أو تعـارض ما بين العقل والشرع ولكن يمثل إضافة يقدمها الوحى يعجز عنها العقل.

إن الرسـول عنـدما عـرف الحلال والحـرام قـال الحلال ما أحله الله فى كتابـه، والحرام ما حرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيتـه" وإن الإسـلام عنـدما قـرر مبـدأ الـبراءة الأصـلية جعل الأعمـال كلها مباحة ما لم يـأت فى القـرآن نص بتحريمه لا يقبل تـأويلاً، وهـذه المبـادئ هى الـتى كـان يجب أن يسـتلهمها الفقهاء عند وضع أصول الفقه.

* * *

لنحاول الآن أن نلم شعث هذا الفصل. فقد رأينا أن قوى التحـول قد أدت إلى قتل عثمان ولأن يضرب المسلمون أعناق بعضـهم بعضـاً فى صـفين وأن يوجهـوا سـهامهم نحو هودج عائشة ثم جاءت السياسات الإرهابية الـتى عـبرت عنها خطب زيـاد بن أميه والحجاج وتوصية الإمام إبراهيم لأبى مسلم، ومقتل الحسين فى كـربلاء وغـزو المدينة وضرب الكعبة بالمنجنيق وانتقـال العاصـمة من المدينة إلى دمشق أولاً ثم بغـداد ثانيا وتطورها إلى إمبراطورية لا تغـرب الشـمس عنها أو لا يتجاوزها السـحاب[26]. ودخـول الترك مع حكم المعتصم ودخول الديلم بعد ذلك.

واصـطحب هـذا التطـور بزحف الأجنـاس الـتى لم تكن تتقن العربية أو يتعمق فيها الإسلام حاملين رواسب حضاراتهم بل وناقلين لنظمهـا.. واقـترن بزحف الفلسـفة إلى الدرجة التى أرتوى فيها أنها هى وحدها التى تنقذ الشريعة، والتى عنـدما اسـتخدم فيها منطق أرسطو أصبحت مماحكات نظرية وكلامية.

---

[26] **(26) إشارة إلى كلمة الرشيد إلى سحابة عابرة "أذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك.**

وأخيراً، فيجب أن لا ننسى أن بداية كل هذه البادرة الأولى فى هذه التطورات إنما جـاءت من قبل معاوية بن أبى سـفيان، وهو الـذى تبلـورت فيه النفسـية الأموية الـتى صارعت الفرع الهاشمى من قريش قبل رسالة الرسول وبعــده. وأن معاوية ظل واليا على دمشق عشرين عاما واسـتطاع أن يخـدع عمر بن الخطـاب الـذى سـاوره الشك فيه. وهل كان يمكن لمعاوية، ولديه النفسية الأموية، أن يظل عشرين عامـاً واليا على المنطقة البيزنطية القديمة دون أن يتأثر بالتقاليد والسياسات البيزنطية.. لقد كان هذا التأثر عاملاً جعله يسير إلى نهاية المدى الذى اتخذه بتحويل الخلافة إلى مُلك.

نتيجة لكل هــذه التطــورات، وعلى ممر ثلاثة قــرون حافلــة، وجد فى الإمبراطورية الإسلامية نقط التقاء تجمع بينها وبين الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

وعنــدما هــزم الجيش العباسى محمد بن عبد الله "النفس الذكيــة" وقتلــه، أمر عيسى بن موسى قائد الجيش العباسى بقتل كل أصحابه ثم صلبوا صفين على حافتى الطريق ما بين ثنية الوداع حتى دار عمر بن عبد العزيز، ووقف أمام كل صليب حارس يحول دون الجثة وأهلها حتى لا يواروها بالتراب ودام ذلك ثلاثة أيام حتى تأذى الناس – فأمر عيسى بن موسى بالجثث.. فألقيت من فـوق سـلع لتسـقط فى الفـرح – مقـبرة اليهـود – فهل كـان لـدى أبى جعفر المنصـور وقائـده عيسى بن موسى نبأ ما صـنعه الرومـان بجيش سـبارتاكوس عنـدما هـزم وأمر القائد الرومـانى بصـلب جميع أفـراد الجيش المهـزوم على جـانبى الطريق من كـابو حـتى رومـا، وأوقف الحـرس أمـامهم ليحولوا دون أن ينزلهم أحد؟ أغلب الظن أن أبا جعفر المنصـور وعيسى بن موسى لم يكن لديهما علم بهـذه القطعة من أفـانين الوحشـية، ولكنها ضـراوة الملك جمعت بين الطغاة الوثـنين والطغـاة الـذين حملـوا اسم الإسـلام وانتسـبوا إلى الرسـول، وجعلت أعمالهم واحدة.

وقــامت فى الإمبراطورية الإســلامية ثــورة الــزنج كما قــامت فى الإمبراطورية الرومانية ثورة سبارتكوس وانفردت الإمبراطورية الإسلامية بظاهرة تمثل مدى بعــدها عن أدب الإســلام فقد أعلن كثــير من الــذميين إســلامهم، وكــان يجب على الدولة الإسـلامية أن تـرحب بـذلك. ولكن الـذى حـدث أن الـولاة اعتقـدوا أنهم إنما أسـلموا ليتخلصــوا من الجزيــة، ورفضــوا أن يعفــوهم منها بعد إســلامهم، وكــانت بداية هــذه الظـاهرة قد تبـدت فى خلافة عمر بن عبد العزيز عنـدما كتب إليه أحد ولاته أن بعض الذين اعتنقوا الإسلام تخلصوا من الجزية، ويسأله الإبقاء عليها فرد عمر بن عبد العزيز رداً عنيفاً وقال فى آخره أن الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا، ولكن العهد كان قد سار بعيداً عن أيام عمر بن عبد العزيز.

وخذ هــذا النص الــذى يــأمر بــاللحن وينهى عن اســتخدام العربية الفصــحى عند مخاطبة الملوك والحكام وقدمه لنا قدامه بن جعفر فى كتابه "نقد النثر".

وأما الوضع الـتى يجب أن يسـتعمل اللحن فيها ويتعمد له فى أمثالها ويكــون ذلك مما يوجه الرأى فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لا يعربـون فمن الـرأى لــذى العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يعــرب بين أيــديهم وأن يــدخل فى اللحن

مدخلهم ولا يريهم أن له فضلاً عليهم، فإن الـرئيس والملك لا يحب أن يـرى أحـداً من أتباعه فوقـه، ومـتى رأى أحـداً منهم قد فضـله فى حـال من الأحـوال نافسه وعـاداه وأحب أن يضع منه". (طبع بولاق ص162).

فانظر إلى المدى الذى وصـلت إليه الأمـور فى البعد عن الأصـول، وأن الانحـراف أصبح هو الأصل..

هل يتصور أن هذه التطورات، العميقة لم تنسحب على فهم وتأويل الفقهاء، أو لم تلزمهم شعوريا أو لا شعوريا بأن تتمشى أحكامهم مع الوضع الإمـبراطورى السـلطوى قـــدر ما تبتعد عن الوضع القـــرآنى/ النبـــوى/ الإنســـانى الـــذى وجد فى المدينة عهد الرسول.

وقد يشكر لهم أنهم اعترفوا إلى حد ما بهذا ما بين خلـدون الـذى يقر بـأن الخلافة الماثلة هى الملك الذى يقـوم على العصـبية – أو القـوة، والمـاوردى الـذى يضع لكتابه عنوان "الأحكام السـلطانية" كما نجد الجاحظ يضع لكتـاب من كتبه إسم "التـاج" وابن طباطبا يضع فى "الفخـرى" عنوانـاً لأول فصـوله فى الأمـور السـلطانية والسياسـات الملكية ويقــول عن الخلافة الراشـــدة إنها كـــانت أشـــبه من الـــرتب الدينية فى جميع الأشياء، وأن الدول الإسلامية القائمة لا علاقة بها إلى هذه الدولة حتى تذكر معها.

ما نريد أن نصل إليه هو أن هذه القوى أنهت كل المضامين الثورية/ الإنسانية التى اســـتلهمت خلال المرحلة النبوية والخلافة الراشـــدة. وأحلت محلها أحكامـــاً تتفق مع الأوضاع الإمبراطورية وانعكس هذا على الأحكام المتعلقة بالموقف من الحاكم إذ تقرر التسليم للحـاكم ولو "ضـرب ظهـرك واغتصب مالـك" لأن البـديل هو الفتنة الـتى رأى الفقهاء إنها أسوء مما عداها. ولم يبرر الثورة على الحـاكم إلا إذا اقـترف كفـراً بواحـاً لكم فيه من الله سلطان كان لا يقيم الصلاة الخ...

واعتمد الفقهاء حديث عكرمة رغم رفض الإمام مسلم له "من بدل دينه فاقتلوه". ثم توصلوا إلى صيغة من "جحد معلوماً بالضرورة". بحيث أصبح ذلك سيفاً مشهراً على كل معارضة أو تجديد وشاعت فكرة دونية المرأة التي قننها أرسطو وفرضها على الحضارة الرومانية، وتأثر بها الفقهاء فيما تأثروا به، وأنها عورة، وفتنة، فحيل بينها وبين شهود الصلوات فى المساجد، وفرض عليها النقاب، وأنسيت الزكاة التى حارب فى سبيلها أبو بكر وتضخم فقه العبادات وبهتت تماماً حاسة العدل واستبد السادة بعبيدهم حتى قاموا بثورات "الزنج" و"القرامطة".

المأخذ الثالث

المأخذ الثالث أن الأسلاف عندما وضـعوا منظـومتهم غفلـوا عن أثر عامل هـام هو الكيد للإسلام من قبل خصومه سواء كانوا من مشركى مكة أو من منافقى المدينة، أو من اليهود بعد أن ظهر أن اضطهاد المؤمـنين لم يـؤثر فيهم وأن النيل من الإسـلام لن يأتى من هذا القبيل ومن هنا سـلك هـؤلاء سـبلاً آخر أشـار القـرآن إلى بعضـها ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. {26 فصلت}.. ﴿وَقَـالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. {72 آل عمران}..

وقد وجد هؤلاء الأعداء أنهم لا يستطيعون أن يغيروا أو يبـدلوا فى القـرآن الكـريم، فهو ثابت محفـوظ فى صـدور الرجـال ومكتـوب على الرقـاع فـانتهوا إلى أن الطريقة الوحيــدة الممكنة للنيل من الكتــاب العزيز هى افــتراء أحــاديث تفتــات عليه وتشــوه صفحته وتثير الشكوك حوله ولم يكن يبحث عن السند إلا بعد فتنة عثمــان. أما ما قبل ذلك فكانوا يقبلونه اطمئنانا إلى إيمان المؤمـنين، وغفلة عن كيد الكـافرين. فكـان من السهل أن يلفقوا لها سنداً فدخلت هـذه الأحـاديث السـفاح المجهولة الأب والمزعومة السند فى عداد الأحـاديث الـتى ظن إنها بمنجـاة من الكـذب والوضع قبل فتنة عثمـان وتلاقى هذا مع مد البحث عن الأحاديث وبعد أن سمح عثمـان للصـحابة بالانسـياب فى الأنصــار ففتنــوا وفتنــوا ورويت عنهم روايــات لا أصل لها وقبلت هــذه الروايــات دون تحقيق سندها. وأصبحت السُنة تموج بالألوف من الأحاديث، وكان هذا هو المناخ الــذى سمح بقبول هذه المؤتفكات.

وقد يجـوز لنا أن نتسـاءل كم طفل من أطفـال بـنى قريظة لم يكن قد بلغ الحلم، وعاش بين المسلمين وكم امرأة منهم سبيت ودخلت البيت المسلم، ولعلها قد ولــدت وربت وليدها على بغض الإسلام، وليس هـذا إلا حالة واحـدة من حـالات الكيد للإسـلام بمجرد ظهوره.

وعنـدما نعلم أن اليهـود، وبالـذات يهـود بـنى قريظة حـاولوا التـأثير على عمر بن الخطاب فستكون لـدينا فكـرة عن مـدى ما حـاولوه. إذ دفع أحـدهم إليه بصـحيفة من أخبارهم يقرأهـا، وقبل ذلك عمر بن الخطـاب بـدافع الفضـول والتعـرف على فكـرهم وعندما ذكر ذلك للرسول غضب غضباً شديداً ونهى عمر عن ذلك.

ولدينا روايتان عن هذه الواقعة تضمنهما مسند الإمام أحمد بن حنبل:

الأولى عن جـــابر بن عبد الله أن عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه أتى النـــبى بكتاب أصـابه من بعض أهل الكتـاب فقـرأه النـبى فغضب فقـال أمتهوكـون فيها يا بن الخطــاب؟. والــذى نفسى بيــده لقد جئتكم بها بيضــاء نقيــة، لا تســألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى حيـاً ما وسعه إلا أن يتبعنى.

والثانية عن عبد الله بن ثــابت قــال جــاء عمر بن الخطــاب رضى الله عنه إلى النبى فقال يا رسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التــوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله. قال عبد الله فقلت له ألا تــرى ما بوجه رسول الله فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسـولا، قـال فسُـرى عن النبى ثم قال والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضـللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين[27].

وفى موقعة اليرموك ضم المحدث الدقيق والذى يعد من أوثق الرواة فى الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص حمل زاملتين (نـاقتين) من أحـاديث أهل الكتـاب، ولسـنا نعلم على وجه التحقيق هل اختلطت هذه الأحاديث بأحاديث صحيفته القديمة التى كان

---

[27] **(27) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام احمد بن حنبل الشيبانى للشيخ البنا ص 175 ج1**

يسميها الصادقة أم لا.. ولكن السـيدة عائشة عنـدما علمت بـذلك تطـرق إليها الشـك، ولم تعد تأخذ حديثه مأخذ التسليم.

فإذا كان أمثال عمر بن الخطـاب وعبد الله بن عمـرو بن العـاص وكل واحد منهما إمام فى بابه كان هدفا عمل بعض اليهود للتأثير عليه، فما بالنا بالباقى ..

وكان الرسول قد تنبه إلى هذا الكيد عندما توعد الـذين يكـذبون عليه بالنـار. إذ لم يكن ليعقل أن يكذب عليه "متعمداً" أحد من الصحابة وهم الـذين آمنـوا به ولا الأنصـار الـذين آثـروا على أنفسـهم، فلم يكن هـذا الحـديث لينطبق إلا على مشـركى مكـة، ومنافقى الدين واليهود، وهذا هو ما حدث بالفعل.

على أن الوضع لم يقتصر على أعـداء الإسـلام، بل شـمل عناصر بين الـذين ثـاروا على عثمان أو تحيزوا إلى فئة بعد الحـرب بين على ومعاويـة، ثم بعد أن نصب معاوية منــبرا لكعب الأحبــار يــروى فيه قصصه وأنبائه المزعومة عن القــرآن، وقــدم الجميع تفسيراً مختلفاً لبعض الآيات أو ادعوا اختفاء آيات أو سور أو وقوع أخطـاء نتيجة لخطأ أو سهو النساخ كما أقحموا قضية الناسخ والمنسوخ التى لم نسمع عنها حـديثا صـحيحا وقت الرسول ووضعوا أسبابا مدعاة لـنزول القـرآن ووضـعت هـذه الأحـاديث كلها فى عهد الرسول بدليل آيات القرآن التى أشـرنا إليها وحـديث الرسـول عن الافـتراء عليه وتتــابعت فى الفــترة اللاحقة للفتنة قبل البحث عن ســند ثم لما تبلــورت المــذاهب وتعصب الناس لبعضها دون بعض مما دفع "الوضاع الصالحين" لوضع أحاديث "حسبة" فى فضائل السور حتى يحولـوا النـاس إليها بعد أن تعلقـوا بالمـذهبيات، وأن يعيـدوهم إلى حظيرة الإيمان بعد أن بـدأت اغـراءات الـثروة والجـاه تجـذب الكثـيرين، فوضـعوا أحــاديث مروعة عن صــور من العــذاب لأقل انحــراف وأحــاديث رائعة عن صــور من الثواب فى الجنة لمن يكثر من الدعاء وقراءة القرآن، وحدث مثل هذا من بعض فئـات المتصــــوفين، والغلاة من الشـــيعة والمرجئة والمعتزلـــة. ومن الواضح أن أثر هــــذه الأحاديث الأخيرة يختلف عن أثر الأحـاديث الـتى أريد بها الطعن فى القـرآن وهز الثقة فيـه، ولكنهما معا يتفقـان فى مخالفة العقيـدة الصـحيحة الـتى أرادها الله والرسـول، واستهدفت الأحاديث الموضوعة بوجه خاص.

أ. الافتيات على القرآن الكريم بمختلف الادعاءات والتفسيرات.
ب. وضع أحاديث عن المرأة.
ج. وضع أحاديث عن الردة.
د. وضع أحاديث عن تبرير طاعة الحاكم الظالم لأن الثورة عليه تـؤدى للفتنة وهى أشد من الظلم.

وقد تقبل الأسلاف الذين وضعوا المنظومة المعرفية الإسلامية هذه الأحاديث.

وفيما يلى بعض الأحاديث التى تتعلق بالقرآن..

1. قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضعات معلومـات فنسـخن بخمس معلومـات فتـوفى رسـول الله وهن مما يقـرأ من القـرآن رواه الشـيخان قـال السـيوطى "وقد

تكلمـوا فى قولها وهن مما يقـرأ من القـرآن. فـإن ظـاهره بقـاء التلاوة وليس كـذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسـخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل النـاس إلا بعد وفاة رسول الله فتوفى وبعض الناس يقرؤها وقال أبو موسى الأشعرى نــزلت ثم رفعت وقال مكى هذا المثال فيه المنسوخ غـير متلو والناسخ أيضا غـير متلو ولا أعلم له نظيرا.

2. ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم أخـذت القـرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر.

3. وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى مـائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن.

4. وعن ذر بن حــبيش قــال لى أبى بن كعب كم تعد ســورة الأحــزاب قلت اثنــتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كانت لتعدل سورة البقــرة وان كنا لنقــرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال إذا زنا الشـيخ والشـيخة فارجموهما البتة نكـالا من الله والله عزيز حكيم.

5. وعن حميدة بنت أبى يونس قالت قرأ علىّ أبى وهو أبن ثمانين سنة فى مصحف عائشة أن الله وملائكته يصــلون على النـبى يا أيها الـذين آمنــوا صــلوا عليه وســلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى قالت قبل أن يغير عثمان المصاحف.

6. وعن عطـاء بن يسـار عن أبى واقد الليـثى قـال كـان رسـول الله إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه قال فجئت ذات يـوم فقـال إن الله يقـول إنا أنزلنا المـال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكـون إليه الثـانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون الثـالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب.

7. وأخرج الحاكم فى المسـتدرك عن أبى بن كعب قـال: قـال رسـول الله أن الله يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكن الذين كفـروا من أهل الكتـاب والمشـركين ومن بقيتها لو أن ابن آدم ســـأل واديا من مـــال فأعطيه ســـأل ثانيا وأن ســـأل ثانيا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره.

8. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حــرب بن أبى الأسود عن أبى موسى الاشعرى قال نزلت ســورة نحو بــراءة ثم رفعت وحفظت منها أن الله ســيؤيد هــذا الــدين بــأقوام لا خلاق لهم ولو أن لأبن آدم واديين من مــال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

9. وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الاشعرى قال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحـدى المسبحات ما نسيناها غير أنى حفظت منها يا أيها الذين آمنـوا لا تقولـوا مـالا تفعلـون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة.

10. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عتيبة عن عدى بن عـدى قـال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم.

11. حدثنا أبن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى حدثنى بن أبى مليكه عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنـزل علينا أن جاهـدوا كما جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدها قال سقطت فيما أسقط من القرآن.

12. حدثنا ابن أبى مريم عن أبن لهيعة عن يزيد بن عمرو المغـافرى عن أبى سـفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يوم أخبرونى بـآيتين فى القـرآن لم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة أن الذين آمنوا وهـاجروا وجاهـدوا فى سـبيل الله بـأموالهم وأنفسـهم ألا ابشـروا أنتم المصـلحون والـذين آووهم ونصـروهم وجـادلوا عنهم القـوم الـذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

13. وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر قال قرأ رجلان سورة اقرأهما رسـول الله فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غـاديين على رسول الله فذكرا ذلك له فقال أنها مما نسخ فألهوا عنها.

14. وفى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلـوا وقنت يـدعو على قاتليهم قال أنس نـزل فيهم قـرآن قرأنـاه حـتى رفع أن بلغـوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا.

15. وفى المستدرك عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعنى براءة.

16. ورووا عن عبد الله بن زرير الغافقى أنه قال لعبد الملك بن مروان عن على بن أبى طالب " لقد علمـنى سـورتين علمهما إيـاه رسـول الله ما علمتهما أنت ولا أبـوك اللهم أنا نستعينك ونثـنى عليك ولا نكفـرك ونخلع ونـترك من يفجـرك اللهم إيـاك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار.

17. وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى عن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الـرحيم اللهم نسـتعينك ونسـتغفرك ونثـنى عليك ولا نكفـرك ونخلع ونـترك من يفجـرك اللهم إيـاك نعبد ولك نصـــلى ونســـجد وإليك نســـعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عـــذابك بالكافرين.

18. وروى عن عبد الله بن عباس عن ابن مسـعود أنه قـال "أقـرأنى رسـول الله آية فحفظتها وكتبتها فى مصـحفى فلما كــان الليل لم أرجع منها بشـــىء وغـــدوت على مصـحفى فـإذا بالورقة بيضـاء فـأخبرت النـبى فقـال لى "يا بن مسـعود تلك رفعت البارحة.

19. ورووا عن أنس بن مالك خادم رسول الله أنه كان من سور القرآن سورة تعـدل سورة التوبة نسخت خطأ وحكما ولم يعد لها وجود.

أما الأحاديث عن المرأة فحسبنا حـديث "المـرأة عـورة" ومع أنه لا يعد حـديثا صـحيحا فقد كان القاعدة والمبرر لمنع النساء من أداء الصـلوات فى المسـاجد، وفصـلهن عن الرجال وسجنهم فى بيوتهن.

أما حـديث "ما أفلح قـوم ولـوا أمـرهم امـرأة" فقد كـان الأسـاس لتحـريم العمل السياسى والرئاسى على المـرأة علما بـأن راويه مجـرح، وأقيم عليه حد القـذف فى عهد عمر بن الخطاب ورفض التوبة وأن الحديث لا يقصد إرسـاء مبـدأ عـام وإنما جـاء تعليقا على واقعة معينة هى اختلاف أهل كسرى فيمن يتولى أمـرهم وأن هـذا الخلاف أدى لتعيين امرأة فتنبأ لها الرسول بالفشل، وقد كان..

ولا يجوز مطلقا استخدام الحديث كمبدأ لأنه فى هذه الحالة يخالف القرآن الكـريم الذى امتدح ملكة سبأ.

وهناك عشرات الأحاديث عن المرأة كلها أما موضوعة أو واهية وتخالف نص وروح القرآن الكريم، ومع ذلك تقبلها السلف.

وفيما يتعلق بحرية الاعتقـاد، فقد أعمل الأسـلاف حـديث عكرمة "من بـدل دينه فاقتلوه" على أساس أنه جاء فى البخارى مع إن الإمـام مسـلم رفض أحـاديث عكرمة ولم يـدخلها فى صـحيحه، والحـديث ينـاقض عشـرات الآيـات الـتى تقـرر وتؤكد حرية الاعتقاد.

أما الأحاديث التى تأمر بطاعة الأمير "ما لم تروا منه كفراً مباحـاً فيه لكم من الله سلطان". والتى تحذر من الثـورة عليه حـتى وإن غصب مالك وجلد ظهـرك. فقيل فى تبريرها إنها البديل عن الفتنة و"الفتنة" أشد من القتل". وقـالوا إن الإمـام ما دام يقيم الشعائر ويصلى الصلوات فلا تجوز الثـورة عليه حـتى وإن ظلم وكـأنهم ما قـرأوا كلام الله "أن الشرك لظلم عظيم" وأى شىء أسوء من الشـرك. وقد جعله القـرآن ظلمـاً عظيما..

لقد تقبل الأسلاف المؤسسون هذه الأحاديث كلها واعملوها كأصول لأحكـام كـانت من أكبر أسباب تخلف المسلمين، لأنها كـانت تـدعم النظـام القـائم وتتفق مع الطبيعة الإمبراطورية للدولـة، فضـلاً عن مـؤثرات أخـرى أشـرنا إليها عند الحـديث عن المأخذ الثـانى شـفعت لهم فى هـذا القبـول وسـهلته عليهم بحيث حفلت به كتب التفسـير والحديث، وبنيت عليها الأحكام، وأهدر هذا كله قضية الإنسان والحرية والعدالة..

المأخذ الرابع

المأخذ الرابع أن هـذه المنظومة العريقة وضـعت خلال القـرون الثلاثة الأولى من الهجـرة، وأن هـذه الحقيقة تجعلها بنت ظروفها وأوضـاعها ويمكن القـول باختصـار أن تلك الحقبة وإن كـانت أفضل مما جـاء بعـدها من الحقب فإنها لم تكن أبـداً الحقبة المثلى، وكانت انتكاساً سيئاً بالنسبة للفترة الباهرة التى لم تـدركها فـترة حكم النبـوة

والسنوات الأولى للخلافة الراشدة، فهى فترة الحكم الأمـوى والحكم العباسى الأول.. وقد ساد فيها معاً الاستبداد والطغيان وتأثر الحكم الأموى بمؤثرات بيزنطية بينما سـاد الخلافة العباسية النفـوذ الفارسى والتقاليد الفارسـية وأضـيف إليها أثر الفكر اليونـانى ومنطق أرسـطو مع حركة الترجمة الـتى أوجـدها المـأمون وفرضـتها على الفكر الإسلامى. وهكذا فإن الفكر الإسلامى هذه الحقبة خضع لمـؤثرات بيزنطية أو فارسـية ويونانية كانت بعيدة عن روح الإسـلام وهدفـه، فالحضـارة الفارسـية طبقية والحضـارة اليونانية وثنية وقد طرحا أوزارهما على الفكر الإسلامى فى صميم فترة التأسيس.

وليس من السـهل أن يتحـرر الإنسـان من ظـروف زمنه وعصـره وتأثيرهما على تفكـير الإنسـان الـذى يعيش فيها وأن هـذا إن لم يكن مسـتحيلاً، فهو من المسـتحيل قريب.

ولم يكن الأسلاف المؤسسون استثناءً، فقد تأثروا تأثراً عميقاً تغلغل فى نفوسـهم وفكرهم بعصرهم والمؤثرات التى تحكمت فيه.

ومن ناحية أخرى فلا يمكن القـول أن الـذين قـاموا بعملية التأسـيس كـانوا ملائكة معصومين، وأن لديهم حصانة من الضعف البشـرى وأن أراءهم لابد وأن تكـون صـائبة وصحيحة، فكل بنى آدم خطاءون، وهذا لا يمس عبقـريتهم ونبـوغهم وحسن مقصـدهم فهذه كلها أمور تُسلم بها، ولكنها لا تعنى العصمة.

ولكن حتى لو افترضنا جدلاً أن ما جاء به الأسلاف كان سـليما، مـبرءاً من الخطـأ، فإن هذا إن صح على الفترة التى وضع فيها فإنه لا يصح على فترة تأتى بعد ألف عام. إن ألف عام ليست مدة قصيرة ولا جدال إنها تؤدى إلى تغيير فى المفاهيم وتطور فى طرق معالجة قضـايا الفكـر، فـإذا أضـفنا إلى هـذا التقـدم المـذهل فى وسـائل البحث والـدرس منذ أن ظهـرت المطبعة الـتى قضت على عهد الكتـاب المخطـوط وطريقة الشيخ والمريد.. حتى ظهـور الصـحافة ووسـائل الإذاعة ثم التليفزيـون الـذى أصـبحت قنواته الفضائية الميسرة فى أى قرية من قوى العالم تنقل آخر الأخبار وأحدث ثمرات الثقافة والفكر، وأخيراً الكومبيوتر والانترنت وهى وسائل حطمت المسافات وتحـررت من رقابة الحكومـات ومكنت طـالب العلم من أن يلم بكل أحـاديث الكتب السـتة فى اسـطوانة، ويمكن بضـغطة خفيفة أن يسـتخرج منها أى حـديث شـاء فى حين كـان الصـحابى يسـافر من الحجـاز إلى دمشق أو إلى الفسـطاط بمصر بحثا عن حـديث ويقضى رحلة لمدة شهر.

إن ثورة المعرفة هذه وما راكمته من معارف تجعل كل ما قدمه الأسلاف، ساذجا، "طفولياً" متخلفاً، لا يغنى شيئاً أمام التقدم الحديث. إن تقدم وسائل البحث ووصـولها إلى درجة لم يكن يحلم بها الأسلاف يجعلنا أقدر منهم على البحث والـدرس وقد كـانوا يتحـدوننا فى القـديم هل أنتم أفضل من أحمد بن حنبـل؟ هل انتم أعلم من الشـافعى وكنا نسـكت عليهم وقد آن الأوان لنقـول لهم بلى! إن لـدينا علمهم ولـدينا علم آخر ووسائل ما كانوا ليحلمون بها..

إن مـرور ألف عـام – حـتى بـدون التقـدم المـذهل الـذى أوجدته ثـورة المعرفـة. والسياق الحـثيث فى الاستكشـاف والبحث – يجعل كل ما قدمه الأسـلاف عـاجزاً عن

استيعاب التقدم. إن هذا التقدم يجعل عقول النـاس أكـثر ذكـاءً ويجعلها تتوصل إلى ما لم يتوصل إليه الآخـرون وتفهم من النصـوص ما لا يمكن أن يفهمه الآخـرون. ويصـبح لديها قدرة على تكييف النصوص بما لا يخالف طبيعتها أو مقاصدها..

وأخـــيراً جـــداً فـــإن من الضـــرورى أن نعمل عقولنا وأن لا نعتمد على ما قدمه الأسلاف حتى ولو كـان ممتـازاً لأن من المفـروض أن تقـدم إضـافتنا وأن ننشط ذهننا حتى لا يصدأ أو يصيبه الشلل لا على فهمنا للإسلام فحسب، ولكن على فهمنا لمجالات الحياة وتحديات العصر "وتلك لعمر الله قاصمة الظهر".

الفصل الثامن

دعوة الإحياء الإسلامى تعيد منظومة المعرفة الإسلامية إلى منطلقها الأصيل: الإنسان

فى بعض الأوقات يقف التاريخ حابساً أنفاسه لـيرقب اللحظة البـاهرة الـتى تقـرر المصير.

أتصور أن هذا هو ما حدث عندما خرج النبى العـربى محمد بن عبد الله على قومه ذات صباح ليحقق أمر الله ﴿وَأَنـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الأقْـرَبِينَ﴾. لينـادى قـريش وتـأتى قـريش مسرعة ليعلن لها محمد أنه رسول الله..

ويقف أبو لهب، ليقول لمحمد "تبا لك ألهذا دعوتنا"..

ويقول التاريخ لأبى لهب تباً لك فقد نزل به قرآن يتلى.

وأتصور أن التاريخ كان يتابع محمداً عنـدما دخل مكة فاتحـاً منتصـراً فى جيش لم تشهده قـريش، وبعد ثلاثة عشر عاما من الاضـطهاد وثمـان أعـوام من الهجـرة.. كيف سيدخل محمد، ومـاذا سـيفعل بسـادات قـريش؟ لم يـدخلها فى مـوكب نصر رومـانى ولكنه دخلها وهو ساجد على قتب ناقته حتى إذا بلغ سـادات قـريش أشـار إليهم وقـال أذهبوا.. فأنتم الطلقاء..

منهم من عذبه فى مكة وألحق به صوراً من المهانة، ومنهم من اشترك فى قتل عمه الحبيب حمزة فى أحد وقتل حامل اللواء مصعب بن عمير وسبعين آخرين من فرسان المسلمين.. لم يدع محمد ذكريات الاضطهاد القديم تشين ثوب العفو الأبيض أو تلوث كرم السماحة...

وأتصور أيضاً أن التاريخ وقف يترقب عندما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى سـاعدة بعد موت النبى الذى أحبهم وأحبوه ليولوا عليهم سعد بن عبـادة عنـدما دخل عليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيده فبأى كياسة ولباقة ومهارة تفاوضـية اسـتطاع هـذا الرجل الوديع أبو بكر أن يستل من صدورهم كل أثرة بعد أن أحضـرت الأنفس الشـح، فانهـالوا عليه يبايعونه حتى كادوا أن يطأوا سعداً..

ولا يمكن أن يغيب عن التـاريخ تلك اللحظة البـاهرة لحظة وقف أبو بكر – الخليفة الأول المنتخب – يلقى خطبته الأولى ويضع فى كلمـات مركـزة أفضل دسـتور لأفضل نظام.

وأتصور أن التاريخ كـان يتـابع عمر بن الخطـاب فى اجتهاداتـه.. ولكنه ما أن طعن عمر حتى توقف التاريخ فقد بدأت الفتن كقطع الليل المظلم لا تدرى أياً من أى.

وبعد أكثر من مائة عام عاد التاريخ ليتابع مجموعة من الرجـال آلـوا على أنفسـهم وضع منظومة الفنـون الإسـلامية، فوقف مطرقا أمـام مالك الـذى غشـاه الوقـار وهو يتحدث عن الرسول فى المدينة.

وأمـام أبى حنيفة – رجل الـرأى والـذكاء يقيس الأشـباه والنظـائر.. حـتى إذا قبح القياس "استحسـن" ففـاض كـالبحر الزخـار، وأمـام الشـافعى وهو يضع أصـول الفقه ويقوم بأول تنهيج قدر له أن يعيش ألف عام.

وأمام الإمـام أحمد بن حنبل واسـطة عقد المحـدثين ويحـيى بن معين، وشـعبه بن الحجاج وسفيان الثورى الخ...

كان هـؤلاء هم الانسـكلوبيديون الأول والـذين وضـعوا منظومة المعرفة الإسـلامية وهى المنظومة التى حفظت تماسك المسلمين طوال خمسة قرون.

واليوم، وبعد ألف عام من وضع الأباء المؤسسين لمنظومتهم المعرفية من حديث، وتفسير وفقه وبعد أن انتهى عمرها الافتراضى وتخلفت عن التطور بعد خمسة قــرون من وضـعها يعـود التـاريخ لـيرقب جماعة مغمـورة تعمل لإعادتها إلى الأصل السـليم، وإقامتها على مرجعيات جديدة.

* * *

لقد أوضـحنا فى الفصـول السـابقة "لمـاذا يكـون علينا أن نعيد منظومة المعرفة الإسلامية وقدمنا أسبابا ومبررات اعتقد أن فيها مقنع لكل منصف.

ومن الطبيعى أن يكون الغـرض من الإعـادة هو أولاً تصـحيح ما وقع فيه الأسـلاف عندما وضعوا منظومتهم وثانيا الإفادة من كل معـارف العصـر، وهو أمر إن كـان يعـود إلى الطبيعة الخاصة للتقدم العلمى لهذا العصـر. فـإن له سـنده من العقل – الـذى هو وحى الله الخاص لكل إنسـان، ومن القـرآن الـذى هو وحى الله للنـاس جميعـاً عنـدما قرن "الحكمة" بالكتاب..

من الطبيعى أيضاً أن نبدأ بإعـادة منظومة المعرفة الإسـلامية إلى منطلقها الأول: الإنسان بحيث تكـون رعاية الإنسـان والحفـاظ على كرامته وتعزيز وضـعه هى المـادة الأولى فى دستور هذه المنظومة الجديدة.

وهـذا يقتضى أن تلحظ المنظومة شـقين: الأول كرامة الإنسـان المعنوية والأدبيـة. والثانى كرامة الإنسان المادية والعملية.

بالنسبة للشق الأول: فإن هذا لا يتحقق إلا بـإطلاق حرية الفكر والاعتقـاد والتعبـير بحيث لا يوجد حظر عليها أو تقييد لها من أى نــوع لأن هــذا هو ما يمثل حرية الضــمير والفكر وهى أبـرز عناصر الكرامة المعنوية للإنسـان، وإذا لم يتـوفر لـه، فلن تكـون له كرامة وقد يؤدى هذا إلى شـطط البعض أو إسـاءة اسـتخدام هـذا الحق وعندئذ يكـون العلاج بالطريقة نفسها. أى بالرد كلمة بكلمة وحجة بحجة وإظهار البطلان والفسـاد ولا يكون العلاج بوضع ضوابط أو تحفظات. ففى هذا المجال – مجـال حرية الفكر لا يمكن أن توضع ضوابط لأنها لابد وأن يسـاء اسـتغلالها. إن وضع ضـوابط بحجم ثقب إبـرة أو دبوس لابد وأن يتسع حتى يبتلع الحرية جميعاً بمختلف التعلات والتبريرات.

إن القرآن يساعدنا فى هذا لأنه أطلق حرية الاعتقـاد والفكر على مصـراعيها فمن شاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفر ولا إكـراه فى الـدين أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة. إلى آخر هذه الآيات التى سـردناها فى أكثر من كتاب. وفى هذا السبيل لم يجعل القرآن للرسـول نفسه سـلطة على النـاس فليس هو جبـاراً، ولا مسـيطراً، ولا حسـيبا، ولا رقيبا ولا حـتى وكيلاً كما أنه اعتـبر أن الكفر والإيمان أمر شخصى وخاص لا دخل للنظام العام فيه فمن اهتـدى فإنما يهتـدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.

لقد قلنا فى أحد كتبنا إن الحرية فى الحضارة الأوروبية تنبع من الإنسان، وهى فى العقيدة الإسلامية تنبع من الحق، ولكن هناك فصـيلة من الحرية لا وصـاية للحق نفسه عليها لأنها هى الطريقة للتعـــرف على الحق وعلى التميـــيز ما بينه وبين الباطل هى حرية الفكر، فالقرآن يناصرنا فى هذا المطلب بكل قـوه، وهـذا طـبيعى لأنه إنما أنـزل للإنسان وهو يعلم إن الحرية لفكر الإنسان هى كالهواء لجسم الإنسان لا يعيش إلا بها.

ويجب أن تبين المواد التى تقـرر حرية الفكر والاعتقـاد والتعبـير مجـالات ذلك من حرية المعتقد ومن حرية النشر ومن حرية تكـــوين الهيئـــات العامة على اختلافها من أحزاب أو جمعيات أو نقابات ما دامت وسائلها مشروعة. كما يجب أن تنص مادة هامة على أن كل قـانون أو إجـراء كائنا ما كـان ينتهك هـذه الحريـات أو يحيف عليها لا يعد دستوريا أو شرعيا ويجب إلغاءه. وأن تكون المطالبة بذلك غير مقصورة على أصـحاب المصلحة ولكن لكل أفراد المجتمع من باب التكافل الاجتمـاعى وأن يكـون رفع قضـية لهذا الغرض مباشـراً ومجانيا دون رسـوم ودون أى عـائق فى سـبيله، كما يفـترض أن يتسم انعقاد المحكمة والنظر فى الطلب بالسـرعة – كـان يكـون خلال أسـبوعين مثلاً كما يجب أن تنص المواد على التنفيذ الفورى للحكم دون إشـكاليات أو تحـايلات. فـإذا كان هناك إشكاليات فيجب أن ينظر فيها بعد تنفيذ الحكم..

ولا تـرخص أو اسـتثناء فى هـذه المـواد لأنها تتعلق بـأهم حق للإنسـان وللمجتمع أيضاً..

والشق الثـانى وهو الكرامة المادية والعملية للإنسـان الـتى تنسـحب على جسـمه وعلى حاجاته المادية. فيجب أن يتضمن الدسـتور على قداسة جسم الإنسـان بحيث لا ينتهك بإهانة من ضـــرب دع عنك التعـــذيب الـــذى يجب أن يحـــرم إلى درجة إمكـــان القصاص رغم ما فيه من بعض مخالفة – كما يتضمن عـدم سـجن المتهم ولو احتياطيا إلا بعد أن يحكم بـذلك القاضى الطـبيعى – وليس وكيل النيابة الـذى يعد من السـلطة التنفيذية أكثر مما هو من السلطة القضائية، وأن يكون لمده أقصاها ثلاثة أيام لا تجـدد بعدها ويجب أن يتوفر فى السجون وسائل معيشية معقولة فليس الغـرض من الحبس عقوبة إضـافة بالتنكيد على المسـجون والتضـييق عليه فى الغـذاء أو جعله ينـام على "برش" الخ...

وقد يجوز لنا أن نشير إلى قانون "إحضار جسد السجين الشهير فى القانون البريطانى ولعلنا فى حاجة إلى مثله بعد أن أصبح التعذيب فى السجون وأقسام البوليس ممارسة روتينية.

ولكن هناك ملاحظة هامة تلك هى أن الجسد الإنسانى يفقد قداسته إذا اقترف صاحبه جريمة كبرى كقتل فرد – أى إعدام جسد إنسان آخر – أو الاغتصاب أو السرقة المروعة – فى هذه الحالات التى تمثل الاعتداء على الجسد أو على المبادئ المقررة لحماية المجتمع المتفق عليها لدى العالم أجمع. نقول فى هذه الحالات يجوز تطبيق عقوبات على جسد من يثبت ثبوتا يقينيا قيامة بجريمة قتل أو اغتصاب أو سرقة مروعة.. إن الجريمة قذرة بطبيعتها وهى تحرم من يقترفها من حماية المجتمع إما قصاصاً وأما حماية للمجتمع.

على أن توفير العناية المادية للإنسان لا تقتصر على الحالات السابقة. إنها تتضمن أن تقوم الدولة ببذل كل الجهود لتوفير العمل والحماية عند البطالة أو المرض أو الحوادث، والأمن الصناعى والصحة المهنية وهذه قضية تتطلب إبداع نظام اقتصادى يأخذ بحسنات الحرية ولكنه لا يسمح بإساءة الاستغلال أو بتغول الرأسمالية وعلى كل حال ففى مقابل الحرية فى مجال الفكر نجد العدل فى مجال العلاقات ما بين الحاكم والمحكوم الرجل والمرأة والفرد والدولة الخ...

وقد وضع الإسلام نظام الزكاة لتقرير التكافل الاقتصادى ويجب تطبيق هذا النظام أولاً لأنه من المنصوص عليه فى القرآن الكريم بصورة تجعله قسيم الصلاة – فلا يذكر القرآن الذين يقيمون الصلاة إلا ويقرنها ويؤتون الزكاة، وثانيا لأن نظام الزكاة بفصل نظم الضمان الاجتماعى من وجوه عديدة تصل إلى عشرة، ولأنه يظفر باحترام وتقدير المسلمين تقديراً يصل إلى حد الالتزام الطوعى، وليس من الكياسة فى شىء إهدار هذه الميزة العظمى ونحن لا نجد إشارة إلى الزكاة فى كتب الاقتصاد أو السياسة المحدثة لأنها لا تنطلق من منطلق إسلامى أو عربى وإنما تنقل وتقلد تقليداً أعمى ما يضعه رجال الاقتصاد الغربيون. ولكن فهمنا لمصارف الزكاة سيختلف عن فهم الأسلاف لاختلاف الأوضاع، وهو ما يتمشى مع روح التشريع وابتغاء الحكمة وراء النص.

ويدخل أيضا فى الحماية المادية والعملية لجسد الإنسان أن يأمن من أن يطرق عليه بابه فى موهن من الليل، أو حتى يحطم عليه بابه زائر الفجر ومعه زبانيته ليأخذوه من فراشه إلى سجن قصى بعيد لا يعلم عنه أحد شيئاً. إن هذه الصورة الكريهة من موبقات الأحكام العسكرية يجب أن تستبعد تماماً بحيث لا يجوز القبض على أحد بعد غروب الشمس وحتى شروقها، وبالطبع يكون ذلك بأمر من قاضى التحقيق – وليس من النيابة أو ضابط بوليس.

لقد استطاعت الشعوب فى الغرب أن تأمن من وجود هذه الممارسة الكريهة.. وأصبح كل مواطن ينام ملأ عينيه واثقاً أن لن يأتى زائر الفجر ليطرق أو يحطم عليه بابه.. وهذا هو ما يجب أن تكفله منظومة المعرفة الإسلامية فيما تكلفله من حقوق

الإنســان وأن ينص على هــذا كله فى الفصل الأول من دســتور هــذه المنظومة الــذى يجب أن يحمل اسم "حقوق الإنسان فى المجتمع".

* * *

واعتقد إن كفالة التعليم الأولى المجانى للمواطـنين جميعـاً هو حق يجب أن تكفله منظومة المعرفة الإســـــلامية. وهو يقف ما بين الحماية الأدبية والمعنوية للإنســــان والحماية المادية والعملية لـــــه.. بحيث يتعلم المواطنـــــون جميعا القـــــراءة والكتابة والحساب والدين وما يتضمنه دستورهم من حقوق وواجبات.

* * *

وأخيراً فإننا عنـدما نتكلم عن الإنسـان فإننا نعـنى به الرجل والمـرأة على سـواء.. فهما متســاويان فى مجــال الحقــوق والواجبــات بحيث لا يكــون هنــاك فــرق. أما فى العلاقات ما بين الزوجة والزوج فهذا ما تقضى به قواعد العدل باعتباره داخلا فى إطار "العلاقـات" وهو إطـار يحكمه العـدل، وأن كـان له خصوصـيته الحميمة الـتى تفـرض نفسها بحيث يزحم الحب العدل فيها.

الفصل التاسع
مرجعيات المنظومة الجديدة للمعرفة الإسلامية
- 1 -
المرجعية الأولى: القرآن الكريم

من الطبيعى أن تكون المرجعية الأولى لأى تأسيس للمعرفة الإسلامية هو القــرآن الكـــريم على أن الأهمية الخاصة للقـــرآن الكـــريم كمرجعية – يجب أن لا تنســـينا أن القرآن هو الكتاب الذى يوحد بين أمة الإسلام على اختلاف عناصرها وجنسـياتها ومللها ونحلهـا، وتكـوين شخصـيتها، وهو عنصر التماسك الـذى يمسك جميع أطـراف العـالم الإســلامى ويربط العــالم الإســلامى فى عقد نظيم ويحــول دون أن تنقطع أو تتباعد أطرافه ولولاه لما تلاقت هذه الأقطار الشاسعة من ذوى الجنسيات واللغات المختلفة. هذا أصل عظيم لا يتوفر لغير القرآن، باستثناء التوراة التى وحدت الشعب الإسـرائيلى وحفظت تماسكه عبر القرون. ولكن التوراة كتاب عنصرى يجمع شـعبا واحـداً محـدود العـدد وهو كتـاب مغلق لا ينفتح لغـير اليهـود ويزيـدها عنصـرية بحيث لم تقنع طوائف عديدة فى إسرائيل أن تكون دولة التوراة، بل وأضافت إليها والسبت بحيث تكون دولة التوراة والسبت ولا تتعامل مع "الغريب" إلا على أسـاس قاعـدة "من اليهـودى لا تأخذ ربا ولكن تأخذ من الغريب" فى حين أن القرآن فى الوقت الـذى يربط أشـتات العـالم الإسـلامى فى وحـدة فكرية وإيمانيـة، يحفل بقيم موضـوعية وينفتح فيقبل التعامل مع الآخر كما أنه يجذب ألوف أخرى إليه.

نعود، فنقول إن مثل هذا الأصل مما لا يمكن أن يتحقق إلا فى القرآن ويكون على المسلمين جميعاً أن يتمسكوا به ويعضـوا عليه بـالنواجز ويحمـدوا الله تعـالى أن قبض لهم مثل هذا الأصل الذى لو أنفقوا مال الأرض كله ما توصلوا إليه.

أما على مستوى الدولة فإن القرآن يمثل القـانون بحيث يحكم المجتمع الإسـلامى بحكم القانون، ولا يحول هذا دون أن يكون الحكم ديمقراطيا لأن أفضل الديمقراطيات هى ما تقوم[28]. على قانون يتقبله الشـعب ويـرى فيه الدسـتور الأمثـل. بل ويـؤمن به إيمانا وثيقاً.

وهناك مقتضى ثالث كان من العوامل التى جعلتنا نعتمد القـرآن مرجعية أولى عند إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية خلاف أن القرآن هو أصل الإسلام، وبالتـالى أصل كل تعامل مع الإسـلام، **أن المقتضى الآخر هو إننا ونحن دعـاة للإنسـان**

---

[28] (28) لقد عالجنا هذه النقطة فى بعض كتبنا وأوضحنا أن أفلاطون وأرسطو لم يرحبا بالديمقراطية الاثينية ولا بحكم الأصوات لأنهما كانا يريدان "حكم القانون" ويريان أن الديمقراطية السليمة إنما تتحقق فى ظل حكم القانون.

والعقلانية والحرية والعـدل والمعرفة الموضـوعية وجـدنا القـرآن يـدعو لهـذه كلها بقـوة وتأكيد وتكـرار فحـدث نـوع من التلاقى. وعنـدما آمنا بالقرآن فكأننا آمنا بمبادئنا وعندما نعمل القرآن فكأننا نُعمل الحرية فى الفكر والعدل فى المجتمع وكرامة الإنسان والعقل والحكمة. إن القـرآن بتضـمنه هـذه القيم جنـدنا، ونحن أيضـاً اسـتثمرنا القـرآن. وهـذا قـران سعيد.

والتأسيس الجديد ينظر إلى القرآن من شقين شق سلبى وشق إيجابى..

والشق السـلبى فى التعامل مع القـرآن الكـريم **هو عـدم الالـتزام بكل التفسيرات المقررة للقرآن الكريم من تفسير ابن عبـاس حـتى تفسـير سـيد قطب. ويـدخل فى ذلك ما قـامت عليه التفسـيرات مما يسـمونه "علوم القرآن" وبوجه خاص الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وتعـيين المبهمات الخ...**

لقد أوضـحنا فى البـاب الأول من هـذه الدراسة أن المأخذ الثـالث على التأسـيس القديم لمنظومة المعرفة الإسلامية إنها قبلت أحاديث عن القـرآن الكـريم لا نشك إنها من "اللغـو" الـذى أراد أعـداء الإسـلام الكيد له فى مرحلة العـداوة المحتدمة ما بين الإسلام وبين المشركين واليهود، وضربنا أمثله عديدة للكثير مما دس فى الفصل الذى عالجنا فيه هذه النقطة فضـلاً عن كتـاب خـاص لتفنيد دعـوى النسـخ، وما أوردنـاه فى كتاب "تفسير القـرآن الكـريم بين القـدامى والمحـدثين" وكتـاب "تثـوير القـرآن" مما يعرض فكرتنا عرضاً مسهباً.. وما يمكن إضافته هنا هو أن أى مفسر يريد أن يفسر آية قد تكـون فى سـطر واحد فيما يملأ صـفحة كاملة يكـون عليه أن يقـدم أضـعاف حجم الآية فمن أين يأتى بهذه المادة؟. إن الرسول لم يـترك لنا تفسـيراً للقـرآن، وهـذا أمر معروف يكاد يكون محل تسـليم. إن الرسـول قـام ببيـان المجمـل، أما ما لم يـرد فى القرآن فإنه لا يدخل بالطبع فى "بيان" المجمل، وقد تحدث القرآن فى قرابة عشـرين موضع عن قضايا سأل المشركون الرسول عنها وأجاب عنها القرآن وهذه الآيـات تبـدأ بكلمة "يسألونك.. وترد قل" وهى معروفة بالطبع فى القرآن، أما ما عدا هذا فلا يمكن أن ينسب إلى الرسول.

نحن إذن أمام معضلة لا حل لها إلا أن المفسـرين نقلـوا كل ما وجـدوه من أقاويل رددها المحدثون فى الفترة التى شاع فيها الوضع، والتى ظهرت فى الأقطار الإسلامية البعيـدة قبل القريبة وتعد بـالآلاف ويمكن دون مبالغة أو أفتيـات على الحقيقة أن تضم هـذه الموضـوعات الأحـاديث عن فضـائل السـور وأقاصـيص كعب الأحبـار الـتى كـان يسردها على منبر مسـجد دمشـق، وكل ما وجـده المفسـرون فى آثـار بـنى إسـرائيل ونقلوه "بلا حرج".

وقد يعطينا مثالاً لذلك قضية النسخ. فهذه القضـية الـتى أثبتنا أنها مما لا أصل لـه، وأن الفكرة فى الآيات المختلفات هى إيجاد بدائل كـانت منتشـرة قبل أيـام الشـافعى

الــذى أعــترف بها وإن كــان قد رفض أن تنسخ السُــنة للقــرآن، وقوبل ذلك من بقية الفقهاء بمعارضة شديدة جعلت كثيراً من فقهاء الشافعية يثيرون مندوحات أو تأويلات، وعنــدما عــالج الغــزالى الترجيحــات عند اختلاف النصــوص رأى العــودة للإجمــاع "لأن القرآن والسُنة عرضة للنسخ" وهـذا ما يوضح القـوة الـتى أصـبحت للنسخ وأنه محل "إجماع" باستثناء أبى مسلم الأصفهانى الذى انهـالوا عليه بكل تهمة للنسـخ. والأغـرب أن هـذه الـدعوى كـانت محل قبـول كل المعاصـرين بما فيهم جمـال الأفغـانى ومحمد عبده وحسن البنا، فقد أشاروا إليها، وأن كانت إشارات مقتضية أو جاءت على مضض.

وقد يكشف السر فى شــيوع الأحــاديث فى التفســير أن التفســير نشأ فى مهــاد الأحـــاديث، وقد وضح هـــذا النقطة الـــدكتور محمد حســـين الـــذهبى فى كتابه القيم "التفسير والمفسرون فقـال "ثم بعد عصر الصـحابة والتـابعين، خطا التفســير خطـوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير بابـاً من هـذه الأبـواب الـتى اشـتمل عليها الحـديث، فلم يفـرد له تـأليف خـاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آيـة، من مبدئه إلى منتهـاه، بل وجد من العلمـاء من طـوف فى الأمصار المختلفة فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصـار من تفسـير منسـوب إلى النبى أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السـلمى (المتـوفى سنة 117) وشعبة ابن الحجاج (المتوفى سنة 160) ووكيع بن الجراح (المتـوقى سـنة 197) وسفيان بن عيينة (المتوفى سنة 198) إلى أن يقول : **وهؤلاء جميعــاً كــانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعا لبــاب من أبــواب الحــديث، ولم يكن جمعــاً للتفســير على اســتقلال وانفــراد، وجميع ما نقله هــؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم، غير أن هــذه التفاسير لم يصل إلينا شىء منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها**[29].

وينســبون إلى عــالم الحـديث عبد الملك بن جـريج – وهو أحد علمـاء الحـديث فى النصف الأول من القرن الثانى للهجـرة أنه أول من اشـتغل بكتابة تفسـير. فكتب ثلاثة أجزاء عن إبن عباس وفى هذا التفسير نجد القسـمات الـتى سـنجدها فى معظم كتب التفسير، أعنى حشد الرواية من صحيحها وسقيمها، وكان بن جريج من المــوالى روميا كما ينم اسمه الذى هو تصغير "جورج" وكان أمويا وروى عنه مجاهد، وعطـاء بن ربـاح وميمـون بن مهـران وابن شـهاب الزهـرى والسـفيانان ووكيع وعبد الـرازق وهو وابن عروبة أول من صنف الكتب فى الحجاز. مع هذه الصفات التى توثقه فإنه كـان يـدلس وتزوج نحو سبعين امرأة لأنه كان يرى رخصة نكـاح المتعـة. وقد يلقى أصـله الـرومى. واتجاهه الأمــوى وأنه يــدلس شـيئاً من الظلال أو الشــبهات فيما نــرى دون أن يمكن القطع بذلك .

ونشأة التفسير فى مهد الحـديث وكفـرع منه يعطينا إيضـاحاً للأهمية التى أعطاها الأسلاف للتفسير بالمأثور فى كتب التفسير .

---

29 **(1) التفسير والمفسرون ج1 ص141.**

أضف إلى هذه المـادة التراثية المشـبوهة العوامل الـتى أثـرت على شخصـية كل مفسر منذ طفولته الأولى حـــتى مراحل شـــيخوخته وظروفه الأســـرية والهمـــوم والمسئوليات التى اكتنفته، والوظيفة الـتى يشـغلها أو العمل الـذى يمارسه وأثـار ذلك عليـه، وهنـاك الثقافة الـتى توصل إليها ونـوع هـذه الثقافة ومـذهبياتها، ومـدى عمق المذهبية التى تجعله يضفيها على تأويلاته وأخيراً فهنـاك روح عصـره الـذى لا يسـتطيع أن يتحـرر منه والـذى كـان قيـداً على حريتـه، والمحرمـات الـتى يفرضـها هـذا العصر بالنسبة للسلطة أو لمجالات معينة من السلوك.

هذه المؤثرات كلها تضطرم فى نفس المفسر وبتشـرب بها تفسـيره راغبا أو غـير راغب واعيا أو غـير واع، لأنه لا يمكن أن يتجـرد من نفسه الـتى بين جنبيـه، ولا يخلص من العوامل العديدة التى أثرت عليه، ولا من الثقافة الـتى تلقاها من شـيوخه والنتيجة إننا لا ننظر فى الحقيقة تفسيراً للقرآن ولكن استعراضاً لثقافة وشخصية المفسر.

والعجيب أن حرص المفسرين على إثبات كل ما يتوصـلون إليه على تنـاقض بعضه مع بعض بحكم اختلاف مصادره جعل اسـتخلاص حكم صـريح جـازم أمـراً عسـيراً محـيراً، لأنهم يـذكرون حكما ويـذكرون بعـده مباشـرة حكما يخالفه أو يناقضه ولم يحـرك ذلك ساكنا فى المفسرين لأنهم جمعة أقـوال وعقليـاتهم نقليه خالصـة. فلم يجـدوا تناقضـاً فى حشد المتناقضات.

مع ذلك فإن الفقهاء توصلوا إلى اسـتخلاص الأحكـام إذ كـان لابد من ذلك فعمـدوا إلى الطريقة الانتقائية فما يتفق مع أوضـاع المرحلة الإمبراطورية أخـذوا بـه، وتغاضـوا عن الباقى وظهر ذلك جليا فى أحكام عن المرأة وحرية الاعتقاد، وطاعة الحكام الخ...

وهـذه الأحكـام كلها مخالفة مخالفة جذرية لأحكـام القـرآن وبعضـها يتنـاقض مع القرآن.

والتأسـيس الجديد يـرى فى كل تفسـير نوعـاً من افتيـات على القـرآن وتمييعـاً لمعانية المحكمة وأن الرجـــوع إلى هـــذه التفاســـير كـــان من أكـــبر أســـباب تخلف المسلمين، لأنها قدمت صـورة مشـوهة للقـرآن الكـريم ولا يخطر ببالنا ما يخطر ببـال البعض عن تنقيه هـذه التفاسـير لأن تنقيتها لن يبقى إلا على العشر مما فيها ولأن من الأفضل أن نبذل هذا الجهد فى توضيح مقاصد القـرآن فضـلاً عن قاعـدتنا المقـررة: لا يفسر القرآن إلا القرآن نفسـه، وأن القـرآن ليس فى حاجة للتفسـير لأنه يعطى أثـره بالانطباع.

* * *

والقرآن الكريم كأى نظام شامل له وسـيله تـؤدى إلى غايـة، ويلحظ أن الوسـائل وإن اختلفت فى طبيعتها عن الغايـــات إلا أنها لا تكـــون مناقضة للغايـــة، غاية الأمر أن لها طبيعة متميزة ولكن ليست مناقضة فلا يجوز اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية نبيلة..

والوسيلة فى القرآن الكريم هى التـأثير على النفس البشـرية بحيث تتهيأ لقبول الغاية.

القــرآن كتــاب أراد الله له أن يكــون معجــزة الإســلام مخالفا فى هــذه المعجــزة الحسية من خوارق الطبيعة الـتى كـانت للأنبيـاء السـابقين لما سـبق فى علمه من أن هذا الدين يؤذن بالعقل ويؤذن بالإنسان وأنه خاتم الديانات، ولكى ينقل مجـال الأعجـاز من خــوارق الطبيعة الــتى لا يراها إلا جيلها إلى التــأثير فى النفس البشــرية جيلاً بعد جيل. وهذه هى المهمة المسـتحيلة الـتى كـان على القـرآن القيـام بها والـتى تثبت أن القرآن معجزة لأن الله وحده هو القدير على ذلك.

ولما كان القرآن بعد كل شىء، كتابا وأن وسيلته هى التـأثير على النفس البشــرية فقد تعين أن يستخدم الوسائل الفنية والوجدانية لأن هـذه هى الـتى تملك التـأثير على النفس، وقد ظن الأوائل أن إعجاز القرآن إعجاز بيـانى، ولكن الحقيقة أن الإعجـاز فيه فــنى فــالقرآن كتــاب الفن الأعظم، وحــتى البيــان فإنه يســتخدمه اســتخداما يعطى تصـويراته شـكلاً فنيـاً، ولكن الأهم أن لنظمه إيقـاع موسـيقى يـؤثر على النفس عـبر الأذان الــتى ما أن تســتمع إليه حــتى توصل تأثيرها إلى المخ.. وهــذه هى الصــورة "الكلاسـيكية" لإيمــان المؤمــنين أيــام الرســول فما كــان ليتلو القــرآن على أحد من المشركين حتى "يعود بغير الوجه الذى ذهب به" على ما قــال أبو جهل على الوليد بن المغيرة الذى أوفده للرسول.

إن الإعجاز الأعظم للقرآن هو أن صياغة الكلمات فى الآية لها رنين كرنين الفضة، وهذا الرنين فيه اتساق "هارمونى" بحيث ما أن يدخل الأذنين حتى تصل للمخ.

بالإضافة فإن التصوير الفنى لمجموعة الآيات تقدم "لوحة" فيها الألوان الـتى تنبهر بها العيون.

بعد هذين – أعنى النظم الموسيقى والتصوير الفـنى تـأتى المعالجة السـيكولوجية للنفس البشرية أى الحديث عما يعتـور النفس الإنسـانية من نـوازع وميـول وما ينتابها من أحوال المرض والصحة البأسـاء والسـراء، القـوة والضـعف، الغـنى والفقـر، وكيف تستبد بها الأهواء والشهوات وأثر الغرائز الذى يسيطر على عامة النــاس ولا ينجو منها إلا القليل الخ... وهذه هى الأوتار الحساسة الـتى تتفق فى النـاس جميعـاً فى الماضى والحاضر وعلى اختلاف أجناسـهم مع اصـطحاب هـذه بـالترغيب والـترهيب وقد تصـور البعض أن الــترغيب والــترهيب لا يتفق مع نبل الغايــة، ولكن لا أحد ينكر أن الطبيعة البشرية تتأثر بهذين وتخضع لهما أكثر من أى عامل آخر، فإذا كان القصد هو التأثير فلا مناص من الأخذ بهمـا، ثم هما لا يسـيئان النفس الإنسـانية الـتى جبلت على أن تـرغب اللـذة وتـرهب الألم، هـذه هى الطبيعة البشـرية الـتى جبل الله النـاس عليها والقـرآن يتقدم إلى كل الناس، فإذا كان هناك قلة تسمو فوق الترغيب والـترهيب، فـإن الأغلبية تخضع لهما وتتأثر بهما. وقد نزل القرآن للجميع وعليه أن يتعامل مع الجميع بالوســائل التى تؤثر فيها.

وليست هــذه كل وســائل القــرآن. فــالقرآن فى حديثه المتكــرر عن الســماوات والأرض والشموس والأقمار والليل والنهار والأمطار التى تحـيى الأرض بعد موتها يأخذ طابعا كونيا ويربط الإنســان بــالكون وخلال هــذا التعامل ما بين الإنســان والكــون وظواهره الطبيعية يأتى القرآن بكلمات منفتحة فيها معان عديدة وتكون أشبه بمفـاتيح

توحى باحتمالات وآفاق لم يتوصل الأوائل إلى معرفتها وما كان يمكن أن يتوصلوا إليها بإمكانياتهم ومعارفهم المحدودة ولكن التقدم العصـرى أثبتهـا، مما يمكن أن يـدل على أن القرآن معجزة وهو ما استكشفه العلماء المسـلمون الـذين عنـوا بالإعجـاز العلمى للقرآن. إننا وإن كنا نعترف أن الكثير منه قد يكون اجتهاداً متــأثراً بعوامل ذاتية أو من وحى البادرة الأولى أو الظواهر، وليس التحقيق العلمى إلا أن هذا لا ينفى صـدق كثـير من إيماءات القرآن، ولا يقال فى الرد على هذا أن المسلمين كانوا أولى باستكشــافها لأن المسلمين قديما وحديثا لم يكن لديهم المعرفة العلمية التى كانت للأوروبــيين وأن هذا يدخل فى ما قاله القـرآن بصـيغة المسـتقبل ودون أن يعين المسـلمين "سـنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم". ومع أن القرآن ليس بكتاب معلومة أو جغرافيا أو فلك فإن بعض كلماته تقدم مفاتيح وتعطى الكلمة صياغة خاصة منفتحة توحى إلى العقــول باحتمالات وآفاق كشف عنها التقدم العصرى.

كما أن القرآن فى وسائله التأثيرية لم يغفل الدعوة لإعمال العقل، والتدبر والسير فى الأرض والنظر فى آثار الحضارات الماضية مما كان يقـرب ما بين الوسـيلة والغاية التى سنشير إليها.

هذه هى وسائل القرآن الكريم للتـأثير على النفس البشـرية لتهيئتها لتقبل الغاية، فما هى الغاية؟.

القـــرآن فى جـــوهره "مانيفســـتو" لتحرير الإنســـان ولإخراجه من الظلمات إلى النور ولكن يضع عنه الإصر والأغلال، فـالمحور الـذى يـدور عليه هو الإنسـان والهـدف هو تحرير الإنسـان، وتزويـده بـالقوى الـتى تمكنه من تحقيق إرادة الله له أن يكــون خليفته على الأرض وذكر القيم التى تكفل سلامة اسـتخدام ما وضـعه الله فى خدمته من قـوى الطبيعة من خير وعدل الخ...

وهذا هو مضمون الهداية القرآنية..

ولكى ييسر القرآن للإنسان ذلك فإنه يزوده بالعقيدة التى تهدى نفسه، وبالشريعة التى تصلح المجتمع. أما العقيدة فتتبلـور حـول الإيمـان بالله خـالق هـذا الكـون البـديع وأصل القيم النبيلة من حريـة، ومسـاواة وعـدل وتقـوى وشـجاعة وإيثـار الخ... والـذى يمثل الحقيقة الكلية الشاملة التى تنتهى إليها كل "النسبيات" وصاحب المثل العليا. إن شعاعاً من أشعة الله يشرق على النفس فيضيئها ويعطيها الدفء والحرارة ويكســبها الإيمـان. وأضـيف إلى الإيمـان بالله الإيمـان بالرسل الـذين هم المثل العليا للبشـرية ويقـدمون نمطـاً فريـداً للقيـادة والقـادة والإيمـان بيـوم آخر يحقق العدالة الـتى قلما تتحقق فى الـدنيا ويـثيب الـذين حرمـوا حقهم فى الثـواب ويعـاقب الـذين افلتـوا من العقاب.

هـذه المنظومة الـتى تبـدأ بالله وتضم الرسـول واليـوم الآخر هى "الهدايـة" الـتى أرادها القرآن للإنسان حتى لا يضل ويسـىء إلى نفسه وهى تمثل فى مجموعها أفضل ما يمكن أن يهتدى بها الإنسان.

ولا يكتفى القرآن فى سبيل تحرير الإنسان بتقديم العقيدة التى تحقق له هـذا، إنه يضيف إليها "الشريعة". أى الخطوط العريضة التى يضعها القرآن للمجتمع لكى يكـون رشـيداً، ولكى يعين الإنسـان على التوصل للهدايـة، ذلك أن العقيـدة الـتى تريد من الإنسان أن يكون صادقاً مخلصاً خيراً يكون عليها أن تهيئ له المجتمع الـذى يتقبلها أو على الأقل يعارضها. لأن من الواضح أن ذلك سيعسر تطبيق الإنسان للقيم ولهذا وضع القرآن خطوطاً عريضة لصلاح المجتمع وهذه الخطوط لها مرونة لأنها تتعرض لأوضـاع تخضع للتطور والتغيير، وعندما وضعت هذه الخطـوط فإنها كـانت تـؤدى الحكمة الـتى أريدت منها وهى بصفة عامة العـدل فى المجتمع الـتى ظهـرت فيـه. ولكن إذا حـدثت أوضاع تنتفى معها صـورة الحكمة أو تتطلب تعـديلاً لكى يحقق ما أريد منها – وهو كما ذكرنا العدل بصفة عامة فيجب عندئذ إعادة النظر فيها. العقيدة تمثل الثبات والشريعة تمثل المرونة وهما معا يحققان التـوازن ما بين الإنسـان والمجتمع والتطـور، وهما معا أى العقيدة والشـريعة يسـتهدفان "الإنسـان" وما الهداية إلا صـورة من إعانة الإنسـان ليسـلك الطريق الـذى يحقق الكرامة المعنوية والكفاية المادية والسـلام الـروحى للإنسـان، الكرامة المعنوية بتحقيق الحريـة، وبوجه خـاص حرية الفكر الـتى أكد عليها القرآن وأقرها دون قيد أو شرط مـراراً وتكـراراً والعـدل وهو محـور عـالم الـدنيويات والعلاقات الـذى يحقق الكفاية المادية للإنسـان. وهى شـرط رئيسى لسـعادته وأخـيراً السـلام الـروحى نتيجة للإيمـان بالله والارتبـاط به وهو الـذى يمثل الحقيقة الشـاملة والمطلقة وما يضـعه من قيم الخـير والحب والتقـوى والإيثـار وعـدم الاستسـلام للشهوات.. أو الوصول إلى الشطط الذى يعرض الإنسان والمجتمع للخطر المحقق.

* * *

لا ينتهى الموضوع عند هذا..

لأن من الضـرورى أن نـرد على الـذين سـترتفع صـيحاتهم كيف نفهم القـرآن دون التفاسير وهل نفترض فى عامة الناس العلم بالنحو والصرف والبيان والتـبين والمجـاز والاستعارة الخ... ثم ألا يؤدى هذا إلى بلبلة إذا أراد كل واحد أن يفهم القـرآن بطريقته الخاصة؟.

لقد كفانا الله تعالى المؤنه عندما قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ﴾. {17 القمر}.. وكررها أربع مرات..

ولم يكن القـرآن ليكررها إلا ولها حقيقة وحقيقتها هى كما ذكرنا أن القـرآن يعطى أثره بالانطباع لـدى كل واحد يريد أن "يـذكر" ولا ينفى هـذا أن توجد بعض تعبـيرات أو ألفاظ يعجز عنها المثقف ثقافة عامـة. ولكن هـذا لا يمس الأثر الانطبـاعى الـذى يـأتى من النظم الموسـيقى للقـرآن والطبيعة التأكيدية واليقينية للقـرآن بحكم صـدوره من الله. فلا يخسر القارئ أو المستمع شيئاً كثيراً إذا جهل معنى كلمة وقد وقع هـذا لعمر بن الخطاب نفسه عندما قرأ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾. ولم يتعـرف على معـنى "أَبّـًا" ولكنه تـبين أن الحرص على هـذا نـوع من التكلـف. وليس من الضـرورى أن يفهم كل القـرآن لأن القرآن كالثوب تكفى قطعة صغيرة منه للتعرف على لون الثـوب وسـداه ولحمته وهل

هو من الصوف أو القطن الخ... والقرآن يكرر معانيه فى كل سورة تقريباً بحيث يأخذ من يقرأها فكـرة عامة عن مقاصد القـرآن دون أن يعـود إلى كل السـور. وما كـان الصحابة أيام الرسول يحفظون إلا آيات من سور لم يكونوا يتجاوزونها إلى غيرها حـتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، وعندما يجدون آثار ذلك فى نفوسهم فـإنهم ينتقلـون إلى آيات أخرى. وإلا فما فائـدة الحفظ دون العلم والفهم، إن من يحفظ دون أن يفهم هو كالحمار يحمل أسفاراً ويجب أن يكون مفهوما أن القـرآن ليس محلاً لألف صـنف، وليس مستودعا للغرائب والعجائب والطـرف والبـدائع وأن على النـاس أن ينقبـوا عن ذلك ويركبوا الصـعبة والـذلول فـإنهم يكلفـون أنفسـهم شـططا ثم يفسـحون المجـال للضـلال وهـذا كله من بـاب التنطع والإدعـاء والتكلف وما ضـرهم لو لم يفهمـوا كلمة فليسـعهم ما وسع عمر وعند الضـرورة فقد يحتـاج القـارئ الـذى يلتمس المعرفة إلى قاموس صغير لبعض الألفاظ. ولن يعجزه الحصول عليه. ولن يعجزه تفهمه.

وفى القـرآن آيـات متشـابهات تحمل أكـثر من معـنى وتقبل أكـثر من تفسـير وقد وجهنا القرآن الكريم لطريقة التعامل معهـا. ﴿هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُـونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلا أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ﴾. {7 آل عمـران}.. فلنـؤمن بهـذه الآيات بما وقر فى قلوبنا ولكن لا ندعى أن ما فهمنا هو الصواب وغيره باطل.

إذا لوحظ هنا كله فلن تكون هناك حاجة للتفاسير، وسيكون هناك اتعـاظ بـالقرآن، وإعمال للعقل وإحضار للقلب وهى مزايا جليلة تحقق ما أراده القرآن من الهداية.

وعلى أسوأ الاحتمـالات فـإذا أدى هـذا إلى بلبلـة، فالبلبلة فى سـبيل الاهتـداء إلى الحق أفضل من التسـليم بخطأ شـائع، والبلبلة لا تسـتمر طـويلاً لأن تلاقى الأفكـار يصفيها أولا بأول حتى ينتهى الفكر إلى قرار.

هـذا علما بأننا لا نملك مصـادرة فكر ولا الحجر على رأى. فـالقرآن مفتـوح للجميع وهو يقرر حرية الاعتقاد، بل أنه يجعل من حرية الاعتقاد آلية للإيمان.

مع هذا كله فنحن نعلم أن هذا الكلام لن يكون سائغا لـدى كثـير من النـاس الـذين تحجرت عقولهم واستعبدتهم أقوال الأئمة منذ انغلاق بـاب الاجتهـاد فاسـتمرأوا التقليد وعجزوا عن التفكير وهيمنت عليهم قداسة السلف..

وقد آن الأوان للتخلص من هذا كله.

- 2 -

المرجعية الثانية: السُـــنة

السُنة هى المرجعية الثانية التى سيقوم عليها التأسيس الجديد لمنظومة المعرفة الإسلامية.

وكما إننا لاحظنا جوانب عديدة فى القرآن غير الجوانب المألوفة، فهنا أيضاً جوانب أغفلها الذين كتبوا عن السُنة وركزوا العناية كلها على الأحاديث. إننا ننظر إلى السُنة عبر نظرتنا إلى الرسول، وكما أن القرآن هو عنصر التماسك لعالم الإسلام، فإن شخصية الرسول هى أبرز عناصر تكوين شخصية أمة الإسلام من الفرد حتى المليار وهذا أمر لا يجوز إغفاله، فضلاً عن أن السُنة تثير قضايا لم تظفر بالاهتمام فهى تمثل العنصر البشرى فى الإسلام وهى تعرض للقضية الصعبة الشائكة قضية تطبيق النصوص على الواقع..

من هنا يتضح إننا نعطى السُنة حقها ونلحظ جوانبها العديدة ولا نتعامل معها بالخفة أو البساطة فهى أكثر عمقا وتركيبا وأهمية..

ومعروف بالطبع أن هناك فئة قليلة تنكر حجية السُنة اكتفاء بالقرآن. ولو قالوا إنهم ينكرون السُنة على أساس عدم سلامة وسيلة الإثبات لكان لهم مبرر يمكن أن يناقش، ولكن أن ينكروا حجية السُنة أصوليا – اكتفاء بالقرآن فهذا ما يخالف بنية الإسلام وتركيبته الطبيعية.

وقد وجد المنكرون للسُنة من أيام الفتنة الكبرى وبدرجات متفاوتة، ويمكن أن يدخل فيهم الشيعة، والخوارج، والمعتزلة على اختلاف فى مبررات الإنكار ومداه.

وكانت هذه القضية من الانتشار والذيوع بحيث عُنى بها الإمام الشافعى وخصص لها جانبا كبيراً من اهتمامه ومنه نعرف أنها كانت منتشرة بالبصرة والبصرة كما نعلم هى ميناء العراق على الهند والسند، ومنها ترد البضائع والسلع والنحل والملل أيضاً ويدخلها فارسيون لا يزالون يؤمنون بزرادشت وهنود يؤمنون ببوذا وغيرهم من أشتات البشر. وقال الشافعى إن منهم من ينكر حجية السُنة أصلاً اكتفاء بالقرآن. ومنهم من لا يأخذ بأحاديث الآحاد كمصدر للأحكام. فهذا ما يقتصر على المتواتر من الأخبار ومنهم من لا يقبل من السُنة إلا ما كان بيانا لحكم قرآنى لأن السُنة فى نظرهم لا حجة لها فى ذاتها، إنما حجيتها لأنها بيان للقرآن.

وقد عُنى الشافعى بتفنيد آراء هؤلاء جميعاً وأبلى فى هذا بلاءً حسنا استخدم فيه ذكاءه وإحكامه للقرآن والسُنة بحيث أوقفت مباحثه تلك مد جحود السُنة وحصرته فى حيز ضئيل.

ووجد من يقول إن السُنة تعنى العمل، ومن ثم فإن السُنة العملية أى الطريقة التى صلى بها الرسول والتى حج بها والتى وزع بها الزكاة الخ... هذه السُنة شاهدها الألوف من المسلمين من الرسول مباشرة وأدوها كما شاهدوا وتناقلها الأجيال عنهم فهذه هى السُنة التى يؤمنون بها، وهى التى تمثل ما يقولون عنه "الإجماع" أما الأحاديث فتلك قضية أخرى.

ولهذا المنطق وجاهته لأن السُنة تعنى فعلاً العمل.. ولأن العمل أكثر حجية من القول، دع عنك المشاهدة الجماعية الثابتة والمتكررة عبر الأجيال.

ولكن القرآن الكريم عندما تحدث عن واجب المسلمين نحو الرسول لم يقل "اتبعوا" فحسب ولكن قال "أطيعوا" والطاعة لا تكون إلا للأقوال والآيات التى قضت بطاعة الرسول، بل وأشركتها مع طاعة الله أثارت دهشتنا وقلنا فى كتاب السُنة "فى دين يقوم على التوحيد إلى آخر مدى ويرفض كل إثارة لشرك فإن التعبير القرآنى "الله والرسول" يثير الدهشة ويدعو إلى التفكير".. وقد أورد الكتاب قرابة عشرين آية تقرن طاعة الرسول بطاعة الله والإيمان بالله بالإيمان بالرسول..

ولا جدال فى أن لهذه الآيات مغزاها وأن الإلحاح عليها والقرن ما بين طاعة الله وطاعة الرسول لها دلالة تنسحب على أقوال وتوجيهات الرسول، دون تحديد لطبيعة ما يستوجب الطاعة.

يضاف إلى هذه الآيات الآيات الأخرى التى تشير إلى الرسول باعتباره معلما "للكتاب" و"الحكمة".

وقد اعتقد الشافعى أن الحكمة هى السُنة والكتاب هو القرآن، ولكن القرآن الكريم يستخدم تعبير الحكمة بما ينافى هذا المعنى تماماً. فقد أوتـى لقمان الحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾. {269 البقرة}.. بل إن الرسول نفسه تحدث عن الحكمة بما يعطيها الطابع العام الموضوعى "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها" وفى رواية أخرى "أنا وجدها فهو الأحق بها".

إذا فهمنا أن رسالة الإسلام هى تحرير الإنسان وإخراج الناس من الظلمات إلى النور وأن الرسول هو قائد جماهيرى – يقود حركة التغيير عن طريق الإيمان بالقيم التى تحقق الأهداف أدركنا أن دور الرسول أعظم بكثير من أن يبين الأحكام أو يفصل المجمل، إنه يقوم بدور يزدوج فيه الرسول بالفيلسوف بحيث يعلم "الحكمة" وأنه فى كلتا الحالتين يستحق الطاعة التى تكون على الطلبة لأستاذهم.

وإذا تذكرنا أن أكثر الصحابة صحبة للرسول مثل أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيده وزيد بن حارثة وإسامة وكذلك بعض اللصيقين من الأنصار أصبحوا فيما بعد من قادة الفتوح ومن أركان دولة المدينة وأنهم كانوا نماذج رفيعة للإنسان – فيمكن أن نستخلص من ذلك أن الرسول كان يربى "كادر" القيادة ولا يتأتى هذا إلا لمن بلغ من الحكمة مبلغا فائقاً. وإذا كان أرسطو قد علم الإسكندر فقد فاق من علمه محمد الإسكندر عدداً ونوعا... فلم يكن فى أحد منهم ما كان فى الإسكندر من نزق.

بل إن الذين قلت صحبتهم شيئاً ما، أو حتى عامة المسلمين الذين كانوا يصلون مع النبى ويستمعون خطبه وكلماته اكتسبوا لمسه من حكمته وشعاعاً من معرفته بحيث صلحت أحوالهم.

إن لدينا من الأحاديث ما لا يمكن أن ينطق بها إلا مشرع عظيم أو فيلسوف حكيم، أو بليغ أدرك الغاية من البيان والفصاحة.

وأخيراً فإن الرسول "أسوة" حسنة للمؤمنين جميعاً، ومن المؤسف أن الكتابات التقليدية لم تُعنى بالدرجة الأولى بخلائفه، وإيثاره وشجاعته ووفائه وصدقه وعدله وعنيت بجوانب أخرى أقل أهمية.

أكثر من ذلك أن الرسول قد بعث للناس جميعا، وليس للعرب وحدهم وللأجيال المقبلة وليس للجيل الذى ظهر فيه، وينشأ عن هذا أن يكون تراثه – أو سنته بأقواله وأفعاله – تراثا للبشرية ولا يجوز للعرب أن يتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما ورث. لأن الأجيال الأخرى والأجناس الأخرى لها حق حتى وإن لم تؤمن بالإسلام لأن الحكمة تصدر عن النبى أكثر مما تصدر عن فيلسوف والفلسفة أرث البشرية كلها تدرسها وتقبس منها وتفيد بها.

وفى مناسبة أخرى قلنا إن السُنة من الكتاب بمنزلة النقط من الكلمات وبدونها لا يمكن معرفة المعنى من الكلمة، وفى المقابل فإن النقط وحدها لا تعنى شيئاً..

فنحن أذن أبعد الناس من أن ننكر السُنة، فلعلنا أحنى عليها من الدين يتباكون عليها.. ومع هذا يسمحون للخرافة أن تدخلها وتلوثها ويقبلون التقول على الرسول ما لم يقله..

إن هذه النواحى كلها يجب أن تلحظ عندما نتحدث عن السُنة عملية أو قوليه. ويتضح أن الموضوع أعظم مما يتصورون.

* * *

تبقى بعد ذلك، مع أخذ النقاط السابقة فى الحسبان والتقدير ثلاث قضايا هامة هى أكثر القضايا تأثيراً على السُنة.

هذه القضايا هى:

1. الوضع فى السُنة.
2. مدى سلامة اتخاذ السند معياراً للصحة.

ج. مدى سريان أحكام السُنة.

أولاً: الوضع فى السُنة..

تسلم كل المراجع التقليدية بوقوع النسخ بصورة "وبائية" إما صراحة، وأما ضمنا، فمن الضمنى مثلاً أن يتكرر القول بأن أحمد بن حنبل كان يحفظ "ألف ألف حديث" أو ستمائة ألف حديث، وأن البخارى كان يلم بخمسمائة ألف حديث الخ... ومن الصراحة ما ذكره الشيخ السباعى رحمه الله فى كتابه عن السُنة عن تسع فئات من الوضاعين هم:

1- الزنادقة. 2- أرباب الأهواء. 3- الشعوبيون. 4- المتعصبون لجنس أو بلد أو إمام. 5- المتعصبون للمذاهب الفقهية عن جهل وقلة دين. 6- القصاص. 7- الزهاد والمغفلون من الصالحين. 8- المتملقون للملوك والطالبون الزلفى إليهم. 9-

المتطفلون على الحديث ممن يفاخرون بعلو الإسناد وغريب الحديث (ص88 الطبعة الثانية) ولو أضاف إليهم اليهود والمنافقين الذين ظهروا أيام الرسول لأصبحوا عشرة.

وما يتناقل فى كتب الحديث من شيوع الوضع فى العراق التى أطلق عليها "دار ضرب الحديث" وأن الحديث الصحيح أصبح كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود وقول أهل المدينة "يخرج الحديث من عندنا شبراً فيرجع إلينا من العراق ذراعاً". وتحدث الشيخ محمد أبو زهو فى كتابه الحديث والمحدثون عن الوضع فى الحديث فقال:

"ولما انقضى عهد الخلافة الراشدة وانشق المسلمون بعضهم على بعض ظهر الكذابون والمنافقون من أهل الملل الأخرى الذين لم يتجاوز الإيمان حناجرهم فلما أن شاعت رواية الحديث كما رأيت بين أهل الأقطار الإسلامية ظهر هؤلاء الدجالون من أرباب الفرق المختلفة بوجوه فى نهاية التبجح والقحة فأخذوا يكذبون على الصحابة ويدعون أنهم رووهم الحديث وربما لم يكونوا قد رأوهم ولا سمعوا منهم.

أخذ هؤلاء الكذابون يأتون بالعظائم مما لم يأذن به الله ولا رسوله فهذا جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى أبو عبد الله الكوفى الرافضى المتوفى سنة 127 يقول "عندى خمسون ألف حديث ما حدثت منها بشىء[(30)]" ويقول فيه سفيان سمعت جابرا يحدث بنحو ثلاثين ألف حديث ما استحل أن أذكر منها شيئاً وإن كان فى كذا وكذا.

وهذا همام يقول قدم علينا أبو داود الأعمى فجعل يقول حدثنا البراء وحدثنا زيد بن أرقم فذكرنا ذلك لقتادة فقال كذب ما سمع منهم وإنما كان إذ ذاك سائلاً يتكفف الناس زمن طاعون الجارف أى عام سبع وثمانين ويقول همام دخل أبو داود الأعمى على قتادة فلما قام قالوا أن هذا يزعم أنه لقى ثمانية عشر بدريا فقال قتادة هذا كان سائلاً قبل الجارف لا يعرض لشىء من هذا ولا يتكلم فيه، فوالله ما حدثنا الحسن عن بدرى مشافهة ولا حدثنا سعيد بن المسيب عن بدرى مشافهة إلا عن سعد بن مالك"[(31)].

فلما حدث التطور الضخم فى المجتمع الإسلامى، جدت قضايا جديدة لم تكن معهودة، وأصبح من الضرورى وجود حكم لها. ومعروف بالطبع أن القرآن لا يذكر التفاصيل وأنه أوكل ذلك إلى السُنة، فطلبوا الحكم فى السُنة ، ولكن لم يكن فيها شىء لأن هذه حالات حدثت بعد عهد الرسول للإسلام، فلم يكن هناك سبيل إلا اصطناع الأحاديث ولم يتحرج الذين قاموا بذلك لأنهم كانوا يريدون حل مشكل وقد حلوه بأفضل ما أرتؤا، وقد سبقهم وضاع "صالحون" أرادوا تعزيز الإيمان بوضع الأحاديث. بل إن الجهود المضنية التى بذلها علماء الحديث فى غربلة وتنقية الحديث والنزول به من مئات الألوف المزعومة إلى عشرات آلاف ثم إلى بضعة ألوف، وما وضعوه فى الجرح والتعديل وعلل الرجال وصيغ الرواة.. كل هذا يثبت أن عالم

---

[30] **(30) أى لم يروها من أحد، وإنما افتعلها..**
[31] **(31) الحديث والمحدثون ص115- 116.**

الحديث كان مباءة وأن انتحال الأحاديث ووضعها تطلب أن يبذل علماء الحديث كل هذه الجهود لمجابهتها، وزاد فى فداحة القضية أنه لم يبدأ فى تدوين السُنة إلا على رأس المائة الهجرية بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز.

رُوى عن عبد الله بن المسور (أبو جعفر المـدائنى) أنه كـان يضع الحـديث عن رسـول الله، ولا يضع فيه إلا العبادة والزهد، فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال إن فيه أجراً.

وروى النووى: وقد سلك مسـلكهم بعض الجهلة المتسـمين بسـمة الزهـاد. ترغيبـاً فى الخير فى زعمهم الباطل.

وقال سلمة بن شبيب سمعت إسماعيل بن أبى أويس يقول "كنت أضع الحــديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فى شىء فيما بيتهم".

ويقول يحيى بن معين: ما رأيت الصالحين يكذبون فى شىء أكذب منهم فى الحديث.

وذكر ابن الصلاح إن هناك 65 صنفاً من صنوف الحديث منها 42 للحديث الضعيف ويقول الحازمى "علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ المائة، كل نوع منها علم مستقل لو انفق الطالب عمره لما أدرك نهايته.

لكل هذه العوامل فإننا نقرر – بكل ثقة – أن قضية الوضع محسومة وأنه حدث وأخذ شكلاً وبائياً بحيث عجز المحدثون رغم كل جهودهم عن القضاء عليه وأن كانوا قد حاصروه وتخلصوا من معظمه.

ثانياً: مدى سلامة اتخاذ معيار لصحة الحديث:

يمكن القول أن تداول الحديث كان يتم شفاهيا أى من راو إلى راو إلى آخر حتى إلى الصحابى طوال مائة وخمسين عاما حافلة بالفتن والانشقاق والحروب فضلاً عن وصول الدولة الإسلامية إلى الوضع الإمبراطورى الذى فرض نفسه على منظومة المعرفة الإسلامية.

إننا لو دعونا خمسة أو ستة إلى وليمة ولو سألناهم بعد أسبوع عما دار من حديث لتفاوتت أراءهم تفاوتاً بالغاً فما بالك إذا كانت المدة مائة عام ينقل فيها جيل عن آخر.

لقد قدم لنا القرآن الطريقة التى يثبت بها الحق فى آية الدين، بسورة البقرة 282. وعُنى – على غير عادته – بإثبات تفاصيلها وتأكيدها فاشترط الكتابة، وان تكون الكتابة بحضور شاهدين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، وأن لا يمتنع الشهود، ولا يضاروا، وأن يكتبوا بدقه ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾. فإذا كانت هذه هى طريقة القرآن فى إثبات دين بضعة دنانير. فأولى أن يكون ذلك فيما تستحل به الفروج والدماء.

ولعل هذا المعنى كان ماثلاً ذهن أبى بكر وعمر. فأنهما كانا يتطلبان شاهدا أو يحلفون من يروى حديثاً.

فلو قال قائل إن أسلوب التناقل الشفاهى طوال مائة وخمسين عاماً قبل التدوين أسلوب لا يتوفر فيه التوثيق والتحرير والإشهاد الذى تثبت به الحقوق. وبالتالى فلا يُعوِّل عليه. لكان له سند قوى لا من طبائع الأمور فحسب، ولكن أيضا من موجبات القرآن الذى أشترط التوثيق والشهود لإثبات الحق، ولعله كان يستطيع أن يستشهد بالأحاديث المتواترة أى التى قيل إنه اجتمع عدد كبير من الرواة يروى كل واحد منهم من الآخر حتى الوصول إلى الصحابى، والتى يعتبرونها مؤكدة ويلحقونها بالقرآن، هذه الأحاديث تكاد معظمها التى تكون مؤتفكات وأساطير فبعضها عن شق صدر الرسول وعن معجزاته وعن المهدى وعن الدجال الخ... مما يثبت عقم التناقل الشفهى حتى لو كان من جماعة، لسبب بسيط هو أن هذا لا يمكن إثباته.

إن هذا النقد لطريقة السند يجب أن لا يفهم أنه تشكيك فى السُنة أو هدم لها. لأن السُنة نفسها شىء وطريقة روايتها شىء آخر. وما ننقده هو طريقة الروايه والغرض من هذا هو التثبت من صحة نسبة الحديث إلى الرسول، فهو فى حقيقته دفاع عن السُنة وصحتها، وقد سبق للشيخ محمد عبده – وهو من هو – أن قال "ما قيمة سند لا أعرف بنفسى رجاله ولا أحوالهم ولا مكانهم من الثقة والضبط وإنما هى أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف تقلدهم فيها ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون ويستطرد "إن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به، لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه فى الحال مثل ما للناقل معه، فلابد أن يكون عارفا بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك مما يطول شرحه ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل". وهكذا لا سبيل أمامنا ولا مفر من عرض هذه "المأثورات" على القرآن، فما وافقه كان القرآن هو حجة صدقه وما خالفه فلا سبيل لتصديقه، وما خرج عن الحالتين فالمجال فيه لعقل الإنسان مطلق ومفتوح.. كما أن أمور "العقائد والتوحيد لا يؤخذ فى مباحثها بأحاديث الآحاد، وأن صحت.." إذ مجال أحاديث الآحاد هو العمليات![32].

فها هو ذا الأستاذ الإمام يقرر سلبا وإيجابا – ما قررناه فى كتابنا "السُنة" من عدم كفاية السند سلبا والعرض على القرآن إيجابا.

ومع هذا، فنحن زيادة فى التحوط نسلم بأن ثمة عوامل خاصة أو طارئة يمكن أن تشفع لطريقة التناقل الشفهى ويجب أن توضع فى تقديرنا مثل قوة حافظة العرب، والاعتماد على الذاكرة قبل أن يعرف أو ينتشر التدوين. والقداسة التى كانت تحوط النص النبوى. ولأن الرسول كان عادة يتكلم ببطأ ويكرر حديثه كما كان الصحابة يراجعونه حتى لا يفوتهم حرف ولا يقومون إلا "كأنما زرُع فى قلوبنا" وهذه كلها وإن أوضحت المبررات التى أدت لاستخدام هذه الطريقة، فإنها وإن سمحت بوصول عدد من الأحاديث الصحيحة إلينا فإنها لا تغير طبيعتها – وهى أن الاعتماد شفاها أو "عنعنة"

---

[32] **(32) تجديد الفكر الإسلامى – محمد عبده ومدرسة الدكتور محمد عمارة ص67- 68 (نشر الهلال).**

على السند لتقدير حالة الحديث وصحته من عدمه لا يمكن أن تقبل وإنها دون أقل شك سمحت بدخول الكثير من الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو الركيكة حتى فى الصحيحين.

ثالثاً: مدى سريان أحكام السُنة:

عالجنا قضية تدوين السُنة بشىء من الإسهاب والتفصيل فى كتابنا "الأصلان العظيمان الكتاب والسُنة" وفى كتاب السُنة وهو الجزء الثانى من كتاب نحو فقه جديد وأخيراً فى كتابنا "الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى" بحيث لا نرى ضرورة لتكراره ونقول هنا إننا لا يخالجنا أى شك فى أن السُنة لم تدون إلا سنة 150 هجرية بدليل عملى هو عدم كتابه أبى بكر لها ورفض عمر بن الخطاب كتابتها بعد أن صرح له الصحابة بذلك، كما لم يقم عثمان أو على بكتابتها. وأن أول إشارة إلى "تدوين" جاءت من عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الهجرية، ولكن هذه البادرة لم تتابع لأن خلافة عمر بن العزيز لم تدم سوى عامين توفى بعدها ولم نسمع عن حركة تدوين إلا بعد ذلك بمدة فهذه هى وقائع تاريخية مادية تثبت عدم تدوين السُنة قبل سنة 150

وقد قال المحدثون تبريراً لذلك إن عدم التدوين هو خشية أن تختلط بالقرآن وهو زعم لا يستقيم فأى واحد يلم بالعربية يعرف أن لغة الحديث غير لغة القرآن وأنه لا يمكن الخلط بينهما.

إنما كان عدم الكتابة لأمرين أولاً: أن الرسول نهى عن كتابة حديثه وأمر من كتب شيئاً أن يمحه وثانيا حتى لا يطرح المسلمون القرآن ويعتمدوا على السُنة وهو ما صرح به عمر بن الخطاب عندما قرر عدم تدوين السُنة.

ليس المهم هنا هى قضية نهى الرسول عن كتابة حديثه، فهذا أمر ثابت دللنا عليه بما لا يحتمل شكا فى كتبنا السابقة وآخرها "الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى" ولكن المهم هو الحكمة فى هذا النهى وما نستنبطه منه.

الحكمة هى أن دور الرسول هو تفصيل ما أجمله القرآن. وكان أكثر هـذا الأجمـال فى مجال العبادات على نقيض ما قد يتصور البعض إذ يفترض أن يحدد الكتاب المنزل من الله تفاصيل العبـادات. ولكن هـذا أمر استـبعده القـرآن الكـريم فلم تتضـمن آياته تفصـيلاً حـتى فى الصـلاة، أو الصـيام أو الحج أو الزكـاة الخ... لأن القـرآن – باعتبـاره دستور الإسلام، وباعتبار الإسلام آخر الديانات، فـإن ما سـيقرره من تفاصـيل سيصـبح ملزمـــاً لكل الأجيـــال. والله تعـــالى يعلم أن الزمـــان والمكـــان واختلاف الأجنـــاس والأعراف.. كلها تضيق بالتفاصيل وتطور فيها، أو حتى تستبعد بعضها، ولما كان القرآن يعلم هذا فإنه لم يذكر إلا الكليات التى يريد لها التأبيد والـذى لا يكـون عليها خلاف بين الأجيال لأنها مما يسلم بها العقل ويوجبه الضمير ويتقبله المجتمع..

ولكن ليس معــنى هــذا أن تــترك التفاصــيل دون إيضــاح، إذ لابد أن يعلم النــاس تفاصيل الصلاة والزكاة والحج والصيام الخ... وهذا هو الدور الذى وكله القرآن الكــريم للرسول.

وقد قام الرسول بهذا، وبيِّن للمسلمين تفاصيل الكليات التى أجملها الإسلام.

ولكنه – فى الوقت نفسه – نهى عن أن يكتب حديثه، لأن الرسول الذى كان خلقه القرآن – يعلم بالطبع الحكمة التى من أجلها استبعد القرآن ذكر التفاصيل، إلا وهى أن لا يثقل على الأجيـال بتفاصـيل قد تتعـارض مع التطـور – ورأى الرسـول أنه إذا دون حديثه فإنه سيكتسب صـفة التأبيـد، وبهـذا يتعـارض مع ما أراده الله من عـدم إلـزام الأجيال بالتفاصيل.

وكان الحل أن يطبق المسلمون حديثه، ويتناقلوا هذا الحـديث من أب لابن ويطبق ما دام سائغاً ومتفقـاً مع التطـور وتظل هـذه العملية مـائتى سـنة، أو خمسـمائة سـنة مثلاً، ولكنها لا تظل إلى النهاية، إذ سيأتى وقت يختفى الحديث المتناقل ويفقد أثـره أو تظهر دواعى ترتفق على النص السُنى، أو غير ذلك. وعندئذ يكـون على المسـلمين أن يلتجئوا إلى القرآن الكريم ليستلهموا منه أحكاماً تفى بحاجـاتهم وتتفق مع القـرآن أو يعودوا إلى "الحكمة" قرينة الكتاب لالتماس الحل.

وليس فى هـذا ما يمس السُـنة، لأن الأمر بعـدم التـدوين إنما جـاء من الرسـول ولأن الرسول قـرره فى بعض الأحـاديث الـتى سـبقت الإشـارة إليها وفى حـديث عـوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقـال: "أطيعـونى ما دمت فيكم، وعليكم بكتـاب الله عز وجل فـأحلوا حلاله وحرمـوا حرامـه" وفى رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال: "أطيعونى ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتـاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن الرسول استشرف أن المسـلمين سـيحلون السُـنة دون أن يكون موجوداً ليظهر ما تطـرق إليها من خطأ أو نسـيان أو وضع محل القـرآن الكـريم فتملكه الكرب[33].

وروى كـذلك عن الرسـول أنه قـال "لا أحل إلا ما أحل الله فى كتابـه، ولا أحـرم إلا ما حرم الله فى كتابه" وفى رواية "لا يمسكن الناس علىَّ بشـىء فـإنى لا أحل لهم إلا ما احل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله".

والأحاديث عن الرسول عديدة فى أن الحرام هو ما حرمه القــرآن والحلال هو ما أحله القرآن وما بعد ذلك عفو..

وروى عن الصـحابى أبى أمامة أنه سـئل هل أوصى الرسـول فقـال لا فقيل له كيـف. وقد أمر كل مسلم أن يعد وصيته فقال "أوصى بالقرآن".

* * *

فإذا قيل إن الرسول لم يـأمر بشـىء من عندياتـه، وإنما عن وحى قلنا إن الـوحى السُـنى الـذى أصـدر بمقتضـاه أحكامه يختلف عن الـوحى القـرآنى.. وإلا لكـان هنـاك وحيان.. وقد تصور بعض المفسرين والمحدثين أن آية ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3) إِنْ هُـوَ إِلا وَحْيٌ يُـوحَى﴾. {4 النجم}.. تنطبق على حـديث الرسـول فى حين أن الآية واضـحة

---

[33] **(33) أنظر الحديث فى زيادات محاسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبلقيـنى تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص 684 – والحـديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد 1/170 وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون .**

وأنها أطلقت على القرآن وأن هذا القرآن وحتى يوحى للرسول وليس قولاً من عندياته..

إن لدينا أوصافاً دقيقة لكيفية نزول الوحى القرآنى على الرسول ونعلم منها وجود جبريل وتلقينه الرسول وما اقترن به ذلك من ثقل حتى لتنوء الناقة وتكاد تبرك. وقد يسمع الرسول مثل صلصلة الجرس أو دوى النحل وقد يتفصد عرقاً فى الليلة الشاتية ويتمخض هذا كله عن آيات قرآنية.

ولكننا لا نقرأ عن وصف كهذا بالنسبة للوحى السُنى – وحى البيان – وإنما نقرأ تعبيرات للرسول تنم عن وحى ولكن ليس بالوحى الذى كان جبريل ينزل عليه بالقرآن، ولكن يلهمه الرسول. فنعرف عدداً من الأحاديث تبدأ بكلمة "أمرت" أو "نفث فى روعى" مثل:

- إن روح القدس **نفث فى روعى** أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله واجملوا فى الطلب.
- **أتانى آت** من ربى فقال صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة.
- **أمُرت بأن** أسجد على سبعة أعظم.
- **أمُرت بقرية** تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد.
- **أمرت بيوم** الأضحى عيداً جعله الله لهذه الأمة.

من هنا نعلم أنه ليس كل ما جاء فى السُنة – حتى لو كان صحيحاً – يكون ملزماً، لما عرضنا من أسباب.

ويجب الإشارة إلى أن الفقهاء استبعدوا جزءً كبيراً من الأحاديث باعتبار أنها لا تعد تشريعاً وأن سؤالاً قدم إلى لجنة الفتوى بالأزهر "هل من أنكر استقلالية السُنة بإثبات الإيجاب والتحريم يكون كافراً فرد الأزهر فى فتوى منشورة" وبعد مقدمات عديدة.

"ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لا يثبتان إلا باليقين القطعى الثبوت والدلالة، وهذا بالنسبة للسُنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة، وحيث أنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها[34] فإن السُنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون فعلية أو تضاف إلى القرآن الكريم. وعلى هذا فمن أنكر استقلال السُنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافراً[35]".

فضلاً عن أن لهذا التكييف سند آخر هو أن الحكمة بصفة عامة هى المرجعية الثالثة، فإذا حكمنا بها فإننا لا نكون قد خرجنا عن المرجعيات التى قررها الإسلام".

---

[34] **(34) وكيف بالله تكون متواترة ثم يقال إنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها! (تعقيب من المؤلف).**

[35] **(35) نشرت الفتوى بكتاب الشيخ محمد الغزالى تراثنا الفكرى ص175 – 179 ومجلة الأحرار بتاريخ 5/8/93.**

أن الجزء الإنشائى فى التأسيس الجديد لمنظومة المعرفة الإسلامية فيما يتعلق بالنسبة هو أولاً وضع معايير من القرآن الكريم للتثبت من أن حديثا ما لا يتعارض مع القرآن وبهذا يمكن – على الأقل – احتمال نسبته إلى الرسول. وقد سبقنا إلى هذا الإمام الشيخ محمد عبده فى إشارته التى استشهدنا بها آنفا..

وتتضمن هذه المعايير.

1. التوقف أمام الأحاديث التى جاءت عن الغيب بدءً من الموت حتى الجنة أو النار لأنه لا يعلم الغيب إلا الله.
2. أتوقف أمام كل الأحاديث التى جاءت بتفسير المبهمات فى القرآن ودعوى النسخ وأسباب النزول الخ... لأنه لا يمكن تحكيم الأحاديث عن ذلك ومعظمها ركيك والسُنة بأسرها ظنية الثبوت فى القرآن الكريم المحكم قطعى الثبوت.
3. التوقف أمام أحاديث تخالف الأصول القرآنية.
4. التوقف أمام أحاديث المرأة التى لا تحقق ما جاء فى القرآن عن المرأة وكذلك أحكام الزواج والطلاق وكذلك الأحاديث التى جاءت عن الجزية أو الرق.
5. التوقف أمام الأحاديث عن معجزات الرسول لأن معجزة الإسلام هى القرآن.
6. التوقف أمام كل الأحاديث التى تكفل ميزات لأشخاص أو أماكن أو قبائل.
7. التوقف أمام الآيات التى تخالف حرية الفكر والاعتقاد المقررة مراراً وتكراراً فى القرآن.
8. التوقف أمام حديث رجم المحصن لأنه لم يرد فى القرآن، ولأنه أقسى مما جاء فى القرآن والرسول ليس جباراً.
9. التوقف أمام الأحاديث التى تنذر بعقاب رهيب أو على أخطاء طفيفة وتعد بنعيم مقيم لكل من يتلو أدعية ويصلى نوافل.
10. استبعاد الأحاديث التى تنص على طاعة الحاكم ولو غضب مالك وضرب ظهرك.

لقد عرضنا مبررات ذلك بشىء من الإسهاب والتفصيل فى كتابى "السُنة" و"الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى".

والأمر الثانى الذى يتضمنه التأسيس الجديد أن من السُنة ما لا يعد تشريعا، وأن ليس لها تأبيد القرآن وتظل ما دامت لا تخالف الضرورات السليمة للتطور، فإذا تخلفت فى بعض المجالات فيتعين العودة إلى القرآن والحكمة، وليس فى هذا تجاوز، وإنما هو تطبيق لما أراده الرسول نفسه عندما نهى عن كتابه حديثه وأمرنا بالعودة إلى القرآن كما أوضحنا.

* * *

بهذا يحتفظ التأسيس الجديد بالسُنة بما للسُنة من منزلة، وبما للرسول من تقدير وطاعة وفى الوقت نفسه فإنها تنفى عنها كل ما لحق بها من غشاوات وإضافات واجتهادات للفقهاء توافقاً مع الطبيعة الإمبراطورية للدولة الإسلامية عندما وضعوا منظومتهم المعرفية.

- 3 -

المرجعية الثالثة: الحكمة

الباب المفتوح

قال الأسلاف المؤسسون لمنظومة المعرفة الإسلامية إن أصول الفقه أربعة القرآن والسُنة والإجماع والاجتهاد.

وقد قدمنا فى الفقرتين السابقتين كيف يمكن التعامل مع القرآن والسُنة.

أما الإجماع فليس له وجود فى الحقيقة إلا السُنة العملية أى كبقية أداء الصلاة وأداء المناسك الحج التى شاهدها الألوف وهم يصلون أو يحجون وراء النبى. أما ما عدا هذا من أحكام فلم يحدث إجماع ولهذا أنكره الإمام أحمد وأهال عليه الشافعى الشبهات. ولو أخذ المسلمون الإجماع مأخذاً جاداً لكان من الضرورى أن يضعوا الآلية التى تحققه، لأنه لا إجماع دونها، أو على الأقل لأتخذوا من موسم الحج مناسبة ينعقد فيها إجماع فقهاء المسلمين، وكان يمكن أن يأخذ الإجماع شكلاً شعبياً، ولكن هذا كله مما لم يكن يخطر ببال الفقهاء فأصبح الإجماع كلمة جوفاء.

أما الاجتهاد فلم يعد ما أراده معاذ "اجتهد رأيى ولا آلو" وإنما أصبح قياساً على وحدة العلة وتاه فى مباحث العلة اللغوية أو المنطقية البعيدة عن الحياة، بحيث أصبح قميص كتاف، وليس اجتهاداً.

فى الــوقت نفسه غفل الفقهــاء عن أصل كــان يمكن أن يكمل الفقه ويصــلحه وينفى ينفى عنه الشوائب والافتياتات ويكفل له البقاء ذلك هو الحكمة.

هذا الأصل الذى جاء النص عليه صريحاً فى القرآن وقارنا الكتاب بالحكمة مثل:

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾.{129 البقرة}..
- ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾.{151 البقرة}..
- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَـابِ وَالْحِكْمَـةِ يَعِظُكُمْ بِـهِ ﴾. {231البقرة}..
- ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَـةِ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ لَطِيفًا خَبِـيرًا ﴾. {34 الأحزاب}..
- ﴿هُــوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُــولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾{2 الجمعة}..

كما مهدت لــه، ودلت عليه الإشـارات العديـدة فى القـرآن عن العقـل، والفكـر، والتــدبير والســير فى الأرض والاتعــاظ بالحضــارات القديمة الخ... والتعــرف على السماوات والأرض والجبال، والكون بأسره.

ولفتت كلمة الحكمة نظر الشافعى، وأعتبر إنها السُـنة، لأنه لم يتصـور أن يقـدم الرسول شيئاً مع القرآن إلا السُنة.

ولكن استعمال القرآن للكلمة ينفى ذلك نفيا تاما، والعجيب من الشافعى رحمه الله كيف لم يلحظ ذلك.

لقد استخدم القرآن كلمة الحكمة فى آيات عديدة:

- ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعَـالَمِينَ﴾. {251 البقرة}..
- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾. {20 ص}..

كما أتاها "الحكمة" لقمان:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْـكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْـكُرْ فَإِنَّمَا يَشْـكُرُ لِنَفْسِـهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾. {12 لقمان}..

كما أتاها عيسى :

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾. {48 آل عمران}..
- ﴿وَلَمَّا جَـاءَ عِيسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ قَـالَ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَـةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي﴾. {62 الزخرف}..

بل أتاها النبيين :

- ﴿وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْـرِي قَـالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ ﴾. {81 آل عمران}..

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْـرًا كَثِـيرًا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾. {269 البقرة}..
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾.{125 النحل}..
- ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾. {5 القمر}..

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة فى القرآن عن الحث على التفكـير وإعمال العقـول والتـدبر فيما خلق الله وأوجـده من آيـات وسـنن والتعـرف على آثـار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون الخ..

وهناك سببان رئيسيان يجعلان دعوة الإحياء الإسلامى تأخذ الحكمة مرجعية ثالثة لمنظومة المعرفة الإسلامية.

السبب الأول أن القرآن لا يذكر التفاصيل كما قلنا وبالتالى ظهرت مجالات عديدة لا يمكن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من

تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها فى البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنسانى الذى يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل فى حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له – وحيا ذاتيا فى نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهية فى الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التى تعزز الدين وتستكمل ما ينقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء، والوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات.

ولو أقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس أو أن يتخذوا منه أداة تحقق مآرب خاصة، واتجاهات معينة ولضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت".

السبب الثانى إن الإسلام هو آخر الديانات السماوية وأنه للناس جميعاً ومعنى هذا أن عليه أن يعايش البشرية فى مصيرها ولا يمكن أن تتحقق هذه المعايشة إلا إذا كان هناك باب مفتوح على كل الثقافات والتطورات ليستطيع أن يوائم نفسه مع المستجدات وإلا لأصبح صندوقا مغلقاً جامداً لا يساير التطور.

وقد جاء اختيار القرآن الكريم لكلمة الحكمة نوعاً من الإعجاز لأنها يمكن أن تضم الثقافات والمعارف فى مختلف المجالات علمية، أو أدبية، أو فنية وفى الوقت نفسه تتصف هذه كلها بالسلامة الموضوعية البعيدة عن الشطط، أو السرف أو الخطأ لأنها لو اتصفت بذلك لما كانت حكمة..

ومقتضى الأخذ بهذا الأصل لا يقتصر على الانفتاح التام على العالم واقتباس كل ما يعد صالحاً فيه دون غضاضة أو حساسية أو شعور باغتراب، بل ما هو أبعد من ذلك وأهم أن تكون الحكمة "طلبتنا" بمعنى أن نسعى لها ونسهم فى تقديم الجديد والإضافة إليها وليس مجرد الأخذ والاقتباس. إن توجيه الرسول أن الحكمة هى طلبة المؤمن إنما هو لتكون الحكمة "طلبة" وهدف المؤمنين.. بحيث يعملون لما يحقق هذا الهدف، وهو أيضاً ما يتعلق مع بقية التوجيهات النبوية فى طلب العلم ولو فى الصين، وأن لا تشرق الشمس على المسلم إلا ويستفيد علما وأن يطلب العلم من المهد إلى اللحد، أو كما يقول أحمد بن حنبل مع المحبرة إلى المقبرة.

خاتمة
المجتمع فى التأسيس الجديد

اسـتغرق وضع منظومة المعرفة الإسـلامية القـرون الثلاثة الأولى من الهجـرة، وضعت فيها الأسس والمبادئ تلتها خمسة قرون فى الشروح والحواشـى، والتفاصـيل ثم حدثت فترة وإن لم يعدم العالم الإسلامى مجددين كبار حتى بدايات العصر الحديث مع جمال الأفغانى ومحاولات التجديد المعاصرة.

هذا من ناحية المـدة الزمنيـة، أما من ناحية المسـاحة الجغرافيـة، فـإن وضع هـذه المنظومة أمتد من سـيبريا المتجمـدة إلى أفريقيا الحـارة، ومن الصـين شـرقاً حـتى أسبانيا غربا، واشتغل بها مختلف الأجناس من عرب وهنود وفرُس ومصريين الخ...

وخلال هـذه المـدة الطويلة والمسـاحة العريضة ألفت دون مبالغة تلال من الكتب لم يصلنا معظمها لأن التتار عندما غزو العـراق دمـروا بغـداد والكوفة والبصـرة وألقـوا بمكتباتها إلى نهر دجلة والفرات حتى أسود ماؤها من أثر حبرها. ولأن الأسبان أحرقـوا مكتبة الأندلس الزاهرة ولأن الروس دمروا كل الآثـار الإسـلامية فى بخـارى وطشـقند وفـازان الخ... ومع هـذا التـدمير الـرهيب فهنـاك الألـوف من المخطوطـات فى الأسكوربال فى أسبانيا وليدن فى هولندا لم تطبع حتى الآن.

هذا الجهد العظيم الفائق الـذى كـان الـدافع إليه الإيمـان العميق والالـتزام بخدمة الإسـلام والتقـرب إلى الله يعطينا فكـرة عن ضـخامة المسـئولية الـتى تقلـدتها دعـوة الإحياء عندما بدأت إعادة التأسيس.

إن قرابة مائة صفحة عن هذا الموضوع لا تمثل إلا خطوة واحدة على مسيرة ألف ميـل. ومع هـذا فـإن أهميتها الخاصة هى إنها أولاً: حطمت الجليد – كما يقولـون – وأعلنت ضرورة إعادة التأسيس وخطأ الاتباع والتقليد وعقم محاولات الإصـلاح الجزئية أو تنقية التراث، وهذا أمر لم يكن غيرها ليستطيع أن يقوله. ثانياً: إنها وضعت الخطوط العريضة لما يكـون عليه التأسـيس، أو ما يمكن أن نسـميه "نظريـة" هـذا التأسـيس الجديد وهو أهم أمر فى المشروع، إن الشافعى عندما وضع أصول الفقه وأقامها على القرآن والسُنة والإجماع والاجتهاد فـإن العمل على هـذا التأسـيس تقـرر واعتمد لمـدة ألف عام.

ونتبين الأهمية الخاصة لدعوة الإحياء إنها تصدت لهذه المسئولية الضخمة، وقدمت مشـروعها فى الـوقت الـذى لم يكن رجـال المؤسسة الدينية الـذين يمثلـون الحفـاظ والتقاليد ليقوموا به، كما عجزت الانتلجنسياً أيضاً لعـدم تمكنها من الأصـول الإسـلامية وعدم عنايتها وأن هذا ليس من أولوياتها. ومثل هـذا العمل لابد أن يقـوم على أسـاس إيمان عميق كما أن الـذين ينقـدون الإسـلام أو يبحثـون فيه بحيـاد أو بشك ديكـارتى لا يمكن بالطبع أن يقوموا به، أما إذا كان هناك عدد قليل من المفكرين الإسلاميين الذين

كان يمكن أن يتصدوا له فإنهم آثـروا السـلامة أو حـالت ارتباطـاتهم دون تـورطهم فى ذلك. وهكذا كانت هذه الدعوة المغمورة التى كأنما انشـقت عنها الأرض أو هبطت من السماء ويصدق عليها "ويخلق مالا تعلمـون". هى الـتى تصـدت لـذلك، وقد كـان لـديها الجراءة والاستقلالية الكاملة من كافة الارتباطات المعوقة، فضلاً عن أن هذا الموضوع كان محل اهتمامها من سنة 1946 عندما أصـدر الأسـتاذ جمـال البنا كتـاب ديمقراطية جديدة وضمنه فصـلاً بعنـوان "فهم جديد للـدين" تضـمن أول وأهم خط فى التأسـيس الجديد وهو الإنسان عنـدما وجه المؤلف الحـديث للإخـوان المسـلمين الـذين كـانوا قد وصلوا للأوج وتعالت صيحاتهم بشـعاراتهم المعروفة فكتب "لا تؤمنـوا بالإيمـان وحـده. ولكن آمنــوا بالإنســان" ومن ذلك الحين وتلك الإشــارة هى محــور همه وعاشت فى أجواء ضميره وظلت تنضج على نار هادئة طـوال هـذه السـنوات وتثريها وتنميها روافد ثقافية عديـدة ولم تعلن دعـوة الإحيـاء الإسـلامى عن نفسـها إلا سـنة 2000 عنـدما أصدرت كتابها "نحو فقه جديد".

* * *

كانت هذه مقدمة لازمة، أثرنا أن نضعها فى آخر الكتـاب بعد أن اسـتوعب القـارئ ما سبقها حتى نبدد ما قد يطرأ عليه من تساؤلات.

ولكن الغـــرض الرئيسى من هـــذه الخاتمة هو أن طبيعة الدراسة قضت عليها أن تأخذ شكلاً منهجياً بحيث لم يعط القـارئ صـورة – ولو عامة جـداً – عن المجتمع فى ظل هذا التأسيس وهو الشىء العملى الذى قد يهمه أكـثر من أى شـىء آخـر، والـذى يعطيه صورة عملية وتطبيقيه للتأسيس الجديد ومـدى التغيـير والتجديد الـذى سـينتاب المجتمع عندما يطبق هذا التأسيس الجديد.

ومن الواضح أن هذا يتطلب كتاباً آخر، وحتى يصدر هذا الكتـاب الآخـر، فسـنكتفى هنا بإعطـاء صـورة عامـة، وخطـوط عريضة لما سـتكون عليه بعض القضـايا الملحة للمجتمع ومن المهم التنبيه إلى أن هـذه الخطــوط مؤصـلة أى موضــوعة على أصل إسـلامى من القـرآن أو من السُـنة، وهى فى هـذا تختلف عن آراء المصـلحين الـذين ينقلــون ما هو موجــود فى المجتمع الحــديث ولكن دون أن يؤصــلوا ذلك على أسس إسلامية، بحيث لا تجد فيها النبض الإسلامى..

وفيما يلى بعض الخطوط العريضة لأهم القضايا:

- أن الفكـرة المحورية فى إعـادة التأسـيس هى أن يكـون منطلق الإسـلام هو الإنسان تطبيقا لفكرة خلافة الإنسان لله على الأرض، وما يستتبعه هذا من تكريم.
- كرامة الإنسان المعنوية تتطلب حرية الفكر والمعتقد والتعبير.
- كرامة الإنسـان المادية تتطلب توفـير الظـروف المادية الـتى تحقق له الحيـاة الكريمة من مأكل ومسكن وعمل وتأمين وكـذلك الأمن من الاعتقـال أو السـجن أو الإهانة. وهذه كلها هى واجبات الدولة التى تستحل من أجلها فرض الضرائب.

وتطبيق هذا يتطلب وضع دستور على غرار دستور مصر سنة 1923 وإلغاء كل القوانين التى جاءت بها الحقبة العسكرية البغيضة وينص فيه على الحريات وأن أى قانون يحيف عليها بعد غير دستورى.

وكلمة الإنسان هنا تعنى الرجل والمرأة، والمرأة فى المجتمع الإسلامى لها كافة الحقوق والواجبات التى للرجل ويجب عليها أن تعمل حتى تظفر باستقلالها اقتصاديا وحتى تصقل شخصيتها وتتعرف على الحياة، ويكون المعيار فى الوظائف هو الكفاءة وليس الجنس.

على أن هذا لا يمنع من أن المرأة لها مهمة أفضل وأنبل من كل ما يمكن أن تقوم به، ولا يغنى أى فرد أو هيئة غناءها، ألا وهى تربية الطفل وتنشئة الأجيال. ومن هنا فيفترض أن تمنح أجازه مدفوعة، ولو نصف أجر لمدة ثلاث سنوات عند إنجاب طفل، ويمكن أن يتم هذا لثلاث مرات..

- **الحكم والسياسة:**

نؤكد هنا أن الإسلام لا يفرض نوعاً معينا من الحكم اسمه الخلافة. إن هذا لم يرد فى قرآن أو سُنة. وفكرة الدولة الإسلامية لم تتحقق أبداً باستثناء دولة الرسول فى المدينة، التى لم تستكمل أبرز خصائص الدولة كان يكون لها جيش محترف، وبوليس، وسجون وأن تفرض ضرائب هذه كلها وهى أبرز خصائص الدولة لم تتوفر فى دولة المدينة، وفوق هذا كله فقد كان على رأسها رسول يصحح له الوحى اجتهاداته. وهذه كلها صفات لا يمكن أن تتكرر فى دولة أخرى أما دولة الخلفاء الراشدين فلم تكن إلا أثراً من آثار دولة الخلافة وانتهت بعد أثنى عشر عاماً عندما طعن عمر بن الخطاب وفى جميع الحالات أى فى حالة دولة المدينة وفى حالة دولة الخلفاء الراشدين فإن الباعث لم يكن بمقتضى نص من القرآن والرسول ولكن بحكم سياق الأحداث فهى بنت التاريخ وليست بنت العقيدة.

وقد شرحنا هذا كله بإفاضة فى كتابنا الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة ثم أضفنا إلى ما سبق تأسيساً على أساس نظرى هو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا بحيث لا يقتصر الأمر على الإسلام، بل إنه شمل المسيحية، التى عندما كونت دولة تحولت من ديانة المحبة إلى محكمة تفتيش، وحتى الاشتراكية فإنها عندما كونت دولة أصبحت نقمة على العمال بعد أن كانت الأمل الأعظم لهم.

فلا داعى إذن للمماحكة مع الوقائع الثابتة وتجربة التاريخ على ممر العصور.

والدولة فى المجتمع الإسلامى دولة مدنية مهمتها رفع المستوى المادى والأدبى للإنسان ولجماهير الشعب، ودعم كرامة الإنسان، والاستجابة لإرادة الشعب.

وبالنسبة لنظم الحكم الموجودة حاليا فإن الديمقراطية هى أقرب النظم إلى الإسلام وهذا يتضمن حرية تكوين الأحزاب وحرية الانتخابات وأن تكون الوزارة مسئولة أمام المجلس التشريعى المنتخب مسئولية تامة وأهمها مراجعة الميزانية

كاملة وحق المجلس التشـريعى فى سـحب الثقة من الـوزارة أو من وزير ويسـتبعد تماماً ما جاء به عن الحكم العسكرى من نظم.

ويوضع نظام لانتخاب رئيس الجمهورية ويشترك فيه الشعب، ويجـوز لكل مصـرى ترشـيح نفسه ولا يجـوز أن تسـتمر مـدة الـرئيس لأكـثر من فـترتين وقد تكـون هنـاك اجتهادات إسلامية تطعم الديمقراطية، ولكنها تدخل فى الإطار الديمقراطى.

- الشريعة فى التأسيس الجديد هى كل ما يمت إلى عالم الـدنيويات والعلاقـات كعلاقة الحاكم بالمحكوم. الرجل بالمرأة – الرأسمالية بالعامل. الحـدود أو المـيراث وبقية القوانين.

هذه الشريعة إنما وضعت لتحقيق العدل، وكانت هذه الشريعة عندما وضعت تؤدى ذلك فإذا جاء التطور بأوضاع تجعلها متخلفة عن أن تحقق العدل فيجب إعـادة وضـعها بما يجعلها تحققه، وهـذا هو التطـبيق السـليم للشـريعة، ويطبق هـذا على ما جـاء فى القرآن أو السُنة.

- يقـوم النظـام الاقتصـادى على أسـاس حرية العمل وحرية التملـك، ولكن مع ملاحظة أن حرية التملك وظيفة وليست حقـاً مطلقـاً – وأن كل ما يتعلق بالعمل والعلاقات يخضع لاتفاقه مع العدل والنظام الاقتصـادى يقـوم أساسـاً على الاعتمـاد الذاتى وعدم الحاجة إلى العالم الخارجى إلا عند الضروريات ولذلك فإن الدولة أولاً: تشكل مجلساً أعلى لوضع أولويات النشاط الاقتصادى ما يتفق ذلك فتكـون الأولوية لإنتاج الغذاء والكساء ومواد البناء والمرافق وليس بما يحقق الربح لأصحاب الأموال والمفـروض أن يتجـاوب أصـحاب الأعمـال لأن مصـلحة الأمة مقدمة على الكسب الفردى ويفترض أن يؤمن الرأسـمالى المسـلم بهـذا. وإلا لما كـان هنـاك فـرق بينه وبين الرأسمالى المستغل أو أى أحد يجعل هدفه الوحيد الربح وهذا فى الحقيقة هو ما سلكته كل الدول الرأسـمالية الكـبرى فى مسـتهل حياتها فـإن بريطانيا لم تطبق حرية التجارة إلا بعد أن سنت قانون الملاحة العتيد وبعد أن أكدت سـبقها الصـناعى بفضل ظهور الثورة الصناعية مبكرة، وحتى "التجار المغامرون" الـذين سـبقوا هـذه المرحلة فإنهم كانوا يعملون لمجد بريطانيـا. وكـذلك الولايـات المتحـدة فـإن فكـرة حرية العمل المطلق ودعــوى آليــات الســوق هى الــتى أوقعت أمريكا فى الأزمة العالمية الطاحنة 29-33 ولم تنقذ أمريكا إلا اقتصاديات كينز التى تقوم على التدخل الكامل للدولة لتوجيه الاقتصـاد ولم تتبـنى آليـات السـوق إلا بعد العولمة أن حققت أمريكا السبق على العالم فى المجال الصـناعى. على إنها تقـدم الحماية للمنتجـات الزراعية وتتفق على حماية البقرة أضعاف ما يتفق على حماية المواطن فى الـدول النامية وبعد كل هذا فإن آليات السوق ليس لها الآثـار المـدعاة لأن أكـبر عامل فيها هو المنافسة يشل أمـام التنظيم المركـزى للشـركات عـابرة القـارات وغيرها من التكتلات الضخمة.

وتنظم العلاقة ما بين العمال وأصحاب الأعمال طريقة الاتفاقيات الجماعية ما بين النقابات وأصحاب الأعمال على أن يكون من حق الحكومة التدخل عند طلب أحد الطرفين.

إن حسنات الحرية فى المجال الاقتصادى لا تتحقق إلا بقدر من التنظيم.. ما بين أصحاب الأعمال والدولة وما بين أصحاب الأعمال والعمال والمصلحة العليا للدولة بحيث يمكن تصحيح الأخطاء وتقويم الانحرافات وهذا أمر مطلوب لضمان السير السليم للأعمال.

- لابد من إحياء نظام الزكاة ووضع مشروع أهلى/ حكومى لتطبيقه. فالزكاة فريضة إسلامية كالصلاة وكل مسلم يلزم بها فلا يجوز إهمال هذا الأصل العظيم وتنظيم مصارفها لتحقيق التأمينات والضمان الاجتماعى.
- تعد الفنون والآداب مما يدخل فى مجال حرية التعبير ولهذا لا يجوز للدولة التدخل فيها، ولكن عندما يساء استغلال هذه الحرية يجوز للمجلس التشريعى أن يسن قوانين تحد من ذلك على أن يعد هذا ضرورة قصوى ويمارس فى أضيق نطاق ممكن.

عندما صرح الله تعالى للشيطان بأن يفتن الناس وأن يستخدم خيله ورجله وأن يشاركهم فى الأموال ويسرى فى الناس مسرى الدم فإن المجتمع الإسلامى يكون أبعد ما يكون عن مجتمع لا يعرف الشهوات فهذه لابد وأن تكون موجودة بفعل الضعف البشرى والإغراء الشيطانى ولطبيعة التعددية فى الإسلام التى تسمح عامة بوجود الآخر، ولكن يقابلها الضمير والعقل من ناحية وقيم الإسلام التى تصل إلى دورتها فى الحرص على رضاء الله لهذا فإن القرآن يتبع فى معالجة السلوك الإنسانى طريقة المقاصة بمعنى أن الحسنات يذهبن السيئات ويكون الحساب فى الآخرة هو على رجحان كفة الحسنات بالحساب الإلهى التى يجعل الحسنة لها وزن مضاعف قد تصل إلى سبعمائة بينما السيئة لا تحسب إلا سيئة.

والفنون فى مشروع التأسيس الجديد تعد من "حرث الدنيا" وثمرة لما فى النفس الإنسانية من "فجور وتقوى" ولهذا فلا يمكن الحكم عليها بمقاييس إسلامية، ولكن بمقاييس إنسانية وفنية وما دام ليس هناك إجبار عليها فإن الذى يضيق بها يمتنع عنها.

وتلك القضية تثير نقطة هامة تلك **هى أن الدولة فى مجتمع التأسيس الجديد هى دولة العدل وليس دولة الفضيلة** لأن الفضيلة، كالهداية، لا تدخل فى صلاحيات الدولة، وإنما تدخل فى صلاحيات المجتمع المسلم الذى يعالج هذه القضايا من منطلق إيمانه بالقيم التى يقوم عليها التأسيس الجديد وهى قيم الإنسان الحرية، المعرفة، العدل، الخير الخ... وعلى المجتمع أن يشق طريقه وسط العلاقات الجدلية والمتشابكة كالعلاقة ما بين الحرية والعدل والعلاقة ما بين الهداية والجمال أو الاستمتاع الخ...

والمسـلم النمطى فى التصـور الإسـلامى ليس هو الإنسـان الـذى لا يخطئ فهـذا مستبعد تماماً للعوامل التى أشرنا إليها فى النبذة السابقة، ولأن كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون. والمسلم النمطى هو الذى يخطئ ولكن لا يصر على الخطـأ، ولا يقلب المـوازين فيعتـبره الصـواب. إنه يتـوب آونـة، ويعمل الحسـنات الـتى تجب السـيئات، وقد تفضل الله تعـالى بكرمه فتجـاوز للمؤمـنين الصـادقين عن "أسـوا ما عملوا" كما افترض ضمنا وقوعهم فى اللمم.

وقد أشـرنا أكـثر من مـرة إلى خطأ وعقم القاعـدة الفقهية "سد الذريعـة" وإنها تخالف منطق القرآن فضلاً عن إنها غير عملية.

من هنا، ففكرة الفضـيلة الأثـيرة إلى قلـوب المسـلمين التقليـديين، والتى يجعلونها المعيار ليست سليمة دائما، ويغلب أن تؤدى إلى مخـاطر أسوأ مما أرادوا درأها.

- أخيراً فقد يجوز لقائل أن يقـول إذا كـان محـور التأسـيس الجديد هو الإنسـان كخليفة لله على الأرض فإن الحضـارة الأوروبية قد جـاوزت هـذا المـدى لأنها جعلت الإنسـان إلها على الأرض، واسـتبعدت كل "الغيبيـات" وأحلت الطبيعة محل اللـه، نقول هذا صـحيح وهو فى أصل الإنجـازات الرائعة للحضـارة الأوروبية الـتى لم تكن تحلم بها البشـرية، فـالمجتمع الأوروبى ركز كل قـواه، وإمكانياته مـزودا بالعقل والحرية لتسخير قوى الطبيعة إلى مدى لم يكن يتصور.

ولكن هذا التقدم – الذى كان فى أصـله تـوثين الإنسـان لم يمر سـهلاً ولم يسـتمر صـفواً لقد تضـمن سـوءات عديـدة نغصت على المجتمع الأوروبى سـلامه. فـإطلاق الحرية دون عدالة ودون الإيمان بقيم موصولة بالله – أعـنى إنها من مصـدر أقـوى من الإنسـان ولا يمكن للإنسـان أن يتلاعب فيها كما يتلاعب بما يضـعه من قيم. نقـول إن هذين جلبا من السوءات ما يعادل ما حققا من الميزات فالصراع بين أصحاب الأعمـال والعمـال دمر السـلام الاجتمـاعى وأوجد ما يشـبه الحـرب الأهلية فى بعض الحـالات، وكان سببا فى ظهور الاشتراكية والشـيوعية الـتى قسـمت المجتمع الأوروبى وارتكبت من السوءات بدعوى إصـلاح النظـام الرأسـمالى ما هو أسـوء من النظـام الرأسـمالى نفسه، وإن كان النظام الرأسـمالى الطليق هو السـبب فى نشـوبها ومـاذا يكـون على أوروبا لو إنها جعلت العـدل وليس الحرية هو المعيـار فى الاقتصـاد والحكم ما بين العمـال من ناحية والرأسـمالية من ناحية أخـرى وما بين أصـحاب الأعمـال من ناحية والمستهلكين من ناحية أخرى، لو أن أوروبا حسمت هذه القضية لخلصت من منغصات وبيلة لبدت سماء السلام الاجتماعى.

لم تكن أوروبا لتستطيع ذلك، لأن الأمر فيها هو للإنسان وللحرية الطليقة للإنسان، فلم يكن يمكنها أن تضع ضـوابط نحو هـذه الحريـة، وهى لو وضـعتها فإنها لن تكـون طبيعية فى مجتمع الحرية، وقد جربت الولايات المتحدة تحـريم الخمـور ثم أقلعت عنه بعد عشـرين عاما وكـانت من قبل قد أعلنت تحرير العبيد فى أعقـاب الحـرب الأهلية ولكن العبيد خضعوا لتمييز صارخ سلب قيمة الحرية حتى خمسينات القرن الماضى.

القوة الوحيدة التى يمكن أن تقفها، وتصل من الفعالية حد الإلزام هو الإيمان بالله، ولكنها استبعدت ذلك من البداية واستمرأته فلم تعد هناك قوة يمكن أن توقفها.

من ناحية أخرى فإن إطلاق حريات النوازع الإنسانية دون أن يضبطها ضابط أدى إلى أن تكون صناعة السلاح – أى صناعة الموت والتدمير – أروج صناعة، وتأتى بعدها التجارة فى الجنس والمخدرات وتليهما "الجريمة المنظمة" ونحن لا نتصور حتى فى المجتمع الإسلامى، مجتمعاً ملائكيا يخلو من وجوه النقص، ولكن النقطة الهامة أن عدم وجود ضوابط جعل هذه الصناعات المدمرة السيئة التى هى سبه فى جبين أى حضارة تمضى بلا حدود وتصبح أعظم وجوه النشاط الاقتصادى، وتصور معنى ذلك وأثاره الوبيلة على المجتمع فلكى تستمر هذه المناشط لابد من الحروب وبالذات حروب التدمير التى تدمر البنية الأرضية والبيوت والمصانع حتى يتسنى استمرار صناعة السلاح وكذلك صناعة بناء ما دمرته الحرب، وبهذا يكفل دوام التشغيل والحيلولة دون البطالة أو الكساد..

هل هذه الحضارة أفضل من الحضارات القديمة التى كانت تقدم الضحايا البشرية لإلهتها، هذا هو ما يفعله الرأسمالية الطليقة إنها تشترى بقاءها بالقضاء بالموت لا على الألوف، بل بالملايين.

إن الحضارة الأوروبية بفضل العقل والحرية أصبحت آلة ضخمة رائعة تنطلق بأقصى سرعة وبأعظم قوة ولكن ليس لديها "الفرامل" التى توقف انطلاقها وفى مثل هذه الحالة فلا مفر من أن تكون النهاية هى الانتحار النووى. وعندما يحدث هذا الانتحار فسيأخذ الغرب معه إلى الهاوية كل البشرية، بما فيها الذين لا ذنب لهم ولكنها الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا فيها خاصة والتى حذرنا منها القرآن.

كان هناك مندوحة للحضارة الأوروبية عن أن تبلغ هذا المبلغ أو تقع فى هذا المأزق المصيرى الخطير لو أنها آمنت بالله. ولم تجعل من الإنسان إلها. ولكن خليفة لله لديه العقل والحرية، ولكن أيضاً القيم والالتزام بالله التى تحول دون أن يصل إلى ما وصل إليه المجتمع الغربى من شطط وسرف.

ولا يقل عن هذا أن الحرية الطليقة فى الاستثمار وجلب الأرباح أدت إلى جرائم شنيعة فى نظام البيئة، فاجتث غابات لا حصر لها كانت تحمى البيئة وأطلقت غازات سامة فى الهواء وألقت بالقاذورات والعوادم إلى الأنهار والبحار حتى ضجت السماء والأرض من هذا الاستهتار وأعلنت غضبها فيما نشهده من كوارث وما يحدث من أمراض وما يهدد مستقبل الأرض كلها..

وهكذا نرى أن التصوير الأمثل للإنسان هو التصوير الإسلامى – خليفة الله – وليس التصوير الأوروبى للإنسان كإله – وصدق الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. { 22 الأنبياء}..